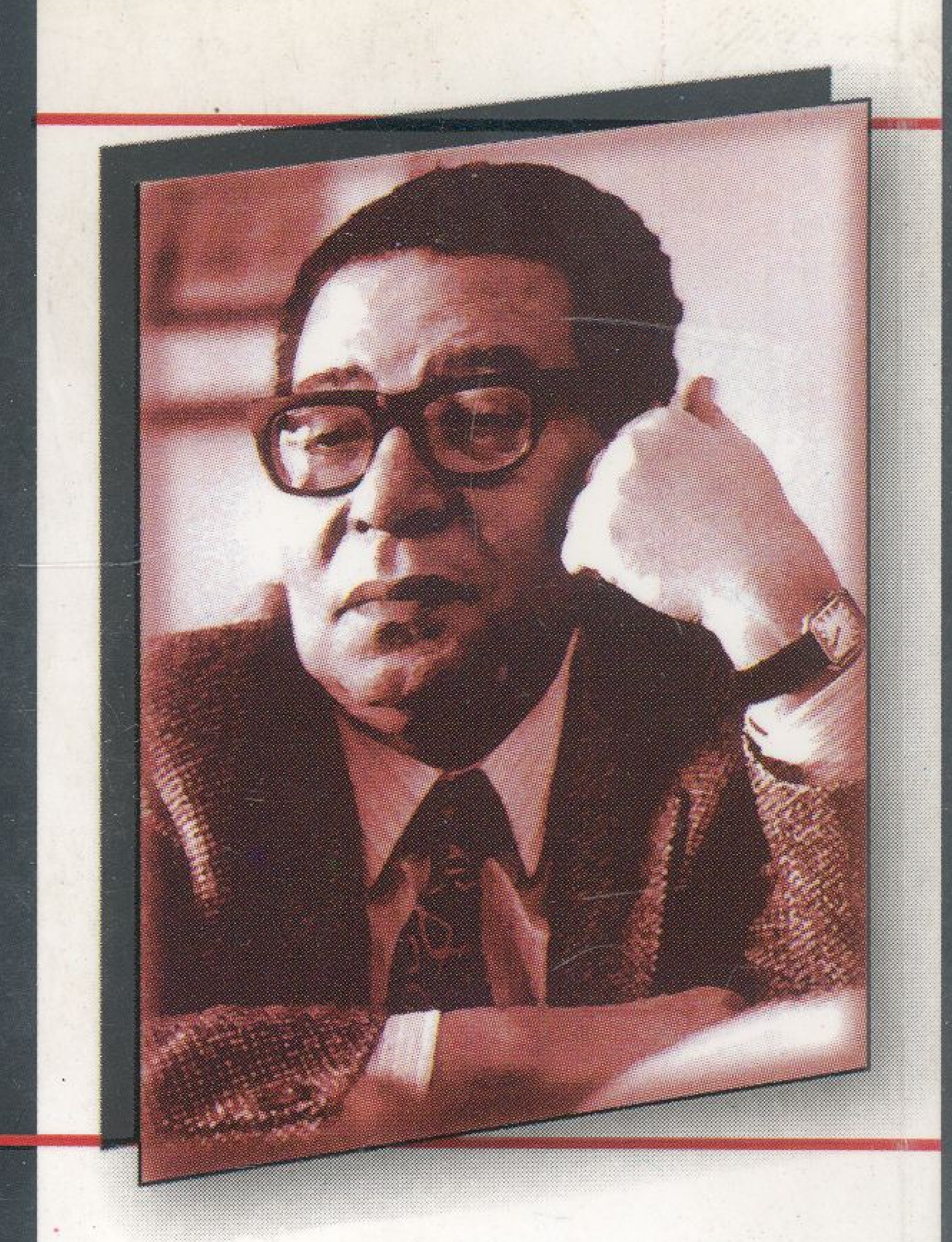


أحمد بهاء الدين

شرعية السلطة

فى العالم العربى





جمعية ثقافية مسجلة بوزارة الشئون الاجتماعية ومشهرة برقم ٢٨٥٥/٩٦

شرعية السلطة
فى العالم العربى



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مركز الحضارة العربية
4 ش العلمين - عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات - القاهرة
تليفاكس : 3448368 (00202)
E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com
alhdara_alarabia@hotmail.com
www.alhdara-alarabia.com

جمعية
أصدقاء
أحمد بهاء الدين

- جمعية أهلية ثقافية مسجلة ومشهرة برقم ٤٢٨٥ لسنة ١٩٩٦ .
- هذه الجمعية لا ترمى لتكريم كاتب بعينه إنما تكريم ودعم تراث فكرى واسع ينتمى إليه ويمثله، ولا ترى الجمعية أن التكريم بالمديح وترديد المآثر وإنما بالنظر إلى المستقبل وبالعمل على إتاحة الفرصة لآخرين من جيل الشباب على مواصلة ذات المسيرة.
- إن أحد الأهداف الرئيسية لهذه الجمعية هو دعم الروابط الثقافية والفكرية بين الشباب العربى فى مصر وكل أنحاء الوطن.
- الجميعة تقدم منحة بحثية وجائزة سنوية للشباب عن مشاركتهم بأبحاث فى الموضوعات التى تطرحها سنويا .
- تسعى الجمعية ويسعدها دائمًا تلقى المساهمات والاقتراحات والمشاركات فى كل أنشطتها وبرامجها الثقافية المختلفة.

◆

المركز الرئيسى
٩٣ ش قصر العينى - الطابق الخامس - شقة ٣٣
تليفاكس : ٧٩٤٠٣٢
محمول : ٠١٢/٧٣٦٠٥٧٤
E.mail: F absociety@hotmail.com
info@ahmedbahaaeldin.com
www.ahmedbahaaeldin.com

أحمد بهاء الدين

شرعية السلطة في العالم العربي





الكتاب : شرعية السُلطة
في العالم العربي

الكاتب : أحمد بهاء الدين

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٥

رقم الإيداع ٢٠٠٥/٧١٤٠
الترقيم الدولي I.S.B.N.977-291-660-6

الغلاف :
تصميم وجرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الالكتروني :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : إيمان محمد

الإهداء

إلى شباب هذا الوطن

مستقبل هذه الأمة

دعــــوة

عكفت جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين- في إطار إسهاماتها في حياتنا الثقافية التقاءً للشباب العربي والمهتمين بالثقافة وبفكر التنوير والتقدم- ثلاث سنوات متصلة، تجمع كتابات أحمد بهاء الدين من صحف مختلفة كثيرة ومجلات ومجالات متعددة وكتب متنوعة وندوات وحواراتٍ ولقاءات واسعة، وأنتجنا ذلك كله في أسطوانة إلكترونية مدمجة، لنجدها تمثل في الحقيقة نصف قرن.

نصف قرنٍ متصل من الجهد والفكر والعطاء للنهوض بالمجتمع والتقدم به، رؤية متسقة متصلة متناغمة تتقدم بواقعية متطورة متنامية، سجل فريد لرؤية موضوعية مستقبلية هادئة.. تمثل موقفًا عربيًا تقدميًا لمختلف قضايا أمتنا وهمومها واهتماماتها.

فإذا بالظروف تطرح علينا القضايا، ويمر الوطن بسلسلة من أحداث - غريبة - تتلاحق لم تتوقف بعد.. لم تُستوعب كاملة.. مازالت لم تستقر نتائجها. ويصاحب ذلك ويتبعه - حوار- مطلوب أو مفروض، في الداخل أو من الخارج، تختلط الأمور .. تتداخل الرؤي .. تختلف البواعث والأهداف.

هنا تدعونا الحاجة أن نقلِّب صفحات وكتابات أحمد بهاء الدين نلتمس رؤيا، نبحث عن إجابات .. ولم تكن مفاجأة أن نجدها والآن حاضرة معاصرة.. جوهرية هامة تُرسي القواعد والأسس تبحث عن المضمون قبل الشكل والتفاصيل وجدنا ذلك في كتاب "شرعية السلطة في العالم العربي" لأحمد بهاء الدين ثم حوار دار معه حول موضوع هذا الكتاب بعد صدوره .. ثم مقال يستكمل به موضوع الكتاب ويدعو للمزيد من تناوله والكتابة عنه والحوار حوله.. لقد جمعنا ذلك كله وها نحن نُعيد إصداره من جديد وندعو لقراءته والحوار "شرعية السلطة في العالم العربي".

وتتوالى الصفحات، وكأنه حاضر بيننا تفاصيل الواقع يشاركنا الحوار، فنجد هذه المقالات هنا وهناك عن الديمقراطية في الفكر والممارسة، في مصر وفي

الوطن العربي والعالم، في التاريخ في التجربة في المستقبل فنصبح أمام وجبة فكرية شهية دسمة حان تناولها، ثمره يانعة حان قطافها، إجابة موضوعية عقلانية هادئة، مشاركة رصينة ثمينة في حوار هو بحاجة إليها، فنرى جمعها وإصدارها كذلك في كتاب – جديد – يجمع مقالات أحمد بهاء الدين وكتاباته وحواراته عن الديمقراطية وندعو للقراءة والحوار.

إننا هنا في الحقيقة لا ندعو فقط للقراءة، إنما ندعو لهذا المنهج، لهذه الطريقة في التفكير، لهذه الموضوعية والعقلانية في الحوار والتناول، لهذه المستقبلية في الرؤى.. هذا هو السر في تلك الجاذبية والمصداقية والقبول واستمرار حياة هذه الكلمات، ندعو لهذا المزيج من الوطنية المخلصة والبصيرة الثاقبة والقدرة الفائقة على التحليل والنفاذ، تلك الشجاعة الفكرية الكبيرة والإقدام الذي لا يتردد والثبات الذي لا تزحزحه تقلبات الدنيا وتبدلاتها، واليقين الذي لا يتلون ولا يتنكر ولا يحركه الهوى.

ولأنها كلمات وكتابات كانت ترجو وتدعو لمستقبل مأمول لم يأتِ بعد.. فما زالت كما هي برونقها.. بقيمتها.. بالحاجة إليها.. ولذلك لم نتدخل أبدًا فيها ولم نقدم قراءة لها أو تحليلاً أو دراسة.. نقدمها كما هي بالأحداث والتواريخ التي دارت فيها.. وهى بذاتها وبالقراءة الصحيحة لها تقدم الرأي والرؤية والدرس والعبرة.

يختلف المكان لعله أحيانًا ويختلف الزمان حتمًا!! ويبقى الإنسان دائمًا متطلعًا نحو المستقبل.

لكل هذا.. ووفاءً لهذا الرجل ولهذه الرؤية ولكل هذا الجيل ولهذا الفكر.. وإيمانًا بالمستقبل.. بالشباب الذي ندعوه وندعمه لاستكمال ذات المسيرة.. تُصدر جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين هذين الكتابين "شرعية السلطة في العالم العربي" و"الديمقراطية" وتقدمهما كدعوة مخلصة .. دعوة للقراءة.. دعوة للحوار.. دعوة للمستقبل.

حوار مع أحمد بهاء الدين

حول كتابه (*)

شرعية السلطة في العالم العربي

الاستماع إلى حديث الكاتب أحمد بهاء الدين متعة عقلية.. وهو يثير في الشخص الذى يحدثه الرغبة فى التفكير من خلال التحليل العميق.. والرأى الجديد.. وتقريب الفكرة التى يعرضها بأمثلة واقعية أو قصص طريفة.. فهو موسوعة فكرية تتدفق بالآراء الجريئة والأفكار المضيئة..

ولمدة أربع ساعات كاملة استمعت للأستاذ بهاء وهو يجيب على أسئلتى عن من هو المثقف؟.. والعلاقة بين المثقف والسلطة؟.. ولماذا نحن متخلفون؟.. وكيف نعيد للنخبة التى تضيع العقل والذوق قوتها وتأثيرها؟.. وغيرها من الأسئلة حول موضوعات كتابه الجديد، شرعية السلطة فى العالم العربى الذى صدر أخيراً.

قلت للأستاذ بهاء..

– ما الذى تريد أن تقوله للقارئ من خلال كتابك الجديد؟.. وما هى الفكرة التى تهدف إليها؟..

– أجاب..

ما أريد أن أقول فى كتاب "شرعية السلطة فى العالم العربى".. أشياء كثيرة تتصل بحياتنا الراهنة.. على النطاق المصرى، والعربى والإسلامى.. وعنوان الكتاب هو عنوان الفصل الأول منه فقط، وإن كان الموضوع فى تقديرى يحتاج

---

* حوار منشور بجريدة أخبار اليوم بتاريخ ١٩٨٤/٦/١٦

إلى كتابات كثيرة، لأنه يتصل بمفهوم ما زال غامضاً لدى أغلب مواطنينا.. أنه محاولة للتفرقة بين الوضع "القانونى".

إذا جاز التعبير – وبين الوضع "الشرعى".. فى الغرب يوجد فرق بين كلمة Le Gality وكلمة Le Gitimacy . وبعضنا يحاول ترجمتها إلى "شرعية" و "مشروعية".. ولكن الفرق يحتاج إلى إيضاحات أكثر.

ولكن.. ببساطة: حين تستولى قوة ما على السلطة – حزب أو جيش أو فرد – فإن كل ما تصدره من قوانين يصبح واجب التنفيذ وما تعقده من معاهدات يربط الدول.. ولكن هذا لا يعطيها صفة "الشرعية" أو "المشروعية"، كما تشاء من تعبيرات.. إلا إذا حققت هذه "السلطة" الفعلية كشيئاً أهم وأعمق بكثير: هى أنها تعبر بالفعل عن خلاصة آمال وقيم وتطلعات القسم الأكبر من المواطنين، أى حين يحل "القبول" من ناحية الشعب محل "الإرغام"..

الحاكم العسكرى الإسرائيلى فى الضفة الغربية أصدر منذ أسبوع قانونا بجعل عقوبة الصبى الذى يقذف حجراً على سيارة إسرائيلى السجن عشرين سنة. والمحاكم سوف تنفذ هذا القانون.. ولكن هذا لا يجعل وضع الحاكم العسكرى الإسرائيلى شرعياً، بكل ما يصدر عنه، لأن وجوده ذاته مرفوض من الناس، وما يصدر منه من قرارات يتنافى مع قيم ورغبات ومفاهيم هؤلاء الناس.

هذه التفرقة رأيتها هامة بعد أن كثرت فى بلادنا العربية نماذج "السلطة" أو "القيادة" التى تفعل بشعوبها ما تشاء "بصورة فردية" معتقدة أن مجرد استمرارها أكثر من عشر سنوات مثلاً جعلها سلطة شرعية، فى حين أن استمرارها لم يكسبها هذه الشرعية لأن كل ذى عينين يرى أنها لا تعبر عن القيم والمصالح الحقيقية والتطلعات السائدة بين المواطنين.

– **إن الديمقراطية إذا هى أقرب طريق لتحقيق الشرعية؟**

– **بالتأكيد، ولكن الشرعية** تتطلب أكثر من الديمقراطية الشكلية. لبنان كانت فيه **ديمقراطية شكلية**، ولكن الحرب الأهلية أثبتت أنها لم تحقق الديمقراطية التى **تستوعب فعلا آمال** المواطنين وتعبر عنها..

وسأروى لك قصة ظريفة.. حدثت فى انجلترا خلال إحدى زياراتى لها.. فقد اصطادت سيدة عجوز سمكة كبيرة من نوع نادر، وقررت أن تدعوا جيرانها فى القرية إلى وليمة كبيرة على هذه السمكة. ثم سمعت من جار لها أن هناك قانوناً عمرة ثلاثمائة سنة يجعل أى سمكة من هذا النوع ملكاً لملك انجلترا. ولم تتردد السيدة العجوز فى إلغاء المأدبة والذهاب بالسمكة إلى قصر باكنجهام فى لندن!

القانون سخيف، وقد مات بالتأكيد، ولكن تصرف السيدة يعكس حالة "الرضا العميق" عن الأسرة المالكة الإنجليزية وتطورها مع تطور مجتمعها، فهذه قمة الشرعية. فالحديث هذا عن "موضوع" علاقة الحاكم بالمحكوم وليس عن "شرعيته". ولذلك ينام الحاكم الشرعى، أيا كان النظام، وليس على بابه إلا عسكرى مراسلة. ولا ينام الحاكم "غير الشرعى" – بهذا المعنى – إلا فى حراسة فرقة مدرعة!

– تقول فى كتابك إن اقتناع الشعب بأحقية السلطة وجارتها هو جوهر الشرعية.. فكيف يتم هذا الاقتناع حتى تتحقق الشرعية؟

– يتم هذا الاقتناع بأسلوبين معاً، الأول والأسهل أن يشرك الشعب بصورة جدية فى الاختيارات الأساسية فى مجريات حياته. هذا لا يغنى من الشرط.. الثانى وهو أن تكون ممارسات السلطة وسلوكياتها الفعلية منسجمة مع هذه الاختيارات الأساسية. وليس معنى هذا أن تكون القيادة "تابعة"، فماذا خطأ فى البلاد المتخلفة، حيث عليها أن تكون "متقدمة" و "رائدة" ولكن ليس إلى درجة "الانفصال" عن المواطنين الذين تتصدى لقيادتهم.

– ما هى العلاقة المثلى التى يجب أن تكون فى رأيك بين الحاكم والمحكوم؟

– هى التى وصفها سعد زغلول فى خطابه بمناسبة تشكيل أول وزارة منتخبة فى مصر حين وضع لحكومته هدفاً هو "أن ينظر الشعب إلى الحكومة نظرة الجندى إلى القائد، لا نظرة الطير إلى الصائد"!.

– ما هو الفرق بين الثورة والانقلاب؟

– الانقلاب هو الاستيلاء على السلطة، كما كان ينتصر مملوك على مملوك، ويستولى على السلطة، وكما ينتصر جنرال على جنرال فى أمريكا اللاتينية

ويستولى على السلطة. ولكن الثورة حدث أكبر.. مهما كان القائمون بها، فهى تكون ثورة إذا أيدتها أغلبية ساحقة من الشعب، وإذا كانت تستهدف أحداث تغييرات جذرية فى المجتمع. وهذا لا يحدث إلا عند نهاية عصر ما.. ربما كان شرعياً ثم تحلل وضعف أو انحرف ففقد "شرعيته" بالمعنى الذى شرحته بالتحديد. الثورة هنا تصبح هى العمل الشرعى. والتاريخ الإسلامى فى عهد طهارته الأولى، أيام الخلفاء الراشدين، علمنا أن الخلفاء أنفسهم كانوا يطالبون الناس "بتقويمهم إذا رأوا فيهم اعوجاجاً".

إن ثورة ٢٣ يوليو مثلاً، لم تأت بجديد... الأهداف التى رفعتها، كانت محل تفكير ودعوة طلائع المثقفين والشباب فى مصر قبل قيامها، إخراج الإنجليز. تحرير الاقتصاد الوطنى من التبعية. دعا إبراهيم شكرى ومحمد خطاب وغيرهما إلى تحديد الملكية الزراعية. دعوت أنا مثلاً وأنا فى الثانية والعشرين من العمر إلى تأميم البنك المركزى (كان إنجليزيا) وإلى تأميم تجارة القطن، إذ كانت كل ثروة مصر هى القطن، وكل دخلها من النقد الأجنبى من القطن، وكان القطن يزرعه عشرة ملايين فلاح ويبيعه ويصدره ويأخذ العملة الصعبة أقل من عشرة أشخاص. وكان تفكيرى هذا بالطبع متأثراً بالبيئة الشابة المهتمة ببلادها فى تلك الفترة، وكانت دعوتى لتأميم البنك المركزى بعد أن تم عقب الحرب تأميم إنجلترا – أم الرأسمالية – للبنك المركزى هناك، وتأميم دايجول لأكبر خمسة بنوك فى فرنسا. فالأمر لم يكن اختراعاً من أحد، ولكن رياحاً جديدة كانت تهب على العالم، وكان الشعب يطالب بعزل الملك، ويطالب بتأميم قناة السويس، ويطالب بالتصنيع، ويطالب بسياسة عدم الانحياز.. فالثورة لا تولد من فراغ، بل من تيار أو مجموع تيارات قوية.. إنها فقط تكون الأداة للتغيير، وتكتشف أسلوب تطبيق الشعارات التى ينادى بها الرأى العام.

– العلاقة بين المثقفين والسلطة فى البلاد العربية يحكمها الشك وعدم الثقة.. وأحياناً التناقض والعداء.. فما هو السبب فى هذه العلاقة القلقة!

– السلطة التى لا تقيم علاقة وطيدة بالمثقفين سلطة ضعيفة، قليلة الثقة بنفسها، وهى الخاسرة لأن أى سلطة لا يمكن أن تستوعب وحدها الحلول العصرية

للمشاكل، خصوصاً فى عصر انقلابات علمية كعصرنا هذا، وبالتالى فهى تتأخر حتماً عن اكتشاف الحلول الجديدة، حين تتصور أنها تستغنى عن ذوى القدرة على استكشاف هذه الحلول. مشاركة المثقفين للسلطة فى أى مكان، كالريح التى تدفع شراع السفينة..

وأقف هنا عند كلمة "مشاركة"، لأن السلطة حين تكون قليلة الثقة بنفسها تظن أن "المشاركة" معناها "اقتسام السلطة" معها. وهذا غير صحيح، لأن المثقفين والرواد والخبراء لا يطلبون "سلطة"، ولكنهم يقدمون خلاصة ما اكتسبوه وما أهلتهم له مواهبهم.. ولكن أخلاق الاستبداد قديمة فى البلاد الشرقية.. فالوزير يجب أن يعتقد أنه الوحيد القادر على قيادة العمل فى مجاله ورسم سياساته، ويظن أن الأخذ بالخبرات الأخرى ضعف. وهذا أمر لا يقدم عليه وزير قوى.. وهكذا.

ثم إننا لا نعرف الفرق بين النقد والعداء.. وإذا عرفناه بعقولنا فلا نعرفه بعد بغرائزنا. والمثقف لا يكون مثقفاً إلا إذا كان له عقل "ناقد"، غير مستسلم، حتى لصاحبه.. هذا جزء من تكوينه.. وجزء ضرورى، لأنه عن طريق النقد يصل إلى الأحسن. وهذا لا يرضى السلطة فى كثير من الأحيان. ولذلك نجد السلطة أحياناً لا تفهم المثقفين والمثقفون لا يفهمون السلطة.

والمثقف – بالمناسبة – ليس الثرثار ولا الجهورى الصوت، لأن بعض الثرثارين يختلطون فى أذهان الناس بالمثقفين. والثقافة ليست فصاحة اللسان ولكنها فصاحة العقل. والمثقف هو القادر على نقد فكرة أو اقتراح فكرة وليس هو القادر على توقيع كلامه بأبيات الشعر.

وأمريكا – كما يقول المؤرخون – بناها مثقفو الفكر مثل جيفرسون ومثقفو العلم مثل بنجامين فرانكلين، وليس البيروقراطيين الذين لا يعرفون إلا السير فى الطرق القديمة التى سبق شقها من زمن بعيداً. تحالف "العلم والعمل" صنع أمريكا وهو جوهر أو حركة النهضة والتطور.

– المسلمون متخلفون عن الإسلام بما يقرب عن عشرة قرون.. لماذا قلت هذا الرأى فى كتابك؟.. وكيف نتخلص من هذا التخلف؟

– نعم.. المسلمون متخلفون عن الإسلام بعشرة قرون وربما بثلاثة عشر قرناً من

الزمان.. الإسلام انتشر بالفتح الإسلامى وغيره بأسرع مما انتشر أى دين أو مذهب آخر، لأن الإسلام لم ينتشر بالغزو بمعناه المعروف، ولكن بتحول البلاد التى فتحها إلى الإسلام، وهذا معناه أن قوة الدفع الأساسية لم تكن السيف، ولكن الرسالة والقيم والعلاقات التى يحارب من أجلها هذا السيف.. والتى كسبت قلوب الناس قبل أن تسقط حصونهم..

قيم الإسلام الأولى هى العدل والمساواة.. وهى الحرية التى تجعل امرأة تخاطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وتخطئه علنا أمام الناس، وهى رفض التمييز العرقى والعنصرى واللونى والطبقى وكل متعصب من أى نوع.. فأين نحن الآن من هذا؟ وكل بلد إسلام فيه مشكلة تمييز وأقليات حتى من نفس الدين.. وصراع المسلمين الأساسى صراع عرقى أو مذهبى داخل دين واحد بلا مذاهب. ونظم القهر والاستبداد والفردية وعدم التسامح وفهم الدين على أنه عقوبات وحدود فقط، هى نظم سائدة فى أغلب بلاد الإسلام. وادعاء الحكام لعصمة إلهية لم تكتب لبشر، أمر شائع، لتعزيز الاستبداد لا غير. واستخدام الإسلام كورقة سياسية للاستيلاء على السلطة أحياناً أو للاحتفاظ بها أحياناً صار أمراً متكرراً نرى أمثلته كل يوم. ومحاربة الاجتهاد، وبالتالى الاعتراف بالعقم والعجز والقصور بالنسبة لائمة ومفكرين وعلماء أبدعوا واجتهدوا قبل أكثر من عشرة قرون. بعد أن صرنا نعرف ما لم يكونوا يعرفون، وبعد أن تيسرت وسائل العلم والمعرفة لأكبر عدد من الناس.. إننى لو حاولت أن أعدد مظاهر تخلف المسلمين عن الإسلام الصحيح لما انتهت. ألا ترى ما نحن فيه من حماقات ونكبات وهوان؟ هل هذا من فعل الإسلام أم من فعل المسلمين؟!

إن حرية الرأى والعقيدة كانت مفتاح المد الإسلامى والحضارة الإسلامية، الذى فتحت به حتى أبواب ظلام العصور الوسطى فى أوروبا. يقول المستشرق الأسبانى جابنجوس "لقد سطعت فى أسبانيا أول أشعة لتلك المدنية التى نشرت ضوءها فيما بعد على جميع الأمم المسيحية وفى مدارس قرطبة وطليطلة العربية، لمعت جذوره العلوم اليونانية بعد أن انطفأت، وإلى حكمة العرب وعلمهم يرجع الفضل فى ذلك وفى كثير من أهم المخترعات الحديثة"..

ويقول المؤرخ لين بول "أنشأ العرب حكومة قرطبة التي كانت أعجوبة العصور الوسطى، بينما كانت أوروبا تتخبط فى ظلمات الجهل، فلم يكن سوى المسلمين من أقام بها منابر العلم والمدنية".

- كيف نعيد "للنخبة" الذين يصوغون العقل والذوق العام قوتهم وتأثيرهم حتى تكف عن الصراخ من هبوط مستوى الإنتاج الفكرى فى كل المجالات؟.

- إننى أومن إيماناً عميقاً بدور "النخبة" ولا أجد فى هذا تعارضا مع إيمانى بالديمقراطية والجماهير الواسعة. قديما كانت النخبة هى نخبة الجاه والثراء. الآن هى نخبة العلم والمعرفة والكفاءة. وكل نظام سياسى من أقصى الشيوعية إلى أقصى الرأسمالية، للنخبة فيه دور أساسى. وإذا أهدرنا دور النخبة فإننا نهدر قول الله تعالى "وقل هل يستوى الذين يعملون والذين لا يعملون".. ونهدر جهد المجتهد ونساويه ببلادة المهمل وغير المجتهد.. ونساوى بين الذى تدور حياته حول الخدمة العامة والذى تدور حياته حول خدمة نفسه خاصة. النخبة هى "الموتور" فى السيارة، والنخبة ليست معصومة، بل أحياناً تكون مصدر نكبة لشعوبها، إذا خانت دورها، ونافقت وداهنت – ساعتها تكون مصدر أكبر الشرور فى المجتمع.

- انتشرت أخيراً فى صحفنا موجة تبادل الكتاب للشتائم والاتهامات.. فكيف نتخلص من هذا الإسفاف الذى يحط من قدر الكاتب فى نظر القراء؟

- أرجو أن يكون هذا حريقاً مؤقتاً يأكل نفسه، ولا يبقى بعد ذلك إلا الصحيح.. ولكننا إذا أردنا اللوم لا نلوم إلا الذين يسمحون بذلك، وهم أصحاب سلطة عليا، وقد اختلط الحابل بالنابل، وذلك بفعل دخول ملايين جديدة من الناس سوق القراء، وهذا حسن، دون تدريب وتثقيف سابق، فصارت تجارة الغش رائجة. هذا يحدث فى مراحل الانتقال. فالملايين الجديدة سترتقى مع الزمن، وستصبح أقدر على التمييز.

وقبل أن أترك الأستاذ بهاء قلت له.

- أنا أعرف أن لك رأياً فى الصحف القومية وتطويرها من خلال تجاربك.. فما هو هذا الرأي؟

- أجاب:

مشكلة الصحف القومية صارت أعقد من ذنب الضب.. كما يقولـون.. مـن يملكها؟.. من يحكمها حقاً؟.. من يحاسبها حقاً؟.. لا إجابة على ذلك.. لقد صـارت "كيانات ديناصورية" تحتاج إلى تغيير عميق. ولكننى أزعم أن أحداً لا يملك صيغة للعلاج، لأن العلاج ليس سهلاً، ولقد اقترحت على نقابة الصحفيين مراراً أن تجندنا جميعاً للتفكير فى هذه القضية، فلا يكفى ولا ينفع أن نهاجم السلطة ونلقـى علـى عاتقها وضع الصحافة.. إنما علينا أن ندرس وننقب ونقارن التجارب، ونتقدم إلـى السلطة باقتراح شامل مدروس، يكون أساساً للبحث أو أساساً للمطالبة بالحلول. أما التنافس على إطلاقات الشعارات الرنانة فهو لا يؤدى إلى نتيجة.

وهذا يعيد إلى ما ذكرته لك هذا قليل من حاجتنا إلـى "فصـاحة الفكـر" لا "فصاحة اللغة".

نحن.. والحاضر

شرعية السلطة في العالم العربي

سألوني، عن التحديات التي تواجهها القومية العربية..

وكان ذلك في ندوة عامة، في مقر رابطة الأدباء، في عمان، الأردن.

وقلت لهم: إن التحديات التي تواجه القومية العربية كثيرة، منها مثلاً الوصول إلى نوع من أنواع الوحدة العربية، ومنها حل مشكلة التخلف الاجتماعي والاقتصادي، ومنها تحدي المحافظة على الاستقلال القومي بين تيارات وعواصف القوى الكبرى. ومنها تحدي الحفاظ على الثروة البترولية الاستراتيجية وحسن استثمارها.. إلى آخره.

ولكنني، قلت لهم، أفضل أن لا أتحدث عن "التحديات الخارجية" المعروفة، وأن أركّز على ما يمكن تسميته "تحديات داخلية"، أي تحديات فينا وفي نفوسنا ومجتمعاتنا. ذلك أنني أعتقد أنه لو استقامت أمور الأمة العربية الداخلية، وحياتها مع نفسها، لتغير الموقف تماماً بالنسبة إلى كل شيء. وحتى التحديات الخارجية سوف يتغير وضعها وسوف تسهل مواجهتها إلى حد بعيد.

وقد اخترت من هذه التحديات، ثلاثة.. ثلاثة أمور تحتاج إليها المجتمعات العربية بدرجات متفاوتة. وقد تبدو للبعض نوعاً من الترف الشكلي، لأنها "صفات" وليست "أشياء مادية". ولكن الواقع أن الحاجة إليها صارت ماسة بل ومتفاقمة.

فالقوة المادية لا يمكن أن تأتي إلا في أعقاب قوة معنوية.

وكل مجتمع ناهض، لم يحقق نهضته وتقدمه المادي إلا بعد أن استتبت لديه "قيم" و"مؤسسات" و"نظم" تسمح بقيام التقدم المادي واستقراره على أساس متين.

إن من الشعارات البراقة الرائجة هذه الأيام، في مؤتمرات وعلى أقلام الباحثين وألسنة الزعماء والحكام.. عبارة "نقل التكنولوجيا" التي نستخدمها في إطار البحث في سبل تطوير وتقوية مجتمعاتنا العربية..

ولكن التكنولوجيا لا يشتريها المال، ولا ينقلها عشرات أو مئات من الخبراء الذين يتعلمونها فى الخارج. هذه وسائل مساعدة. ولكن التكنولوجيا لا تنتقل حقاً وتصبح لها جذور إلا فى تربة صالحة ومهيأة لذلك. والتربة لا تكون صالحة إلا إذا توفرت لها ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية معينة..

وحتى لا يظن القارئ أنني أشغله بقضية هامشية أسرد قصة صغيرة سردتها قبلاً فى مجال آخر، تدل أي إنسان مدرك للمسؤولية، أن البلاد لا تتقدم بالصناعة والزارعة وإصلاح التليفونات وحدها!

منذ أكثر من عشرين عاماً، وأنا في مطلع حياتي الصحفية، تعرفت بحكم المهنة على الملحق الصحفي الشاب في سفارة اليابان بالقاهرة (وقد لقيته أخيراً سفيراً لليابان فى دولة الكويت). ثم عرفت منه بالمصادفة يوماً أنه يواظب على حضور حصص اللغة العربية في مدرسة المنيرة الثانوية في شارع المبتديان. ودهشت. وقلت له إن هناك وسائل أخرى أسهل لتعلم العربية بالنسبة إليه. وقتها قال لي: إنه حقاً مبعوث ليعمل ملحقاً صحفياً لليابان في مصر. ولكن مطلوب منه شيء آخر، هو دراسة اللغة العربية دارسة دقيقة عميقة تمكنه من أداء غاية معينة بعد سنوات وهي: ترجمة كتاب "مقدمة ابن خلدون" إلى اللغة اليابانية.

هذه الواقعة الحية، لا تبرح ذهني أبداً. فكتاب مقدمة ابن خلدون من أهم كتب التراث العربي القديم. وهو من أهم مراجع علم الاجتماع في العالم كله. ولذلك لم تكتف اليابان بأن يطلع عليه المتخصصون في لغات أخرى – إنجليزية وفرنسية – ولا إلى إشارات المؤلفين العالميين إليه. ولكنها كلفت أحد أبنائها بالقيام بهذا الجهد سنوات طويلة، حتى يوجد هذا الكتاب كاملاً، فى لغة اليابان متاحاً لكل شاب أو دارس يابانى فى علم الاجتماع!

وقتها، كانت اليابان خارجة من كبوتها وهزيمتها فى الحرب العالمية الثانية. لم تكن قد هجمت على العالم كله بعد بسياراتها وترنزيستوراتها وتلفزيوناتها وكل صناعاتها التي تذهل العالم وتزعزع أعتى الدول الصناعية الأخرى.

والبعض يظن – فى سطحية – أن اليابان عكفت على إتقان هذه الصناعات وحدها!

كلا! فنفس الجهد الذى كانت تبذله اليابان فى مجال البحث العلمي والإنتاج الصناعي كانت تبذله – بالتوازي – فى مجالات البحث الأخرى كالعلوم الإنسانية..

وتترجم مقدمة ابن خلدون من العربية رأساً إلى اليابانية.

عرفت اليابان قيمة الكلمة والورقة كما عرفت قيمة الجهاز الإلكتروني الصغير!

وبغير هذا ما كانت اليابان لتحرز ما أحرزته من تقدم مذهل!

ففي حياة كل الأمم، لم يحدث أبداً أن تم التقدم فى مجال واحد دون مجال. المجتمع أو الشعب إما أن يتقدم فى المجالات كافة، لأنها تكمل بعضها، وإما أن لا يتقدم!

والتقدم غير القوة المادية العابرة!

***

وقد اخترت ثلاثة تحديات داخلية أو ثلاثة أشياء علينا أن نحققها فى بلادنا أولاً، ونقيم عليها حياتنا، ونجاهد فيها أنفسنا..

أولاً: الديمقراطية وحرية الرأي، وأمرهما واضح.

ثانيا: العقلانية، وليس ذلك معناه إلغاء العاطفة. فالعاطفة فى حياة الشعوب أمر أساسي. حب الوطن عاطفة. وحب العدل عاطفة. إنما علينا أن نقرن التأثر بالعاطفة مع درجة كافية من العقلانية، فيكون فكرنا وتصرفاتنا وسياساتنا كلها قائمة على العقل والقلب معاً.

ثالثا: الشرعية.. وقد تكون "الشرعية" هي أكثر "الشروط" حاجة إلى الإيضاح والتفسير. ذلك أنها تختلط، من الوهلة الأولى، "بالقانونية"، أي بالجانب القانوني، والشكلي، للشرعية.. في حين أنها في مجال فلسفة السياسة والحكم أوسع من ذلك وأعمق في معناها ومغزاها..

المفكر السياسي "ماكس ويبر" يقول: "من دون الشرعية، فإن أي حكم، أو نظام، يصعب عليه أن يملك القدرة الضرورية على"إدارة الصراع" بالدرجة اللازمة لأي حكم مستقر لفترة طويلة".

وهذا صحيح. فالحكم في محاولته امتلاك عنان الأمور. والقدرة على مواجهة المشاكل والتحديات، تختلف قدرته وكفاءته اختلافاً كبيراً.. بين حالة يكون فيها الناس معه، وحالة يكون فيها الناس ضده، أو ليسوا معه، سواء كانوا ضده بالاعتراض والرفض والمقاومة، أو بالسلبية، والإهمال وعدم التفاعل معه.

وأي حكم، قد يتمكن من تحقيق "استمرار وضع ما" عن طريق القوة، أو العادة.. ولكن العلاقة بين الحاكم والمحكوم تظل قلقة، مصدر ضعف للسلطة وللوطن معاً "إلى أن يقتنع المحكوم بجدارة الحاكم، وأحقيته في أن يحكم ويدير له أموره عنه".

فاقتناع الشعب "بأحقية السلطة وجدارتها"، هذا الاقتناع هو جوهر الشرعية ومغزاها. لا تغني عنه كل أشكال السطوة والرهبة والنفوذ، حتى ولو أحاطت نفسها بعشرات الدساتير والقوانين!

ويقول دافيد ايترن في هذا المعنى ذاته: ".. قد يقبل المواطن بسلطة الحكم عليه لألف سبب وسبب. ولكن الشرعية هي أن يجد المحكوم أن من المقبول عنده، والمناسب له، أن يطيع متطلبات النظام السياسي القائم، إذ يجد أنها تتسق مع قيمه ومبادئه وأخلاقياته وأمانيه. ذلك ليس لمنفعة شخصية مباشرة له، ولكن بمعنى المنفعة العامة وعلى المدى الطويل".

والشرعية بهذا المعنى أوسع من التأييد أو المعارضة. قد يكون هناك من يعارض السلطة، وقد يتذمر الناس من بعض قراراتها وسياساتها. ولكن هذه أمور طبيعية بل وحتمية. لا تنفى الشرعية، طالما شعر المواطنون أن السلطة فى توجهها العام، سلطة وطنية، منطقية مع التاريخ الوطني، ومخلصة فى المجموع لإدارة الشعب، وللقيم العامة التي تربط أبناء الوطن الواحد بعضهم ببعض.

ولتوضيح هذا المعنى نعطي نموذجاً من بلد عربي يصعب فيه قيام الشرعية إلى حد بعيد كصورة "متطرفة" نفهم منها "روح الشرعية". وهذا النموذج هو لبنان.

فى لبنان، يصعب الحديث عن "قيم واحدة وإرادة وطنية عامة.. الخ" تجمع بين كل أبناء شعب لبنان، فلبنان قام على توازن طائفي، وتكرس هذا التوازن الطائفي فى مصالح اقتصادية وانتماءات سياسية شتى. وزادت هذه الأوضاع تعمقاً بعد الاستقلال بدلاً من أن تزول. فالماروني والسني والشيعي والدرزي، ولا يمكن الكلام عن "تصور عام واحد لمصلحة الوطن" يضمهم جميعاً. ولا يمكن الكلام عن "مستقبل واحد" يتصورونه ويطمحون إليه كلهم على السواء. وتعميق ذلك بأن التعليم الوطني لم يوجد بل وجد أكثر من تعليم. كل تعليم يعلم أبناءه صورة مختلفة عن الوطن. والمؤسسات الوطنية كالجيش والبوليس والقضاء لم يتم الإحساس بأنها

للوطن كله، إنما يحسبها كل فريق له أو ضده حسب وضعه وانتمائه.

كانت الشرعية الوحيدة في لبنان قائمة على أساس ضعيف وهو: اتفاق الأطراف على نصيب كل طرف من "الكيان الواحد". فظل الكيان كياناً ولم يتحول إلى وطن. وحين اختلف الأطراف على الأنصبة في هذا الكيان، وحين وقعت في المنطقة أحداث وضعت هذه الأطراف أمام اختيارات حاسمة بالنسبة إلى هويتها وانتمائها، فاختلفت هذه الاختيارات.. حين وقع هذا انهارت "الشرعية" وقامت الحرب الأهلية..

لبنان صورة متطرفة، ولكن قيمتها أنها تشرح لنا فكرة الشرعية الأساسية.

الصورة الأخرى الواضحة التي تبين لنا أن "السلطة الشرعية" غير مجرد الوجود في الحكم هي صورة الاحتلال الأجنبي.

قد تحتل دولة من الدول دولة أخرى. وقد يستمر الاحتلال مائة أو مئات من السنين. ولكن مجرد الوجود فى السلطة هذا الزمن لا يجعلها شرعية، لأنه لا يتصور أن يكون هناك احتلال ما يتفق مع رغبة الناس، ويعبر عن إرادتهم ويترجم أمانيهم ولو بأضعف المعاني.

إنه وجود بحكم القوة لا بحكم الرضى. إنه "استمرار" لا "استقرار". إنه اغتصاب للسلطة وليس تفويضاً بها.

وإذا كانت صورة الاحتلال الأجنبي أيضاً صورة متطرفة، إلا أنها كذلك تشرح لنا جانباً آخر من جوانب فكرة الشرعية.

وحتى الثورة حقاً، إذا كانت ثورة حقاً، فإن هدفها النهائي يفترض أن يكون "إقامة شرعية جديدة ". بل إن ما يفرق بين الثورة وبين الانقلاب هو هذا المعيار الهام. الثورة والانقلاب كلاهما يغتصب السلطة. ولكن الثورة تغير المجتمع وتقيم شرعية جديدة يعيش بها مرحلة استقرار جديدة، أما الانقلاب فهو يغتصب السلطة فحسب. وإذا بقي فيبقى باغتصاب السلطة المستمرة، وليس بمنطق شرعي جديد مستقر.

وقد يحيط مغتصب السلطة نفسه بكل "أشكال" الشرعية. فأي حكم قد يتمكن عن طريق القوة من إقامة برلمان مثلاً وإجراء انتخابات، وإصدار قوانين وتشريعات. ولكنها تبقى كلها ستائر تخفي عدم الشرعية ولا تحل محل الشرعية. فالقانون ليس أي ورقة عليها توقيع الحاكم. القوانين أحكام خارجة من ضمير الناس معبرة عنهم فى الأساس. وما عدا ذلك فهو قوانين لا تساوي في ميزان الشرعية

أكثر من ثمن الحبر الذي كتبت فيه.

وترى الناس فى مثل هذا الوضع تتلقى هذه القوانين بالإذعان. وقد تنفذها عن خوف، أو قد لا تقاومها عن سلبية وعدم اقتناع. ولكنها ليست بالنسبة إليهم "مشروعة"، وليست لها في ضمائرهم أية مرتكزات.

وكما قلنا إن الشرعية غير "القانونية الشكلية"، وغير مجرد القدرة على البقاء في السلطة، وأنها تختلف عن التأييد والمعارضة لقرارات السلطة. كذلك فإن الشرعية غير الوصف السياسي لنظام الحكم: ملكي أو جمهوري، موروث أو جديد، فالملكية والجمهورية وغيرهما من نظم الحكم، لا ترتبط بالضرورة بالشرعية، لأن الشرعية كما هو واضح مما سبق ذكره هي معيار مستمر من "نظرة الرعية إلى السلطة" وليست مستمرة من طريقة وجود السلطة أو الأسلوب الذي سلكته للوصول إلى الحكم. إنما هذه أشكال للسلطة وليست هي التي تحدد إذا كان موقع السلطة من الناس هو موقع "القوة" أو موقع "النفوذ". والسلطة، في كل زمان ومكان، تحتاج إلى القوة لضبط حياة المجتمع. ولكنها لا تكون شرعية إذا كانت تعتمد على "القوة" فقط. إنما تكون "شرعية" يكون لها لدى الناس "قوة النفوذ" لا "نفوذ القوة". فمن غير هذه الرابطة المعنوية بين السلطة والرعية.. لا تكون هناك شرعية!

* * *

وإذا كنا نسوق هذه الأحاديث النظرية كلها، فإن الغاية ليست الغرق فى النظريات..

إنما الغاية أن نقول أولاً إن "الشرعية" بهذا المعنى غائبة أو ضعيفة في كثير من أقطارنا العربية، وأن نقول ثالثاً إن الأحداث إذا كانت قد علمتنا أهمية الديمقراطية والعقلانية فقد آن أن ندرك الأهمية الكبرى للشرعية.. لأن الشرعية فى النهاية هي الانسجام بين الحاكم والمحكوم. وبغير هذا الانسجام الداخلي لن ترقى لنا حياة فى داخل بلادنا، ولن يقوى لنا عدد فى خارج بلادنا، ولن يكون فى سياساتنا وممارساتنا أي انسجام.

ولكن السؤال الذي لابد أن يطرحه كل قارئ هو: إذن، كيف نتعرّف على وجود هذه الشرعية من عدم وجودها.. وقد قلنا إنها غير "القانونية"،وغير "السطوة" وغير الأشكال الدستورية؟

وهو سؤال وجيه..

وقد تكون الإجابة عنه غاية في السهولة والبساطة.. وقد تكون غاية في الصعوبة والتعقيد!

يمكن أن تكون الإجابة غاية في السهولة، إذا قلنا: لنترك كل هذه الحذلقات جانباً، ولنلجأ فقط إلى حس الناس البسيط وفطرتهم السلمية. ما هو شعورهم العام لدى الحكم القائم لديهم؟.. هل يشعرون أنه يمثلهم، يناسبهم، ينتمي إليهم؟ إذن فالحكم شرعي (مرة أخرى، بصرف النظر عن الموافقة أو المعارضة لبعض قرارات السلطة، فهذا أمر عادي) وهل يشعرون بغربة مع نظام حكمهم، بعزلة عنه، بانقطاع الصلة بينهم وبينه؟ إذن فهو حكم لا شرعية له!

وهذه حالة لا تخفى على أي مراقب عادي.

أما إذا حاولنا بعض الإجابات الصعبة، فإننا نحاولها أساساً لكي نتعرف على المزيد من ملامح الشرعية أو عدم الشرعية، ومن الصفات السلبية التي يشعر بها الحاكم والمحكوم معاً..

فنحن نلاحظ أننا لو أخذنا مثلاً سياسة أي بلد متقدم، له نظم سياسية مستقرة، فرنسا مثلاً أو إيطاليا أو أي بلد من هذا النوع، سنجد أن البلد قد تتغير أحزابه الحاكمة، وقد تتبدل وزارته، ولكن سياسته العامة ثابتة، عناصرها واضحة، توجهاتها معروفة مقدماً، ردود فعله يمكن التنبؤ بها إلى حد كبير.

لكننا أحياناً ما نجد بلاداً عربية سياساتها عرضة للتقلبات الحادة حتى دون تغير الوجوه والأشخاص، أهدافها مغلفة. بالغموض، دوافعها إما الخوف من المجهول وإما أن هذه الدوافع لا توجد معلومات كافية عنها لدى المواطنين. والاعتبارات الشخصية لها قدر كبير في توجيه هذه السياسات.. بسبب المزاجية، واعتبارات المجاملة، والعلاقات الفردية بين الحكام، والنزعات العاطفية، وبالتالي فإننا نجد رد فعل الرأي العام إزاء هذا هو إما المقاومة، والحالة هنا تكون واضحة، وإما السلبية المطلقة، وعدم توفر "المصداقية" وعدم القدرة لدى الناس بالتنبؤ عن اتجاهات السلطة، وعدم استبعاد أن تنقلب هذه الاتجاهات فجأة بين يوم وليلة، وعدم توفر المبررات والأسباب والمعلومات الكافية لدى المواطن.

ونحن نجد أن معظم النظم العربية، باختلاف ظروفها التاريخية وأوصافها

الدستورية والبيئات التي أفرزتها، تعد المواطن بالأشياء نفسها تقريباً، وتتحدث بلهجة تكاد تكون واحدة في أمور كثيرة. ولكن هذا يتعارض مع الواقع المؤلم فهناك مسافة واسعة بين المبادئ التي يبشر بها وبين حقائق الممارسات السياسية والإدارية. وتكون النتيجة إحباطا عاماً لدى المحكومين وعزوفهم عن الاهتمام الجدي أو المشاركة الفعلية أو مجرد التصديق. وأحياناً يكون هذا الإحباط عند الحكام أنفسهم إذا كانوا حسني النية ولا يدركون العلة، وذلك بسبب إحساسهم – لعدم توفر المصداقية هذه – بعدم القدرة على تحقيق طموحاتهم، أو على العثور صيغة لتنفيذ سياستهم، واصطدامهم بعقبات كالسلبية أو الفساد، وانتشار روح الانتفاع أو عدم تفهم الناس لأهداف السلطة أو ربما عزوفهم عن مجرد محاولة تفهمهما!

والمثل الذي يضربه "مايكل هدسون" الأستاذ الأمريكي صاحب كتاب البحث عن الشرعية في العالم العربي هو حكاية محاولة القيام بإحصاء علمي لعدم السكان. فالناس أحياناً يكذبون في الأرقام التي يقدمونها حتى عن هذا الشيء البسيط أحياناً لتحلفهم وأحياناً لخوف موروث من كل ما هو آت من "السلطة" وشكلهم في نواياها ودوافعها.

ويعتقد المؤلف نفسه "مايكل هدسون" أن أكبر عقبة في طريق الشرعية، هو عدم توفر المساواة بدرجة كافية، وهو لا يقضي بالمساواة كما تفسرها النظم السياسية والاقتصادية المختلفة. فكما أننا نقصد الشرعية بمعناها الواسع الرحب فكذلك يرى أن الناقص هو توفر المساواة بمعني واسع ورحب فالناس في العصر الحديث ترى في الإحساس بالمساواة شرطاً أساسياً لتقبلها الاختياري لوضع ما. والمساواة معناها العدالة، ومعناها روح الأنصاف، ومعناها الجدية في القوانين، ومعناها المعقولية في التصرفات، وعدم التحيز لمذهب أو عقيدة أو فئة.

وقد تكون صعوبة تحقيق "الشرعية" كامنة في الشعوب نفسها قبل حكوماتها. هذا بوجه عام حال معظم الشعوب النامية، خصوصاً تلك التي لم تحقق لها من قبل "انسجام وطني بدرجة كافية. فهناك شعوب تجعلها ظرفها التاريخية شعباً مندمجاً متكاملاً له بوجه عام القيم والمعايير والانتماءات نفسها.

فمصر ليست مقسمة إلى طوائف، لا يقال فيها إن هذا سني وذاك شيعي مثلاً. وحتى الأقلية القبطية الكبيرة فيها مستوعبة في إطار الأغلبية، حيث لا يوجد مثلاً إقليم يتركز فيه الأقباط إنما هم في كل قرية ومدينة جنباً إلى جنب مع المسلمين.

وليس فيها تعصب لإقليم دون إقليم. فإذا تشكلت وزارة لا يسأل أحد إذا كان هذا الوزير من طنطا أو من أسيوط، بعكس الصورة المتطرفة الأخرى فى لبنان حيث يراعي تمثيل الطوائف. داخل الدين الواحد يراعي تمثيل السنة والشيعة، وتمثيل الموارنة والأرثوذكس مثلاً. وداخل المذهب الواحد فى الدين الواحد يراعى تمثيل سنة بيروت وسنة طرابلس، وشيعة الجنوب وشيعة بعلبك والهرمل، وهكذا.

وحين قاد هواري بومدين مثلاً حركة التعريب فى الجزائر وإلزام الكل باستخدام اللغة العربية بعد تاريخ معين، كان يقضي على أحد أسباب التفرقة ويضع أحد أسس إمكانية قيام الشرعية (بعكس لبنان كما ذكرنا حيث لم يوحد التعليم بعد الاستقلال).

وفى مرحلة الانتقال من الوطنية إلى القومية العربية، تعارضت – وما تزال – الولاءات. فالولاء للوطن المحلي أم للأمة؟ ويجب أن نعترف بهذه الحقيقة ونحن نتحدث عن القومية العربية. فتلك أحد أهم قضاياها التي يجب حلها، بتحقيق الانسجام بين الأهداف الوطنية والأهداف القومية وليس بترك الساحة لنمو التنافر بينهما.

ثم إننا عندما نتأمل أهم عنصر يؤثر في حياة الأمة العربية ويربط بينها، ونجد أن هذا العنصر هو الإسلام بغير جدال..

ولكن لأننا شعوب نامية، ولأن نسبة الأمية فى بلادنا فوق السبعين فى المئة، ولأننا في مرحلة تحول وتطور سياسي واجتماعي وحضاري، نجد أننا حتى فى نظرتنا إلى هذا العنصر الموحد لنا، مختلفون.. بعكس الغرب مثلاً حيث نجد أن نظرته إلى المسيحية واحدة (بصرف النظر عن المذاهب والخلافات وحتى ما بين المؤمن والملحد من تباعد). أما نحن فإننا على العكس: فريق يركز فى نظرته إلى الإسلام على السلطة والطاعة وعلى العقاب بوجه عام.

وفريق يركز فى نظرته على العدالة والمساواة والشورى والتسامح..

ولابد لنا من نظرة شاملة تضع كل عناصر الإسلام في إطار واحد ومتوازن ومتكامل، ونظرة شاملة إلى التراث والانتقاء منه والتمييز بين ما كان سبباً فى تطور المجتمع الإسلامي وبين ما علق به فى فترات اضمحلاله وتخلفه..

وللشرعية حديث آخر طويل وتشعبات أخري كثيرة تشمل أمور الحاكم وأمور المحكوم معا..

معني القانون

الذكريات.. والسنهوري.. وكلية الحقوق

احتفلت كلية الحقوق في جامعة القاهرة بمرور مائة سنة علي إنشائها، فهي أقدم كلية من نوعها في العالم العربي والشرق الأوسط.

ولعل خريجيها من كل أبناء العالم العربي وخريجي حقوق "الآستانة" أو القسطنطينية أيام كانت عاصمة الإمبراطورية العثمانية المسيطرة علي العالم العربي كله ما عدا مصر، هم الذين قادوا وشكلوا السياسة في كل العالم العربي خلال حقبة طويلة من الزمن.. ربما سادت حتى هزيمة حرب فلسطين الأولي سنة ١٩٤٨، إذ بدأ حكم "الحقوقيين" يتزعزع ويتراجع. بعد أن طغي السيف علي القانون وربما كانت هزيمة ١٩٤٨ ذاتها هي التي أقنعت العرب زمنا طويلا بعدم جدوى القانون أمام السيف مهما كانت القضية عادلة.

وإن "الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة" كلمة جميلة أطلقها اشهر حاملي شهادات القانون سعد زغلول اهتزت بها أعواد المنابر زمنا ولم يهتز بها شئ آخر بعد!

وكم كنت حزينا لأنني كنت بعيداً عن القاهرة يوم احتفلت كلية الحقوق بالعيد المئوي لها. ذلك إنني أحد خريجي تلك الكلية العتيدة التي طبعت موجات الأثير علي جدرانها عددا من أعظم الأصوات التي عرفتها مصر والعروبة وإذا كنت لم اشتغل بالقانون إلا قليلا إلا أن الأثر الذي تتركه كلية الحقوق في نفس تلميذها لا ينمحي إذا كان قد دخلها عن حب وشغف لا عن طريق تقليعة "مكاتب التنسيق" ثم إنني إذا كانت قد تركت العمل بالقانون إلى مهنة الكتابة والصحافة بعد حوالي خمس سنوات فقط، إلا أنني كثيرا ما اكتشفت فجأة أنني مازلت اشتغل بالقانون من ناحية، ربما تركت ما نسميه "بالقانون الخاص" وهي القوانين المدنية والجنائية وغيرها إلا إنني بقيت – ككاتب – علي صلة دائمة بما نسميه "القانون العام": أي الاقتصاد والعلوم السياسية والقانون الدولي والقانون الدستوري والقانون الإدارى..

أي القوانين التي تنظم حياة المجتمعات والشعوب والدول وليس الحياة الخاصة للأفراد.. كما هو الحال في كل ما نسميه "القانون الخاص"..

ولكن الأهم من ذلك، أنني فعلا اكتشفت عادة أنني مازلت اشتغل بالقانون لأنني دائما أجد نفسي متلبسا بالتفكير في أي موضوع بطريقة "قانونية". أو بطريقة متأثرة بالتفكير القانوني إلى حد بعيد.

ذلك إن دراسة القانون تعلم المرء طريقة خاصة في التفكير. تزود صاحبها لما يشبه "الترموستات" أو منظم درجة الحرارة، يقرأ الإنسان في الآداب، ويحلق وراء الفنون، ويجوب أفاق الفلسفة.. وهذه أشياء ربما كانت هي جوهر الفكر، ولكن من درس القانون – فيما يخيل لي – يجوب هذا كله وقد ربطه التفكير القانوني إلى أرض واقعية معينة فهو ينظم تفكيره ويضع في صدره ميزانا دائما يزن به كل ما يعرض له من أفكار وأمور. ويخلصه من تيارات "الفن للفن" و "الفكر للفكر" في حين يربطه بأن الفن للحياة. والفكر للحياة. والسياسة للحياة وكل شئ بدؤه ومنتهاه الحياة والناس وأن الرؤية المتأثرة بالقانون هي الفرق بين أحلام اليقظة وأحلام التطبيق. أو بين تهويمات الخيال ورؤى الحقيقة.

ولست هنا أفاضل بين شيئين فحياتنا بلا أحلام لا تساوي شيئا. وبغير الأحلام لا تتحقق الأشياء العظيمة. ولكن حياة تقوم علي الأحلام هي بالونات ملونة تطير في الهواء وتضيع. ليست مركبات فضاء محددة الغرض، محكمة التوجيه.

ثم...هل هناك قضية دارت حولها حياة المجتمعات الإنسانية منذ نشأت، ولا تزال، أكثر من قضية "الحق والواجب؟" وهي قضية القانون. أليس القانون هو الوسيلة البشرية لتنظيم الحياة.. ابتداء من تنظيم حركة المرور في الشارع إلى علاقات الدول ببعضها البعض في البر والبحر والفضاء؟

كل إنسان يتفتح وعيه لأول مرة علي شئ مختلف. هكذا الحياة. لو كانت زهورها بلون واحد وأشجارها بطول واحد لفقدت جمالها بل لصارت جحيما. ونفس الحال في البشر. لو كانوا علي شاكلة واحدة ونمط واحد لفقدت الحياة مذاقها بل وربما مغزاها. والأخوة في البيت الواحد كثيرا ما يتباينون رغم كل عوامل الوراثة الواحدة والتربية الواحدة....

بالنسبة لى.. لا أذكر مهما حاولت التذكر أن أمرا استبد بي منذ البداية أكثر من

تلك القضية: الحق والواجب، الظلم والعدل. وبالتالي الأداة في كل هذا وهي القانون.

وكانت ترجمتها في سن المراهقة هي الشغف الهائل بحضور القضايا الكبرى والاستماع إلى المرافعات الرنانة. وكنت إذا قرأت عن محاكمة سياسية كبري حدثت منذ عشرات السنين، ذهبت إلى دار الكتب وطلبت مجلدات صحف تلك الفترة لأقرأ القضايا والمرافعات ومناقشات المحكمة كاملة بالتفصيل. وكان كل تاريخ مصر الوطني في الفترة السابقة في يد المحامين وكانت المحاكم إحدي أهم ساحات الكفاح.

وكنت أري نفسي وأنا صبي في شتي الأدوار داخل تلك الحلبة الرائعة: قاعة المحكمة أحيانا ذلك القاضي الجالس علي عرشه أو ذلك المحامي بصوته المدوي وأحيانا المتهم الواقف في قفص الاتهام في ثبات بوصفه بطلا وسبب تلك الدراما كلها!

واستقر رأيي علي أن أكون قاضيا. فهذه الهيبة والرهبة. وهذه الدقة والمتابعة واليقظة. ثم أخطر وأصعب شئ: حين يخلو إلى نفسه، وقد سمع أقوي الحجج من الجانبين، وعشرات الشهود المتناقضين، وكيف يمسك من وسط هذا كله بخيط الحقيقة، وتصدر من فمه الكلمة حاسمة ونهائية.

علي أنني حين دخلت كلية الحقوق فعلا، دخلت في الواقع الجامعة بأكملها. وتفتحت أمامي مع سنوات الشباب كل فروع المعرفة. وكنت أحضر محاضرات كلية الحقوق وكلية الآداب وأحيانا غيرهما، وتلك ميزة الجامعة. إنها تعطيك كل المَفاتيح هذا ما يفرقها عن المدرسة. وحين يقرأ المرء الأدب والفلسفة ومذاهب الفكر المتلاطمة يجد أن العثور علي الحقيقة ليس سهلا. بل انه يكاد يكون مستحيلا؟ هذه مجالات تعلمك أن لكل رأي ألف وجه، وأن كل موقف له ألف تفسير. وإن المذنب قانونيا قد يكون هو البرئ فكريا أو اجتماعيا أو حتى فلسفيا، ووجدت أن مهنة القضاء صارت لا تناسبني. إنها مهنة مستحيلة أي عذاب وأرق وألم يكابده المرء حتى يقول "هذه هي الحقيقة"! مستحيل إنها ضد طبيعتي، عمل كل الموازنات وحساب كل الاعتبارات سوف يفضي بي إلى الشلل..

واتجه ذهني إلى ذلك المترافع البليغ. إنه يأخذ جانبا واحدا ويحاول إثباته. وهذا أمتع وأسهل وأفخم. حتى لو كان يدافع عن قاتل. فقد قرأت أيامها – فيما قرأت من كتب المحامين الكبار – كلمة لمحام إنجليزي كبير يقول "حين يقف المتهم في القفص، مجردا من كل سلاح، محروما من أي صديق. والعالم كله يشير إليه

بإصبع الاتهام. هنا لابد أن يقف إلى جانبه شخص. هو المحامي وفي هذا الموقف يكمن دوره المقدس!".

ولكني حين تخرجت من كلية الحقوق ومن الجامعة، كلها لأنني مرة أخري كنت أشعر أنني طالب بالجامعة كلها. استمع إلى عبد المنعم بدر يدرس القانون كما أستمع إلى يوسف مراد يدرس الفلسفة .. اكتشفت أن مهنة المحاماة هي أخر ما يناسبنى! علي الأقل ذلك النوع من المحاماة.

فليس من طبيعتي الإنطوائية أن أواجه الجمهور وأتحدث كأنني علي خشبة مسرح! ثم إنني كنت أقل من السن القانونية لممارسة المحاماة ثم أن الكلمة المكتوبة صارت أوسع انتشارا من أعظم كلمة تقال في قاعات المحاكم!

وكان حظي من ممارسة القانون أصعب جوانبه، بالنسبة لى: وكيل نيابة. مهمتي أن أضيق الخناق علي المتهم. وأن أثبت جريمته بدل أن أثبت براءته. ومرة أخري جريمة بالمعني القانوني، التي قد يكون في نفسي ألف سبب ضد اعتبارها جريمة.

وبعد سنوات قليلة قفزت من زورق القانون بشكله المباشر، إلى زورق الصحافة والكتابة.. والبحث عن الحق والواجب والقانون بمعانيها الأوسع.

وبعد...

فقد بدأت هذا الحديث وفي ذهني أن يكون حديث ذكريات عن أساتذة عظام حتى وإن خالفتهم في الرأى.. ولكنني سرت وراء فكرة القانون. ربما لأنها ناقصة في حياتنا. أو لأنها غير مفهومة علي وجهها الحقيقي ولكني قبل أن أستطرد وراء فكرة القانون أستأذن في رواية الذكري القانونية الوحيدة بعد تفرغي للصحافة..

كان المرحوم عبد الرازق السنهوري باشا أكبر عقل قانوني أنتجه العالم العربي في هذا القرن بغير شك. ولم الحق به تلميذا في كلية الحقوق وإن كانت كتبه ظلت هي الأساس في كل مجال كتب فيه، وإذا كانت شهرته في القانون عالمية، فأنني كنت أراه من أفصح من كتبوا باللغة العربية. فكانت كتاباته القانونية من أرقي الكتابات الأدبية في تقديرى.

ولم أكن – علي البعد طبعا – من المعجبين بدوره في الحياة العامة سواء في أرائه في التعليم كوكيل لوزارة المعارف، أو لتعاطفه مع أحزاب الأقلية ضد حرب الوفد.

فلما تأسس مجلس الدولة لأول مرة، وكان أول رئيس له، قبل ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ بسنتين تقريبا، صار بطلا قوميا لدي كل فئات الشعب في مصر كانت المعركة السياسية علي أشدها قبل الثورة وكانت معظم المواجهات السياسية تنتهي إلى مجلس الدولة، وكان يصدر أحكاما قضائية بلغت القمة في شجاعتها ونزاهتها ودقتها في مراعاة القانون. وعمقها في تطبيق "روح القانون" وهو الأصعب والأهم كانت رئاسة مجلس الدولة إحدي التحولات الكبرى في حياة مصر قبل الثورة.

وبعد الثورة، اقترب منه منصب أول رئيس لجمهورية مصر اقترابا شديدا. ولكن تقلبات الثورة في أيامها الأولي عصفت به. وانتهي معزولا، معتزلا جالسا في بيته، غير مسموح حتى بذكر اسمه في صحيفة.

وكنت كاتبا صحفيا مبتدئا وذات يوم اتصل بي المستشار المرحوم زكي بك حسين وكان صديقا لأبي. وقال لي إنه جاء ذكري في حديث مع السنهوري، وإنه أبدي إعجابا بما أكتبه كاسم جديد. وإنه يحب أن يراني وكان الرجل وقد انسحبت عنه الأضواء لا يزور ولا يزار.

ووجدت في ذلك تشريفا عظيما...

وذهبت لجلسة هادئة في بيته في مصر الجديدة، كان لها علي وقع التنويم المغناطيسي. واتفقنا علي أن أزوره عصر كل خميس. وقد واظبت علي ذلك حتى سافر في مهمة حين استعانت به حكومة الكويت.

ذكرت هذه الواقعة لأنني لم أر في حياتي رجلا تجسدت فيه روح القانون مثل السنهوري. لست أتحدث هنا عن علمه ومؤلفاته وآثاره. ولا حتى عن الحوار معه حين يكون حول القضايا الجدية. ولكن حتى حين يكون الحديث حول أبسط الأشياء اليومية، يشعر المرء أن هذا الرجل قد "تشرب" روح القانون، حتى عقله لا يتحدث ويعمل في الصغيرة والكبيرة إلا وقد نهل من هذا المنبع. كان قد ترك الدنيا والسياسة وعواطفها وانفعالاتها وصار عقلا خالصا وضميرا خالصا. أي حكاية يأتي ذكرها، لا تلبث ذا علق عليها أن تجدها وكأنها كانت كومة من الأشياء وقد انتظمت فجأة ووضعت كل جزئية في مكانها بسحر ساحر.

وكان رحمه الله يحثني وقتها علي ترك الصحافة التي لم أبدأها إلا من قريب، بعد أن عرف مني أنني سجلت رسالة دكتوراه في السوربون في باريس عن مرحلة

من تاريخ مصر السياسي، وكان ميله الغريزي إلى أن بحثا طويلا ممتعا هو أعظم شئ. ولكن التيار جرفني إلى مجري الصحافة بغير رجعة..

وما أقل ما نختار ما نفعله في هذه الحياة..

ولكن.. ماذا عن القانون وعن روح القانون؟

كنا نظن في بدء دراسة القانون أنه نصوص. وأن الدنيا تتغير بتغيير النصوص. العدل يسن بقانون، الظلم يزول بقانون.. الخطأ يحدد بقانون. والصواب يحدد بقانون.

كلا...

علمتنا الأيام وعلمنا الأساتذة الكبار، أن القانون شئ غير هذا، شئ أعمق وابعد من هذا بكثير..القانون الجدير بهذا الاسم هو المعبر حقا عن روح المجتمع، الصاعد من أعماقه تماما كالتعبير الفني حين يكون صادقا..

بدليل أن هناك مجتمعا فيه قانون غير مكتوب "عادة" أو تقليد، يعيش قرونا محل احترام الناس ومراعاتهم.

في حين أن هناك قانونا يحمل كل أنواع الأختام. ختم حاكم أو ختم برلمان. ولكنه لا يحظى بأي اعتراف أو احترام من الناس، حتى من يوم صدوره.

ليست كل ورقة تحمل سلطة تشريعية أو تنفيذية، قانونا بهذا المعنى.

قانون بمعني الفرض نعم.

قانون بمعني قرار السلطة، نعم.

ولكنه ليس قانونا بمعني تعبيره عن روح المجتمع، واتساعه لرغباته وأمنياته، وتجاوبه مع أفئدة الناس في هذا المجتمع.

لذلك نري أحيانا قوانين تهطل كالمطر، لكن سرعان ما تجففها الشمس، وتمسحها الرياح..

ونري قناعات الناس في تصرفاتهم، تسير في مسالك أخري تماما...

ونري قوانين تنقل من الكتب. أو تؤخذ من بلاد شتي متنافرة، كمن ينتقي أصنافا من دكان العطار. ولكنها تبقي غريبة.

هل تزرع شجرة بلاستيك مصطنعة وتثمر؟

مستحيل.

هل تزرع شجرة حقيقية في أي مكان؟ إن كل نبتة لها بيئة وطقس يحكم عليها بالعقم أو بالأثمار كذلك القانون...

ومنذ فترة انشغلت إنجلترا بقصة طريفة.

سيدة تملك فندقا صغيرا في إنجلترا علي شاطئ البحر، وذات يوم جاءها الصياد الذي يبيع لها السمك عادة، يحمل خبرا مثيرا: إنه اصطاد سمكة من نوع "السترجون" وهو السمك الذي ينتج الكافيار. ذلك أن هذا السمك لا يوجد في بحار إنجلترا عادة. اللهم إلا نادرا جدا وكأنها سمكة ضلت طريقها. ولا يحدث هذا إلا مرة كل عدة سنوات.

واشترت السيدة السمكة، وأعلنت عن وليمة عشاء لنزلاء الفندق والبارزين في القرية الصغيرة. وإذا برجل عجوز من المدعوين يقول لها إن هناك قانونا منذ القرن السادس عشر يقضي بان أي سمكة من هذا النوع يتم صيدها تكون ملكا لملك إنجلترا.

وأسقط في يد السيدة. واتصلت تليفونيا بموظف في قصر ملكة إنجلترا تسأله، فقال لها نعم أن هناك قانونا موجودا بهذا المعني. وما يزال ساريا. ولكنه لا يظن أن الملكة ستطالب بالسمكة.

ولكن السيدة ألغت العشاء. وحملت السمكة في أحسن وعاء لديها وركبت القطار إلى لندن. وهناك توجهت إلى قصر بكنجهام حيث أصرت علي تسليم السمكة للملكة. وطاردتها الصحف حين علمت بالقصة، فقالت إنها سعيدة جدا.

قانون سخيف طبعا.

وحين صدر كان صورة لظلم القرون الوسطي وعصر امتيازات النبلاء..

ولكن مع الزمن، وتطور النظام في إنجلترا وإحساس تلك السيدة بأن قوانين بلدها بوجه عام تعبر عنها، وتتسع لمشاعرها وجدت سعادة في تنفيذ قانون ميت، حتى لو سخرت منها الصحف والناس.

لم تكن بذلك تنفيذ قانونا. أو تخشي عقابا كانت تعبر عن ذاتها من خلال بناء عام تشعر انه يعبر عنها. وهذا هو القانون.

المثقفون والسلطة في البلاد العربية

لا شك إن الكثيرين منا، ممن يتاح لهم السفر والتنقل بين البلاد العربيـــة، أو بين غيرها من بلاد العالم الواسع، قد لاحظوا كثرة عدد المثقفين والنـــابهين مـــنهم بالذات، وذوى التخصصات المختلفة من سياسية واقتصادية وأدبية وعلمية .. الذين ليسوا فى بلادهم، ولا فى أماكنهم الطبيعية.

ولست أشير بذلك إلى موضوع "هجرة العقول" بمعناه الشائع المعـــروف. وإن كان لما أريد أن أتحدث عنه علاقة بهذا الموضوع، إلا أننى أريد أن أتحدث عنه من زاوية معينة، تخرج بنا قليلا أو كثيرا عن مشكلة "هجرة العقول" بمعناها الشائع.

فمشكلة "هجرة العقول" بمعناها الشائع، مشكلة عالمية، لا يختلف فيها عربى عن غير عربى. وحتى البلاد المتقدمة تواجهها وتعانى منها، إزاء بلاد أكثر تقدما. فإذا أخذنا ابرز بلاد المهجر مثل الولايات المتحدة الأمريكية أو كندا.. فسنجد فيهـــا عقولا مهاجرة من البلاد العربية، ومن دول البحر الأبيض ومن إنجلترا وفرنســـا. ومن الهند وأفريقيا. المشكلة تنحصر ببساطة فى أن بعض المثقفين – خصوصا فى ثقافات يشتد عليها الطلب أحيانا كالطب والهندسة وبعض العلوم – يفضلون الهجرة إلى بلاد يجدون فيها شروطا أفضل أو مستوى من المعيشة أعلى، أو فرصة أكبـــر للتقدم العلمى، وتحقيق الذات، ربما لا تكون متوفرة فى بلادهم.

وهى مشكلة ضخمة وعويصة، وليس لها حل سهل. ومن المؤسف إنها تشكل جانبا من أكبر جوانب أزمة العالم الثالث وعقبة من عقبات تقدمه. فالخســـارة هنـــا مادية وبشرية. لأن البلد حين يفقد واحدا من هذه النوعية من أبنائه، يخسر مرتين. يخسر مرة بالمعنى المالى البحت، لأن البلد يكون انفق على هذا الابن مبالغ كبيرة من المال من أجل تعليمه وتكوينه فى الداخل خيرة شبابه لا يعودون ليساعدوا فـــى المهمة الصعبة، مهمة التنوير ورفع مستوى سائر الشعب، كالحديقة التى كلما أينعت فيها زهرة، جاء من يقطفها..

ومكسب البلاد الأكثر تقدما فى هذا المجال هائل. فهى تأخذ الخبراء جاهزين، بعد أن أتموا ثقافتهم ونضجهم وتلقيهم،وبدأوا فى مرحلة العطاء.

والغريب أن كثيرا من الدول العربية لا تدرك قيمة هذا "المهاجر" المؤقت إذا جاز التعبير، حتى ولو كان عربيا، وحتى لو كانت في أشد الحاجة إلى خبرته..

أذكر إننى اشتركت مرة فى مناقشة تليفزيونية حادة، فى قطر عربى شاسع الأرجاء قليل السكان، إذ قال مناظرى: إن الخبير العربى يطلب أجرا أعلى من الخبير المحلى.

وقلت له متعجبا: لماذا إذا كان المهندس – مثلا – إيطاليا أو فرنسيا أغدقنا عليه.. وإذا كان نظيره عربيا قترنا عليه.. ما دائم الاثنان متكافئين؟.. ثم هل تظن أن كندا مثلا أغلى منكم؟ إن كندا لا تفتح أبوابها طبعا لكل وافد. ولكن إذا كان هذا الوافد خبيرا فى مجال يهمها، فإنها تعتبره إضافة إلى رأسمالها وإلى إنتاجيتها إزاء ضخامة مواردها واتساع رقعتها وندرة سكانها.. إنها تجرى وراءه.. وتقدم له الإغراءات .. وتتولاه منذ وصوله بالمعونات المالية والاجتماعية حتى يستقر به المقام في عمل إنتاجي مناسب له. ذلك أنها تعلم إن هذا النوع – فى أى مجال – يضيف إلى ثروة البلاد القومية أضعاف ما يأخذ من مرتب.

وما دمنا قد تعرضنا لقضية العقول المهاجرة، فلابد من القول إنه إذا كان اللوم أحيانا يقع على البلد الأم لسوء تصرفها مع النخبة من أبنائها، فان اللوم فى أحيان أخرى يقع علي عاتق المهاجر نفسه، حين يتصرف فى أنانية شديدة، ودون مبرر، لمجرد الهرب من مهمة صعبة تنتظره في بلاده الساعية إلى التقدم، لائذا بالفرار إلى بلد قد تقدم فعلا، ولو لم يعد عليه هناك إلا المشاركة في جنى الثمرات.

ولكن هجرة العقول، مهما بلغت الأرقام، تظل قضية جزئية إلى جانب القضية الكلية التى علينا أن نتأملها..

فالذى لا شك فيه، إن معظم المثقفين، من أهل الفكر والرأى والعلم والخبرة، يبقون فى بلادهم. أو يعودون إليها...

على أن وجودهم فى بلادهم، لا يعنى دائما الاستفادة منها. وبالتالى فالصورة

العامة لهم فى معظم بلادنا العربية، إما السخط والكبت والشعور بالإحباط، وإما الانحراف - بالعدوى - مع الأمراض الاجتماعية الشائعة فى بلادهم، فهم لا يستفيدون من ثقافتهم وقيمهم الحياتية ولا يفيدون، وإما أن يلجأوا إلى نوع آخر من الهجرة.. هو الهجرة الداخلية. والانغلاق على أنفسهم، فهم موجودون فى بلادهم وغير موجودين. موجودون بأجسامهم وبعملهم الروتينى اليومى ومشاكل حياتهم اليومية الصغيرة، ولكنهم غير موجودين بعقولهم ولا بقدراتهم وطاقاتهم الحقيقية. متفرجون سلبيون. يرون الأحداث تجرى أمامهم، وربما رأوا بلادهم كلها تتعثر أمامهم، ولكنهم عاجزون عن المحاولة أو إبداء الرأى، أو مشيحون بوجوههم عن الأمر كله، يعيشون فى مجردات ومطلقات لا صلة لها بضجيج الحياة من حولهم..

ولا يجوز أن نفترض أن كل واحد منهم يجب أن يكون بطلا، مستعدا لمواجهة التشرد، أو دخول السجن!.

وقد جرى العمل منذ زمن، على أن نلقى الكثير من مشاكلنا على ما يسمى بالبيروقراطية..

فالبيروقراطية، فى هذا المجال، هى التى تقتل المواهب، وتعترض طريق الناجحين، ولا تقبل دخول العناصر المثقفة الواعية بمجتمعها داخل صفوفها، أو لا تضعها فى مكانها الصحيح.

ولا شك أن بعضا من هذا صحيح..

ولكن لا شك أيضا إننا نبالغ فى الأمر كثيرا. وإن كثيرا من القادة والحكومات صاروا يجدون فى هذه "البيروقراطية " شماعة يعلقون عليها كل المشاكل.. وكان هذه البيروقراطية ليست جزءا منا، ولسنا كلنا طرفا فيها، أو كأنها جسم غريب عن المجتمع..

وما هى البيروقراطية آخر الأمر؟

إنها أداة كبيرة أو صغيرة، من الموظفين فى كل مجال، وفى شتى الدرجات، يمارسون عملهم طبقا لقواعد موضوعة لهم من قبل، ولا يجوز لهم الخروج عنها، و إلا تعرضوا للمساءلة والعقاب..

لذلك فإننى أريد أن اصعد بالمسئولية عن هذه الأزمة فى بلادنا العربية درجة أعلى من مستوى البيروقراطية.. أى إلى مستوى القيادة السياسية حيثما كانت، وكيفما كان لونها ومذهبها وطبيعة نشأتها...

فيما يتعلق بالبيروقراطية. فلو كان فيها داء متراكم عبر زمن طويل.. فإنها مسئولية القيادة السياسية فى كل مكان، أن تحسن اختيار القائمين بالعمل، أن تراجع اللوائح والإجراءات التى تحكم عملهم، وتعمل على تبسيطها، وتجعلها مناسبة لكل مرفق من المرافق. وليس هذا بالتأكيد مسئولية موظف كبير أو صغير، أو أشبه بمسمار أو ترس أو عجلة فى آلة كبيرة. لا تستطيع تعديل عمله، إنما يستطيع ذلك "المهندس" المشرف على هذه الآلة.

فإذا نحينا أيضا هذا العنصر الجانبى عن القضية، عنصر البيروقراطية، نصل إلى بيت القصيد من هذا الحديث، وهو: العلاقة بين المثقفين والسلطة فى البلاد العربية بوجه عام..

فهى علاقة يحكمها الشك، وعدم الثقة، على الأقل.. وأحيانا يحكمها التناقض والعداء.

وفى تقديرى إن هذه العلاقة "القلقة" تنطوى على خسارة كبيرة لكل بلد، فوق أنها تخلق "مناخا عاما" أن لم يكن هو المسئول تماما عن مشكلة "هجرة العقول" ، فهو يتسبب على الأقل فى جانب منها..

فما هو السبب يا ترى؟...

ليس المقصود بالتأكيد الوصول إلى حكومات أشبه بجمهورية أفلاطون التى يحكمها الفلاسفة..

فالحكم أو السلطة بمعناها القيادى والسياسى، أمور لها مواصفات لا تتوفر عادة للمفكر أو المثقف أو الفنى. وأعظم فيلسوف قد يعجز بالتأكيد عن إدارة قرية صغيرة. وبالتالى فليس مطروحا أن يتبادل الطرفان مكانيهما..

إنما المطروح هو أقامة علاقة صحية بين الطرفين..

الطرف الذى لديه الأسباب والظروف والمواهب التى تجعله زعيما، أو قائدا،

أو حاكما.. يحسن اتخاذ القرار، ولديه الحس السياسى والاجتماعى الذى يجعله قادرا على القيادة فى مرحلة ما، فى بلد ما...

والطرف الذى لديه الأسباب والمواهب، لكى "يفكر" فى الأمور التى تعرض للحاكم، ويتأملها بعيدا عن ملاحقة الأحداث لكل حاكم أو قائد. فهو عنصر مهم فى إنارة الطريق، واستكشاف شتى جوانب المشكلة، والتفرغ للنظر إلى الأمور فى مداها البعيد..

وقديما، كانت مهمة القيادة أو الحكم أبسط مما هى عليه الآن بكثير. كانت الدول قليلة ومعزولة نسبيا. وكانت الأمور التى تتدخل فيها الدولة قليلة، قد لا تتعدى الدفاع عن البلد وصيانة الأمن وكفالة القانون فيه..

ولكن، مع التقدم الهائل والسريع فى كافة مجالات الحياة، صارت الأمور المطروحة على الحاكم كثيرة ومتشعبة ومعقدة إلى آخر الحدود.

وأقصد بذلك الحاكم الفرد، والحاكم بالحزب، أو الحاكم بالبرلمان. فمجموع كل هذا هو ما اسميه "السلطة السياسية" فى أى بلد من البلاد، مهما كان نظام الحكم السياسى والاجتماعى فيه.

هذه "السلطة السياسية" صار مستحيلا عليها أن تتخذ القرارات السليمة فى كل المجالات، بسبب تشعبها وتعقدها، وحاجتها إلى تخصصات كثيرة، وخلفيات متنوعة.

فإذا أخذنا دول المعسكر الشرقى، التى تقوم فلسفتها على دكتاتورية الطبقة العاملة، نجد إنها فى تقاريرها الحزبية صارت تزهو وتهتم بأن تذكر أن عضوية الحزب صار فيها كذا فى المائة خبراء اقتصاد سياسى وكذا فى المائة علماء.. إلى أخره.

وإذا أخذنا النظم الديمقراطية فى الغرب، نجد أن هناك قضية مثارة فى إنجلترا منذ سنوات حول علاقة الفكر والخبرة بالسياسة: فهناك كتاب ونواب يثيرون قضية تضاؤل دور البرلمان الإنجليزى، لأن كثيرا من الأمور العامة التى تعرض عليه معقدة لدرجة لا يستطيع النائب أن يحيط بها كلها تماما، فى حين أن الوزير – ممثل السلطة التنفيذية – يجئ لمناقشة الموضوع المطروح مزودا بآراء عشرات الخبراء، وأحيانا مصحوبا بهم، الأمر الذى يجعل الغلبة فى الإقناع غالبا للسلطة التنفيذية. فلم يعد للبرلمان ما يحكم فيه إلا العموميات فقط.

وقضية أخرى مثارة فى إنجلترا – التى نتخذها نموذجا للديمقراطيات البرلمانية القديمة – خلاصتها أيضا أن رئيس الوزراء فى مقره فى البيت رقم ١٠ داونينج ستريت، صار يحيط نفسه بخبراء من أعلى المستويات من الجامعات أو من الحياة العامة، كالكتاب الصحفيين ومؤلفى الكتب وذوى الأفكار المتميزة، الأمر الذى جعل "مجلس الوزراء" فى مجموعه يفقد الكثير من سلطته "لرئيس الوزراء" المزود بهؤلاء الخبراء، رغم أنه ليست لهم صفة تمثيلية سياسية، أى ليسوا منتخبين..

فإذا أخذنا نموذج ديمقراطية برلمانية حديثة، هى الولايات المتحدة الأمريكية، فإننا نجد إنها سبقت زميلاتها فى حل هذه المشكلة، أو بمعنى أصح الاستفادة من العناصر المفكرة فيها..

فبالنسبة للكونجرس الأمريكى ونظرا لإمكانيات أمريكا المالية الواسعة طبعا، نجد إن النظام هناك يعطى كل عضو فى الكونجرس ميزانية سنوية ضخمة، يكون بها جهاز فنيا مساعدا له، هم فى الغالب من الخبراء الشبان، يعدون له الدراسات والمواقف المختلفة، وهم عادة شبان طموحون،أذكياء، مهتمون بالقضايا العامة لبلادهم. ولذلك فكثيرون منهم يبدأون من ذلك المكان حياتهم السياسية وتدريبهم لمراكز أهم. مثل ليندون جونسون وروبرت كنيدى وغيرهما كثيرون.

وبالنسبة للرئيس الأمريكى نفسه، نجد أن كل رئيس، إلى جانب وزرائه، وكل الجهاز التنفيذى التابع له، يعمد إلى الاستعانة بالكثيرين من عالم الفكر بوجه عام حتى العالم الأكاديمى نفسه.

حكومة جون كنيدى كانوا يسمونها "حكومة هارفارد" لأن أغلب من أتى بهم من مستشارين ومساعدين كانوا من هارفارد. فسمعنا أسماء هارفارد اللامعة مثل ماك جورج بندى مستشارا له للأمن القومى، والاقتصادى السياسى المشاغب كينيث جالبريث سفيرا فى الهند، ليشير عليه بشأن قضية هامة هى محاولة فهم العالم الثالث بوجه عام، وكان هناك أيضا كيسنجر، للمشورة غير المتفرغة، بسبب كتاب ألفه واشتهر به عن السياسة فى ظل الردع النووى، وموينيهان الذى أصبح ممثلا لأمريكا فى الأمم المتحدة، لمؤلفاته ودراسته عن قضايا اجتماعية أمريكية كثيرة.

وبعد كنيدى جاء جونسون ليحتفظ بالبعض ويغير البعض الآخر، فوجدنا والت روستو الذى اشتهر بكتاب "مراحل النمو" الذى عارض به النظرة الماركسية فى مراحل نمو البلاد المتخلفة، وشقيقه يوجين روستو أستاذ السياسة الدولية.

ثم جاء نيكسون، فوجدناه يجعل كيسنجر مستشاره للأمن القومى، ثم وزيرا للخارجية، ويستعين بكثيرين آخرين..

وكان البعض يندهش أحيانا من أن الرئيس الأمريكى يستعين بمستشارين لهم آراء تخالف رأيه وفلسفة حزبه. ولكن هذا بالضبط هو المقصود أحيانا. فحين يأتى الحاكم بمستشارين ومفكرين من نفس مدرسته وتفكيره، فكأنه يضع حوله مرايا لا يرى فيها إلا نفسه، فى حين المفروض أن توجد عناصر أخرى تثير الجدل والنقاش، ويجد من خلالها فرصة التعرف على شتى الآراء والتيارات.

ومن أسباب مأساة نيكسون، أنه – فى القضايا الداخلية – أحاط نفسه بأشباهه فى الفكر والرأى والسلوك. فكان إن وقع فى عزلة حادة عن الرأى العام على حقيقته، مما ورطه فى قضية وترجيت بتصرفات كلها من مصدر واحد ونوعية واحدة، حتى صار الانفصام بينه وبين الرأى العام كاملا، إلى أن اضطر للاستقالة الشهيرة..

وليس معنى ذلك تحويل المفكرين إلى موظفين فى الدولة، فهناك نظام اللجان المؤقتة، التى تتشكل من أهل الفكر والخبرة، لدراسة قضية معينة، ثم تنتهى مهمتهم بانتهاء مهمة اللجنة.

وإنجلترا فيها هذا الأسلوب. فحين أرادت الحكومات هناك أن تعيد النظر فى نظام التعليم.. ومرة أخرى لدراسة مشكلة المواصلات.. ومرة ثالثة لدراسة مستقبل صناعة الفحم كطاقة.. كانت تشكل لكل موضوع لجنة قومية.. تتجاوز الأحزاب، وتتجاوز الأجهزة التنفيذية.. ثم يصبح التقرير بعد ذلك ملكا للدولة والبرلمان والرأى العام، يناقشه ويدرسه ويتخذ قرارا بشأنه.

وفى نفس الوقت انتشرت فى أمريكا المعاهد العليا المتخصصة.. معاهد مستقلة.. معهد لدراسات البحر الأبيض. معهد لدراسات الشرق الأوسط. معهد لدراسة الأسلحة النووية وأثرها على السياسات المختلفة.. وكثيرا ما يطلب الرئيس أو الكونجرس من هذه المعاهد المستقلة دراسة ما، حول قضية يدرسونها. فتكون

بين أيديهم خلاصة أحسن الخبرات فى البلد. وانتشر فى كل معهد ما يسمونه باللغة الأمريكية- غير الإنجليزية أحيانا! - بالـ Think tank أسلوب آخر فى توطيد العلاقة بين الفكر والحكم، بين العلم والعمل، بدأت تأخذ به دول متقدمة كثيرة.

وإذا كانت أمريكا قد سبقت أوروبا فى هذا المجال، وساهم الفكر فى حياتها بدور كبير.. فإن معظم المؤلفين يرجعون ذلك إلى اختلاف الظروف التاريخية بين أوروبا بتاريخها القديم، وأمريكا التى بدأت من نقطة جديدة، متحررة من عبء التركة الأوروبية..

يصف الكاتب "البرت سالومون" تلك الظروف فى أوروبا فيقول: "كان هناك ضغط الكنيسة العنيف على حرية الفكر فى العصور الوسطى، ولما جاء عصر النهضة لم يأت بتغيير كبير فى حياة أهل الثقافة والفكر. ذلك إن مشكلة طلب الرزق كانت ترغم الكثيرين من المثقفين البارزين على العمل فى خدمة أمراء الإقطاع، الذين كانوا مستعدين لرعاية الشعراء والمفكرين فى خدمة أمراء الإقطاع، الذين كانوا مستعدين لرعاية الشعراء والمفكرين مقابل استسلامهم الفكرى. وهكذا وجد المثقفون أنهم صاروا كالسفسطائيين أيام الإغريق، مضطرين لكى يعيشوا إلى الاعتماد على قدرتهم على العمل كمستشارين لأصحاب السلطة، على حساب نزاهتهم الفكرية، ثم ظهرت المطبعة، فكان هذا انقلابا فى حياة المفكر، إذ صار للمفكر لأول مرة أن يتحدث إلى الناس من جهة، وأن يتلقى بعض الموارد المالية من قرائه من جهة أخرى. إن الحلف الذى تم بين المؤلف وصاحب المطبعة فى القرن السادس عشر، إذا كان كلاهما يصدر عن قناعات اجتماعية وأخلاقية ودينية واحدة، جعل استقلال المفكر ممكنا. ثم لم يلبث النشر أن صار تجارة ومهنة مربحة. وصار أصحاب المطابع والناشرون يخضعون لعوامل اقتصاديات السوق ودرجة إقبال الجمهور على أنواع معينة من الكتب. صار المثقف الذى ليس له دور خاص، تحت رحمة رجل الأعمال. كان فى مقدور المؤلف من الأغنياء مثل مونتانى ومونتسكيو أن يكون فيلسوفا. أما المؤلف العادى، فلم يكن يجد سبيلا إلى أى عمل عقلى جاد. بالعكس، لقد أصبحت مطالب القارئ غير المتعلم أعلى صوتا وأكثر إلحاحا، وخلقت بالتالى مؤلفى التسلية والجنس وقصص الرعب".

على أن اخطر ظاهرة ترتبت على هذه الظروف، هى عزلة المفكر تماما عن حياة المجتمع المحيط به وغرقه فى تأملات وأفكار مجردة، حتى كانت الثورة الفرنسية..

على العكس من ذلك نجد "ميرل كيرتى" يحدثنا عن التجربة الأمريكية فيقول: "إن الظروف المبكرة للحياة الأمريكية ألغت التفرقة التقليدية بين "النظرية" و "الممارسة". منذ البداية، لم تتح الحياة الأمريكية ما يمكن أن يسمى "طبقة مثقفين مستقلة" كما حدث فى حضارات الصين والهند وأوروبا، كذلك لم تفرض ظروف نشأة أمريكا عليهم أى نوع من الوصاية. فكانت القاعدة تقضى على ذوى الاهتمامات الفكرية أن يكسبوا رزقهم بأنفسهم فى نفس الوقت. وذلك بممارسة الطب أو المحاماة، أو الانخراط فى سلك رجال الدين، أو إدارة زراعة أو تجارة بل وأحيانا الاشتغال بالحروف اليدوية.

وهذه الظروف ذاتها لم تدفع المثقفين إلى العمل والاختلاط بالحياة فقط، بلد دفعت الرجال العمليين أيضا إلى تنمية اهتماماتهم الثقافية. هكذا كان وليم بيرد مثلا يستخدم فى حياته اليومية كمالك كبير للإراضى، ليس فقط ثقافته القانونية، ولكن أيضا ثقافته فى الزراعة والطبيعة وغيرها. حتى التاجر، كان على عكس زميله الأوروبى يحاول أن يعرف المزيد من أنواع المعرفة التى تفيد تجارته،كالملاحة، والفلك، والجغرافيا، والاقتصاد السياسى، واللغات التى تتحدث بها الشعوب الأخرى".

وهكذا، حين بدأت حرب الاستقلال الأمريكية للانفصال عن إنجلترا، كان "الآباء المؤسسون" الذين اجتمعوا فى وليامز برج لوضع أسس الدولة الجديدة، كانوا جميعا من كبار المفكرين والعلماء فى عصرهم فى شتى الفروع من الفلسفة إلى القانون إلى العلوم التطبيقية.. جيفرسون وجون آدمز وغيرهما وكان فيهم مديرو جامعات وأساتذة وخبراء بنسبة عالية جدا.

فلم يكن التحالف بين العلم والعمل جديدا على أمريكا بعد ذلك. بل إن هذا المبدأ كان هو روح عصر التنوير الأساسية، كما قال فرانكلين.

وأعود بعد هذه الجولة إلى بلادنا العربية.. إلى واقعنا..

إننا لا نجد المثقف عندنا يقاسى فقط تاريخيا – ما قاساه المثقف الأوروبى مما سبق ذكره، بل إنه يعانى من مرحلة انقطاع فكرى تام، دام عدة قرون من الزمان، مع

سيادة الاستبداد، خصوصا خلال الإمبراطورية العثمانية الذى زاد على ثلاثة قرون..

وعندما بدأ هذا يتغير مع العصر الحديث، كانت مهنة الفكر والكتابة فكرة محتقرة من الفئات المتميزة، فى حين أن التعليم لم يكن متاحا إلا لهؤلاء فى مصر كانت الأسرة تكاد تتبرأ من ابنها إذا احترف الأدب أو كتب مقالا فى الصحف. وكان المحامى يسمى فى اللهجة العامية "السفيه" لأنه الذى يدافع بالحق أو بالباطل أمامه القضاة.

وهذا يذكرنا بقصة "فولتير" مع اشهر مؤلف إنجليزى مسرحى فى ذلك العصر وهو "كونجريف". فقد سمع فولتير أن كونجريف المؤلف العظيم جاء إلى فرنسا فى رحلة، فأسرع فولتير إلى زيارته قائلا له: إن شهرته ككاتب هى التى دفعته إلى الحضور لتحيته. ولكن كونجريف استاء من التحية، وقال لفولتير: إننا "جنتلمان" – أى من النبلاء – قبل أن أكون مؤلفا، وكنت أظن انك جئت تحيينى لهذا السبب. فرد فولتير قائلا: إنه ما كان ليسعى إلى لقاءه لو كان مجرد "جنتلمان!". ولكن ذلك كان هناك، منذ قرون..

المهم أن المثقف فى العالم العربى شب عن الطوق، واستطاع فى حالات كثيرة التأثير فى التفكير العام فى بلاده ولكنه خرج لكى يواجه عددا هائلا من الضغوط لا حصر له، القديم منها والجديد..

شيوع الاستبداد السياسى والإرهاب الفكرى فى كثير من المراحل فى كثير من البلاد العربية فى تاريخها الحديث.. انتشار الأمية انتشارا مخيفا، وما زال قائما، الذى يجعل دور العالم والمفكر بوجه عام مقتصرا على التأثير أو مجرد الوصول إلى عدد قليل من الشعب، الذى يفكر له..

ديماجوجية بعض الزعامات التى تستخدم سحرها لدى الجماهير، فى إسكات الصوت المختلف وإرهابه فكريا، بضغط الأغلبية المنساقة لها السلطة الرسمية.

طغيان وسائل الإعلام ذات الإنتشار الساحق، من صحافة وإذاعة وتليفزيون، وهى وسائل تحتاج إلى استهلاك واسع من جهة، والى تلبية رغبات نسبة كبيرة من غير المتعلمين من جهة أخرى. صار ضجيجها الترفيهى يغطى تماما على صوت العقل المفكر فى القضايا الأساسية لأى بلد،وهى محنة يعانى منها مفكرو العالم جميعا.

عدم وجود المؤسسات التى تنطوى على طابع البحث والتفكير والدراسة فى شتى الفروع، والتى قد يجد المثقف والباحث فيها ملاذا وملجأ ومجالا يفيد فيه..

الشك القديم الذى يميز العلاقة بين السلطة وبين المثقفين بهذا المعنى.

وجانب من هذه المشكلة، يكمن فى اختلاف طبيعة كل من رجل العلم ورجل العمل..

رجل العمل لابد أن يكون من طبيعته القدرة على الحسم. واتخاذ القرار السريع، وبالتالى فهو شخص مؤمن بما يفعل، مصمم على تنفيذه. لا يجوز أن يكون من طبيعته التردد، ولا وقت لديه للتأمل.

هذا، بينما رجل الفكر والعلم لابد أن يكون من طبيعته الشك والتأمل وحاجته إلى وقت طويل للوصول إلى اقتناع ما، وإدراكه لمزايا عمل ما وتخوفه فى نفس الوقت من أثاره الجانبية.

وإزاء هذا الاختلاف بين الطبيعتين.. تتعمق روح الشك بين الاثنين.. فيزدرى صاحب المنصب حديث المفكرين والخبراء، ويعاديهم. ينطوى أصحاب الفكر والعلم على أنفسهم، أو يطلبون السلامة بالسكوت، ويصبحون معارضين.. ايجابيين فى أسلوب معارضتهم أو سلبيين، أو يفعلون ما فعله مثقفو القرون الوسطى مما سبق ذكره، "يشترون سلامتهم بالاستسلام الفكرى لغير ما يؤمنون به ويعتقدون فيه".

ولذلك فان أحدهما لا يصلح لأن يأخذ مكان الآخر، كما قلنا فى صدر هذا الحديث.. إنما المطلوب أن تقوم بين الاثنين علاقة صحية سليمة. تفيد رجل العلم والفكر لأنه يدرك ويتعلم التعرف على المشاكل الحقيقية. وتفيد رجل العمل لأنها تزوده بكل ما بذله رجل العلم والفكر من جهد ودراسة ومعرفة.

تحاول أكثر من دولة – على سبيل المثال – إنشاء مجلس للتعليم، يضم أهل الفكر والخبرة فى هذا المجال، وإن تعددت آراؤهم. ولكننا سرعان ما نجد الوزير المسئول عن التعليم – مثلا – أى المكلف بالتنفيذ.. يستنكف من مشورة هؤلاء، ويرى فى وجودهم وصاية عليه، لا مساعدا له، وسرعان ما يتجمد هذا المجلس، أو يموت دوره بالتدريج.

ونفس الأمر فى مختلف الاهتمامات.

هكذا نجد الكثرة من المثقفين العرب، خصوصا أولئك الذين يريدون طرح قضايا العصر الحقيقية والمصيرية، إما مهاجرين إلى أماكن نائية، وإما مهاجرين هجرة داخلية، وفى كلتا الحالتين، نراهم هائمين على وجوههم، بضمائر مثقلة وآمال محبطة، ونفوس جريحة. غير راضين عن أنفسهم أكثر مما هم غير راضين عن ظروفهم. ولا يفيد البلد ما أنفقت عليهم وهيأت لهم أى شئ.

أقول هذا الكلام، وأنا مدرك تماما أن هذه المشكلة جزء من درجة التقدم والنضج العام لأى مجتمع من المجتمعات....

وأقوله متوقعا أن لا يجد الكثيرون أن القضية على هذا القدر من الأهمية. وهو اعتقاد غير صحيح...

إن مشكلة التقدم فى كل البلاد النامية، لم يعد أحد فى العالم يترجمها إلى درجة التقدم المادى وحده.. والتقدم المادى وحده ليس تقدما راسخا، إنما قد يكون مظهريا سرعان ما تنهار أسسه، وتتأزم أموره إذا لم يصاحبه تقدم عام فى كافة المجالات..

التقدم المادى لابد معه – بل لابد له – من تطوير وتنوير بالنسبة لمجموع الشعب، ولابد لتطوير وتنوير مجموع الشعب من العناية بالعناصر المتميزة – قدرة – من أبنائه، والمحافظة على المصابيح التى تضئ طريقه، والقوى التى ترعى قيمه وتقاليده وعقائده وأفكاره.

المسلمون متخلفون عن الإسلام

حقوق الإنسان المسلم هي نقطة البدء!

يدخل "الإسلام" القرن الخامس عشر للهجرة... "والمسلمون" متخلفون عنه بما يقرب من عشرة قرون!

التخلف بأي معيار؟ ومتي بدأت دورة التخلف هذه؟...

ربما إختار البعض معياراً جغرافياً محضاً، وهو توقف نمو الدائرة الإسلامية جغرافياً.

وربما إختار البعض معياراً لبدء التخلف موعداً سياسياً مثل سقوط الدولة الأموية، أو سقوط الأندلس، أو اجتياح التتار للشرق العربي وتدمير بغداد ثم دمشق، أو خروج الخلافة من قريش إلى العثمانيين علي يد سليم الأول.

وربما إختار البعض معياراً لبدء التخلف.. أما بداية حركات الانشقاق الإسلامي إلى مذاهب.. فيعودون إلى حرب علي ومعاوية وظهور الانقسام بين السنة والشيعة، أو إلى بداية الاضطهاد الفكري مثل محنة أحمد بن حنبل أيام المأمون. وإرغام العلماء والفقهاء، علي اعتناق تفسير رئيس الدولة لمسائل دينية وعقلية وفلسفية، بالسجن والتعذيب والقتل.

ولكنني في حقيقة الأمر لا أريد أن أكون متعسفاً، ثم إنه في تفسير التحولات التاريخية الكبرى، لا يمكن الوقوف عند حدث واحد، مهما كانت خطورته. إنما الحدث الخطير الذي نعتبره " نقطة تحول " يكون في الواقع نتيجة مقدمات طويلة ربما لم ندركها إلا بهذا الحدث.

وبالتالي، فعندما أقول أن "الإسلام" يدخل القرن الخامس عشر و "المسلمون متخلفون عنه ما يقرب من عشرة قرون، إنما أحاول في الواقع أن أتخذ موقف وسطاً، معقولاً، دون تشدد ودون تحديد حادث بالذات أو قرن بالذات..

إن ما أقصده – وهذا هو المعيار الأول الذي أرشحه هنا – بمعني "التخلف".. لا أقصد به، المعني الجغرافي ومساحة الدولة، أو العسكري وقوة الدولة أو الاقتصادي ورخاء الدولة... إنما أقصد معني حضارياً عاماً يشمل هذه الأمور كلها، ويشمل أساساً ما هو أهم منها، وهو: مدي قرب المسلمين أو بعدهم عن جوهر القيم والمثل التي جاء دينهم يبشر بها، ويدعو إليها، ويمكن في الأرض لها...

وبالتالي، وهذا هو المعيار الثاني، فإن تحديد بداية التخلف، فيه محاولة البحث عن الفترة الزمنية الواسعة التي بدأت فيها ظواهر التخلف – بهذا المعني الشامل تتراكم وتتوالى...

إن الإسلام، وهذا إجماع كل المؤرخين علي اختلاف أجناسهم – كان أسرع رسالة في الانتشار علي هذا النطاق الواسع. رغم إنه لم ينتشر في فراغ ولا في نقطة نائية من الأرض ولكنه انتشر مكتسحاً في طريقة حضارات وإمبراطوريات شامخة قوية.

في أقل من قرن ونصف، كان الإسلام قد شمل هذه المساحة الهائلة من العالم المعروف وقتذاك...

والأهم إنه لم يكن انتشار غزو عسكري فحسب. ولكن سرعة اعتناق الناس من كل الحضارات والأجناس لهذا الدين الجديد، هي التي أكدت إنه رسالة، وليس إمبراطورية.

وكل شيء حدث بسرعة...

ففي القرون الأربعة الأولى، مع التساهل الشديد، حدث كل شيء تقريباً...

تتابعت العصور الهامة.. من عصر الخلفاء الراشدين إلى الدولة الأموية، إلى الدولة العباسية في بغداد، إلى دول الأندلس القوية، إلى السامانية (سمرقند) والغزنوية (في أفغانستان) والحمدانية من الموصل إلى حلب، والطولونية والفاطمية في مصر.

وفي تلك القرون ذاتها عرفنا كل كبار القادة العسكريين الخالدين من خالد بن الوليد، إلى طارق بن زياد، إلى جوهر الصقلي، حتى صلاح الدين الأيوبي لم

يتأخر عن القرن الخامس إلا قليلاً.. وهذا بالطبع ليس حصراً ولكنه مجرد أمثلة من أماكن وعصور متباعدة.

وفي الفقه عرفنا كل الأئمة والفقهاء من جعفر الصادق إلى أصحاب المذاهب الأربعة: أبو حنيفة، والشافعي، ومالك، وابن حنبل.

وفي الآداب والعلوم والفنون والفلسفة كان الجاحظ والمتنبي، والكندي وأبو العلاء المعري، وابن الهيثم وابن سينا والرازي وجابر بن حيان وابن حزم، وغيرهم كثيرون.

والقائمة طويلة هائلة، ليست في حاجة إلى تعريف...

ولكن مع أواخر تلك القرون الأولى، كان الخيط الأسود يختلط بالخيط الأبيض مع الغروب، وكان الظلام يزحف تدريجياً، ربما في بطء غير محسوس لأهل كل عصر، ولكننا حين ننظر إليه مجملا نستطيع أن نراه بوضوح.

وكما هي العادة دائماً، عرف التاريخ الإسلامي الحكام المستبدين مبكراً، منذ يزيد بن معاوية وتناوب الصالح مع الطالح صعوداً وهبوطاً مع تحولات الدول وتنقل مراكز الأحداث، فكان عمر بن عبد العزيز يذكر الناس بعدل الخلفاء الراشدين، وكان ضرب الكعبة بالمنجنيق وهدمها يذكر الناس بالجاهلية. ولكن جو الحضارة العام، في صعوده وهبوطه، ظل هو السمة الأساسية لتلك القرون الأولى.

وفي تلك الأثناء، كانت عوامل الاضمحلال تتداخل في اندفاعه النهضة، أو بقايا اندفاعتها وتكسب أرضاً جديدة كل يوم...

أحياناً من الداخل، مع تضييق الخناق علي حرية الفكر، وانتهاء عهد الفقهاء والأئمة وحلول عهد المفسرين غير المجتهدين. ثم قفل باب الاجتهاد، وأخذ أي مجتهد بأقل العقاب..

أو مع زيادة المسافة بين الحاكم والمحكوم، وبالتالي ازدياد الشك بينهما، ولجوء الحاكم إلى عناصر غريبة يشتريها خدما ويحول الخدم إلى حكام... فهكذا تسرب المماليك حتى صاروا من القوة بحيث استولوا علي السلطة.

.. أو مع طغيان العصبيات الإقليمية، والعائلية، علي روح الأخوة والمساواة، وبالتالي الحروب المستمرة بين دويلات لا حصر لها، وصلت إلى الاستعانة بالحلفاء الغرباء ضد الأخوة، كما حدث في ممالك الأندلس علي سبيل المثال...

.. أو مع العدول عن تقليد عصر النهضة العربية التي كانت واثقة بنفسها، فانفتحت علي حضارات الدنيا وثقافاتها، تنهل منها وتستنبط وتختار.. إلى انغلاق تدريجي عن الدنيا، نأخذ الغرب بالذات يتقدم، والعلم يتطور، والمعارف تتغير، ونحن لمعرفة ما يدور حولنا رافضون، إلى أن جاءونا يوماً، غزاة بأسلحة لا نعرفها، وعلوم لا نفهمها، ومخترعات لم نسمع عنها...

وأحياناً كانت عوامل الانهيار من الخارج، فالتتار يكتسحون عالمنا من الشرق تارة، والأوروبيون يطردوننا من الأندلس ومن كل جزر البحر الأبيض، حتى الاندفاعية العثمانية تصل إلى أسوار فينيا، ثم تخسر بالفساد والترف والاستبدال.

وحكمنا المماليك والانكشارية والعبيد والخصيان، قبل أن يأتي الاستعمار الحديث بجبروته فيجد كل شيء ممزقاً، مهلهلاً...

طبعاً، ظهر بعد هذه القرون الأولي مماليك عظام مثل الظاهر بيبرس الذي هزم التتار وردهم في "عين جالوت". أو فلاسفة عظام مثل ابن خلدون أو رحالة مثل ابن بطوطة. ولكن الظلام العام الزاحف كان أقوي من تلك الشهب القليلة البازغة...

هكذا ليس غريباً أن نقول أن " الإسلام" يدخل القرن الخامس عشر، و "المسلمون" متخلفون عنه ما يقرب من عشرة قرون. ولعل الكثيرين سيقولون: بل وأكثر من ذلك...

وفي نفس الوقت، يدخل "الإسلام" القرن الخامس عشر، ومن أهم ملامح الأحداث العالمية " صحوة إسلامية " تتخذ حتى الآن أشكالا شتى، أحياناً متضاربة، وأحياناً حائرة، وأحياناً متفائلة....

ذلك أن تعويض قرون من التخلف ليس بالأمر السهل. ولا يوجد طريق مختصر سريع إليه..

وليس من حق أي حاكم أو زعيم أن يحتكر لنفسه اكتشاف هذا الطريق.

ولكن هناك ضرورات مسلم بها، إذا كنا حقا نريد اجتياز هذه المرحلة من أسلم الطرق.

إنه لابد من النظر إلى الأمام، ولابد من رفض كل إتجاه إلى أن يعود المسلمون إلى خوض معارك جرت منذ ألف وأربعمائة سنة تقريباً.

والغريب أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي لديه نص أساسي واحد غير متنازع عليه، هو القرآن الكريم. وبالتالي فمهما اختلفت الاجتهادات والتفسيرات، فإنه ليس مقبولاً أن يصبح الخلاف صراعاً، وهناك عندنا ذلك الأساس الواحد الثابت غير المتنازع عليه.

إنه لابد من إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، بنظرة نقدية علمية، لا تسحب قداسة الإسلام ذاته علي سلوك آلاف الأجيال من المسلمين طالما أصابوا وأخطأوا.

إنه لابد من إدراك أن نقطة البدء في التطور هي الإنسان، والإنسان عقل وقلب، التطور ليس بناء ناطحات سحاب. وليس شراء أحدث الأسلحة. وليس اقتناءأي نوع من الماديات.

إنما لابد أن نقول أن العقل الإنساني لا يتحرك إلا بالحرية والإقناع. وإن القلب الإنساني لا يكسب إلا بالحب والكرامة والاحترام.

في البدء لابد أن نعيد إلى الإنسان المسلم حقوقه التي أتى بها القرآن. فالإسلام انتشر بالرسالة وليس بالسلاح. وقد كان خصومة دائما في عصر ازدهاره أقوي منه سلاحاً وأضعف منه حجة.

حقوق الإنسان المسلم هي نقطة البدء.

ما عرفه العلم بعد ذلك بأسم حقوق الإنسان من حرية الفكر والرأي والعقيدة، أو من الحرية والإخاء والمساواة. أو من الديمقراطية (الشورى) والعدل الاجتماعى.

عودة القيم الإنسانية العليا التي دعا إليها الإسلام، إلى الإنسان المعلم، دون تعلل أو اعتذار، وتحول هذا القيم إلى قوانين مفصلة، مطبقة، لها حرمتها... هو أول الطريق...

وكل ما عدا ذلك فهو باطل، وقبض الريح؟!

الحل والضمان

حق التفكير والتعبير!

ضرورات هذا الحديث بالذات كثيرة.

فنحن العرب نمر بأزمة مدلهمة. ربما لم نمر بمثلها منذ نصف قرن.

وليست هذه مقارنة بين حال وحال. ولا بين زمن وزمن. فمنذ نصف قرن كانت معظم البلاد العربية محتلة، مسلوبة الإرادة. وكانت معظمها فقيرة متخلفة. ثرواتها إما مجهولة، وإما مملوكة للأجنبى المغتصب. وجيوشها غير موجودة. وحكامها من صنع المستعمرين فى الأغلب. إلى غير ذلك مما نعرف من حال الأمة العربية والشعوب الإسلامية قبل نصف قرن، أى قبل الحرب العالمية الثانية.

والآن نرى الصورة بالتأكيد غير الصورة. صحيح لقد اغتصب من أرضهم قطر عزيز هو فلسطين، واحتلت إسرائيل أراضى من ثلاث دول عربية أخرى. ولكن الدول العربية صارت مستقلة الإرادة فى مجموعها. لها مقومات الدول فى معظم الأحوال. ولها جيوش ودبابات وطائرات. ولها ثقافة وفكر وفن وأدب. ولها ثروات ضخمة. وأموال تؤثر فى حياة العالم. وبعد إن كانت الكلمة تعبر أرجاءها فى شهور صارت لديها من محطات الإذاعة والتليفزيون والصحف والإذاعات ووسائل التعبير ما لا يقل فى نسبته إلى عددها السكانى عن مثله فى كثير من البلاد المتحضرة.

ولسنا فى حاجة إلى الإطالة. ولكن كل قارئ يعرف أن الأمة العربية بما لها من موقع وما فيها من ثروات، وما يتدافع داخلها من تيارات، صارت أحد أهم ما يؤرق العالم من هموم. حتى أن الناس فى أى مكان فى العالم إذا تلفتوا إلى مكان يمكن أن يؤدى إلى قيام حرب عالمية ثالثة. أشاروا بأصابعهم إلى شرقنا الأوسط، أو إلى عالمنا العربى.

وكان هذا وحده كفيلا بأن يضعنا أمامه أخطر الامتحانات وأصعبها. فالاهتمام العالمى إذا كان موضع فخر فهو يجر إلى التدخل. فتحوم وحوش الغابة وجوارح الطير من كل جانب. تبحث عن مواضع للخطأ وثغرات للانقسام.

وكأن زيادة وسائل التعبير فى بلادنا زادت من سوء التفاهم بينها وليس العكس.

وكأن المجلة الواحدة التى كانت تصل بين قطر وقطر، تبل الريق كقطرة الماء، كانت أفعل فى تفاهم شعوبنا من الضجيج الإعلامى اليومى الهائل، المتواصل، الذى يعبر آلاف فى أقل من الثانية .. ولكن القضية فى كلتا الحالتين، والقضية فى كل العصور والقرون، تبقى واحدة.

إن حرية الرأى وفتح الباب لتعدد الفكر هو المخرج، هو المخلص، هو صمام الأمان لكل أمة وكل شعب وكل مجتمع وكل نظام..

وقهر حرية الفكر قد يكون عمل فرد. كما كان يحدث قديما فى بعض العصور الخالية. وقد يكون عمل آلاف الأفراد والصحف والميكروفانات والكتب، كما يحدث أحيانا فى أكثر المجتمعات تقدما. والعاقبة فى كلتا الحالتين وخيمة..

وقد استوقفنى هذا فى مناسبتين:

أحداهما: كنت استرجع فيها حادثا فكريا قديما من تراثنا.

والمناسبة **الثانية:** كنت أقرأ فيها كتابا جديدا مما أخرجته مطابع الولايات المتحدة الأمريكية حديثا..

ولكنهما، على بعد الشقة، واختلاف النتائج، واختلاف نوع المجتمع تماما، يوصلاننا إلى نفس الاستنتاج. وربما كان الاستنتاج الواحد من محنتين مختلفتين تماما، هو العبرة. فالعبرة الواحدة من ظروف غاية فى الاختلاف، أقوى مائة مرة من عبرة تنتجها وتفرزها ظروف متشابهة..

القصة الأولى: قصة محنة أحمد بن حنبل مع الخليفة المعتصم..

وبإيجاز ودون خوض فى التفاصيل، ثارت فى أواخر عهد الخليفة المأمون قضية فكرية انقسم حولها الناس وهى: هل القرآن قديم، أو أن وجوده مرتبط بوجود الله، أم هو جديد أو مخلوق،أى أن وجوده يرتبط بوقت نزوله على الرسول.

وقد تبدو لنا القضية لو طرحت اليوم غير ذات موضوع. ولا يمس الرأى فيها صدق إيمان أحد. ولكنها وقتذاك تحولت من جدل فلسفة إلى شئ آخر تماما حين اعتنق الخليفة الحاكم رأيا من الرأيين. فبدأت المحنة الكبرى تلاحق من لا يرى رأى الخليفة. وكالعادة كان المثقفون هم من تعرضوا للمحنة. فهم فى ذلك الوقت الفقهاء والعلماء والقضاة. فأرسل المأمون إلى وزيره وحاكم العاصمة بغداد اسحق ابن إبراهيم يطلب منه امتحان القضاة والفقهاء، قائلا له أن من يخالفون الخليفة فى الرأى لابد أن يكونوا "من حشد الرعية، وسفلة العامة، وأهل جهالة بالله، وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه.." فكأن الحاكم قد أدانهم بالكفر مقدما لمخالفة رأيه.

وأخذ اسحق ابن إبراهيم يحضر الفقهاء والقضاة ويقرأ عليهم كتاب الخليفة – محذرا ومنذرا – ثم يسألهم هل القرآن قديم أم مخلوق. فمنهم من قال برأى الخليفة فأخلى سبيله، ومنهم من قال بغير رأى الخليفة، فكان يوضع فى الأصفاد، ويقيد بأثقل الأغلال، ويتعرض لشتى صنوف العذاب. فكان منهم من يعود فيعدل عن رأيه، حتى يتخلص مما هو فيه. وما هى إلا كلمة يقولها والله أعلم بما بقى فى ضميره. ومنهم من يثابر، ثم يستسلم.

وكان من بينهم أحد أكبر فقهاء الإسلام وهو أحمد بن حنبل.. وكان أكثرهم عنادا، فربطوه فى الحديد، والقوة بكل مقامه الجليل فى السجن حتى يرى الخليفة فيما رأيه. ولكن الخليفة المأمون لم يلبث أن توفى.

وأمر المعتصم فاحضروا أحمد ابن حنبل إلى مجلسه. وقد أحضروه وهو مكبل بأغلال من الحديد، وهو الكهل، لا يطيق حملها ولا السير بها.. ويجلسونه فى هذه الحال فى حضرة الخليفة.. ليناقش فقهاء السلطان. فإذا أفحمهم وهزم حججهم، أخذوه مثقلا بأغلاله إلى السجن.

ويتكرر هذا يوما بعد يوم.

ولا أطيل على القراء. فقد انتهى الأمر بأن أمر الخليفة آخر الأمر فجردوه من ثيابه، وربطوه إلى كرسى، وانهالوا عليه بالسياط.. حيث كان يجلس يناقش. وكلما غاب عن الوعى من العذاب، أفاقوه، وسألوه إن كان قد عدل عن رأيه، فيقول لا، فيعودون..

ولما كاد يموت فى مجلس الخليفة، أعادوه إلى أهله كتلة مهشمة من اللحم والدم .. كانت السلطة فى أوج عظمة الإمبراطورية الإسلامية تنزلق أكثر وأكثر إلى الاستبداد.. وبالتالى إلى التداعى والانهيار..

***

الملاحظة الثانية التى استوقفتنى، وجعلتنى أتأمل عوامل صعود وانهيار الإمبراطوريات والأمم حتى وإن بدت فى أوج مجدها.. كانت فى كتاب أمريكي، عن الولايات المتحدة الأمريكية..

الكتاب ضخم فى حوالى ألف صفحة. وقد اعتبرته الصحافة الأمريكية أهم كتاب صدر هذه السنة. واسمه "البحث عن التاريخ". ومؤلفه أحد أ:بر الصحفيين المؤلفين فى أمريكا وهو تيودور هوايت. وقد جمع فيه خلاصة متابعته للأحداث التاريخية الكبرى حيثما وقعت طوال أربعين سنة تقريبا. وقد نعود إلى جوانب أخرى من هذا المجلد الضخم فى أحاديث أخرى.

وقد غطى الكاتب ثلاث فقرات تاريخية عاشها حيث كان التاريخ يصنع بالفعل.

* مع الثورة الصينية (من ١٩٣٨ إلى ١٩٤٥) مزاملا ماوتسى تونج وشواين لاى.. وشيانج كأى شيك.
* إعادة بناء أوروبا مع الحرب بمشروع مارشال (١٩٤٨ - ١٩٥٣).
* فترة التحولات الكبرى فى أمريكا بعد الحرب، من رئاسة ايزنهاور إلى مقتل جون كنيدى (١٩٥٤ - ١٩٦٣).

ويهمنى فى هذا الحديث صفحات أراد المؤلف فيها أن يجيب على سؤال هام:

ما الذى ورط الولايات المتحدة الأمريكية فى حرب فيتنام؟.

ما الذى جعل هذه الدولة الكبرى تحارب حربا مجنونة طيلة عشر سنوات، وتخسر نصف مليون من شبابها بين قتيل وجريح، وتخسر فوق ذلك سمعتها، وخسائر سياسية لا حصر لها، وانهيارات لمواقفها، وشك فى حسن تقديرها حتى بين حلفائها..

ثم إن أمريكا لديها كل وسائل حرية الرأى. وكل أسباب المعرفة ومشاركة الرأى العام. وكل أنواع المخابرات ومراكز الأبحاث ووسائل الدراسة. فما الذى أعماها رغم كل هذا، وساقها معصوبة العينين إلى مستنقعات فيتنام؟.

يقول تيودور هوايت، فى إجابة مفصلة جدا: إنها " المكارثية " التى اجتاحت أمريكا لبضع سنوات قليلة، إن الخوف، مع الأسف، هو الذى يحرك أحداث التاريخ، أكثر مما يحركها الأمل..

وبمجرد أن انتشر الخوف فى أمريكا، من أن يتعرض لاتهام مكارثى له بما سمى "النشاط المعادى لأمريكا" صار كل صاحب رأى، أو صاحب منصب، أو صاحب مسئولية، يحاول أن يتخلى عن دوره، وينزوى، ويسكت، هو يرى الكارثة المحققة.

كانت أمريكا وقتها أغنى ما تكون بخبراء الصين والشرق الأقصى. يعرفون كل شئ من اللغة والأصل والتاريخ إلى السياسة والزعماء الجدد. ولكن الإرهاب الفكرى الذى نشره مكارثى باتهام كل شخص فى وطنيته، كان بمثابة من خلع عينى أمريكا وقطع أذنيها. فصارت بالنسبة لأحداث آسيا كلها لا ترى ولا تسمع. ومضت إلى كارثة سياستها الآسيوية التى دامت بعد ذلك حوالى ربع قرن!.

لقد جر مكارثى كل عقل أمريكا إلى لجنة التحقيق فى الكونجرس. لم تكن هناك سياط كسياط المعتصم. ولكن كانت هناك سياط من نوع آخر لا يقل قسوة وهو التشهير أمامه الرأى العام و"اغتيال الشخصية" كما يقولون فى التعبير الإنجليزى Character Assassination. جر إلى المحرقة العامة أمامه عشرات الملايين من الخبراء وأساتذة الجامعات وموظفى الدولة وجنرالات الجيش والكتاب والصحفيين. وكل من قال رأيا ذات يوم فى سياسة أمريكا نحو الصين مخالفا لما جرى. بل وكل من قابل ولو فى مهمة رسمية أحدا غير مرغوب فيه.

وقد انتهى مكارثى نهاية محزنة بفضيحة أودت به. ولكن رعشة الرعب التى صارت رمزا فى كل مكان واسما يطلق وهو "المكارثية".. رعشة الرعب هذه لم تفارق أمريكا بكل ضخامتها وحرياتها سنوات طويلة..

فلما بدأ العملاق يذهب فى مغامرته الخاسرة ويغرق فى وحول آسيا.. لم يجسر واحد على النطق. لا الخارجية. ولا المخابرات. ولا الخبراء. ولا الكتاب. ولا أعضاء الكونجرس..

وكان الثمن نصف مليون قتيل وجريح. وربع قرن من السياسة المدمرة الفاشلة. وانفصام داخلى فى أمريكا أدى إلى عنف الستينات.. من مظاهرات المدن إلى اغتيالات جون كنيدى وروبرت كنيدى ومارتن لوثر كنج وغيرهم.. كل هذا مقابل سنتين أو ثلاث من الإرهاب الفكرى العام!.

إن الحكايتين اللتين رويتهما هنا، ليستا فريدتين فى التاريخ.. ولكننى قصدت أن أضع جنبا إلى جنب نموذجين متباعدين تماما.. فى بيئتين وعصرين مختلفين أشد الاختلاف. ولكن أثر قفل باب الاجتهاد، والإرهاب الفكرى من السلطة أو من الجماهير، يصل فى الحالتين إلى نفس النتائج..

وأمتنا العربية والإسلامية فى أخطر ظروفها..

الخلاف العربى ضار فتاك. القضايا المطروحة للاختيارات وللقرارات تدور لها الرؤوس. وبجوارنا فى إيران تقوم جمهورية إسلامية، وهو اسم له رهبة، وله خطر، ولكن دون أن نعرف شيئا عن تفسيراتها لقضايا اختلاف الرأى ووسائل التعبير، وقد يرتبط بها هذا الاسم الخطير (الجمهورية الإسلامية) وجودا أو عدما لزمن ليس بالقصير..

ونحن فوق هذا كله نخرج من ظلمة إلى نور. ومن تخلف إلى محاولة تحضر. ومن انكفاء على الذات إلى انفتاح على العالم. ومن تجاهل العالم لنا إلى اهتمامه بنا. ومن بحث عن هويتنا بين الأصالة والتجديد..

فإذا لم يكن حق التعبير وحق التفكير لها ضرورة بل وقداسة فى هذه المرحلة. وإذا لم يتعلم الحكام والمحكومون هذه الكلمة الآن.. ففى أى وقت سنكون فيه أحوج إليها من وقتنا هذا فى عالمنا هذا؟.

العناصر الناقصة.. في القوة العربية

السؤال يطرحه كل عربي علي نفسه، ولا يجد له جوابا..

مهما كان القطر الذي ينتمي إليه المواطن العربي.. ومهما كانت الفئة الاجتماعية التي هو منها.. ومهما كانت درجة التعليم أو المستوي الثقافي الحاصل عليه.. فهو يطرح هذا السؤال علي نفسه، وعلي الآخرين حين يحاورهم، بصيغة أو بأخرى من صيغ التساؤل.. تناسب ظروفه الثقافية والاجتماعية والبيئية التي يعيش فيها.. ولكن السؤال في الجوهر هو نفس السؤال...

والسؤال يقفز، كلما شعر أي واحد منا – وهو الشعور السائد – في معظم الأحوال أن هناك فرقاً كبيراً.. ومسافة شاسعة.. بيَن ما "نعتقد ونتصور" أن العرب قادرون عليه... وبين ما يحققونه بالفعل... سواء في داخل بلادهم، أو فيما بينهم وبين العالم الخارجي من قضايا ومشكلات...

السؤال هو:

– أننا نحن العرب لدينا من أسباب القوة كذا وكذا وكذا.... فكيف لا نستطيع أن نفعل كيت وكيت؟

إننا أكثر من مائة مليون.. وأكثر من عشرين دولة.. وعشرين جيشاً.. ولدينا الموقع الجغرافي الاستراتيجي... ولدينا السلعة الاستراتيجية الأولي وهي البترول.. فلماذا نقف منذ ثلاثين سنة هذا الموقف المتردى.. من إسرائيل.. ومن القوي الخارجية بوجه عام...؟

يطلق المواطن العربي هذا السؤال علي نفسه أو علي غيره، كلما هاجت الخواطر أو ثار نقاش، ثم ينتهي إلى حالة من الحيرة والإحباط وعدم الاقتناع بما يلقي أمامه أو ما يعثر عليه هو من حيثيات ومبررات..

السؤال هام، وغير نظرى.. بل أنه واقعى. بل أنه هو "السؤال"!..

وربما كانت البداية الصحيحة، في محاولة العثور علي رد مقبول، هو أن ترد علي السؤال بسؤال:

نعم.. أن لدينا من عناصر القوة كذا وكذا وكذا.. ولكن ما هي يا تري عناصر القوة التي تنقصنا؟..

وهل يا تري نستطيع أن نستكملها؟ وكيف؟...

أن "القوة" ليست شيئاً مجرداً. يكون أو لا يكون. إنما القوة مجموعة عناصر، ربما يغيب بعضها فيؤثر علي سائرها. كالموقع الجغرافي مثلاً. أو الثراء. إنها عناصر هامة في تركيب "القوة". ولكنها بمفردها قد تنقلب إلي عوامل ضعف: كأن تصبح الدولة الغنية أو ذات الموقع الهام، مطمعا للآخرين، ومصدراً لإثارة شهية القوي الخارجية ضدها.

والتعدد مثلاً.. قد يكون مصدر قوة إذا عرف كيف يتكامل، وقد ينقلب إلى مصدر ضعف إذا كان سبباً في التفكك والتناحر...

***

مجلة "الشئون الخارجية FOREIGN AFFAIRES" الأمريكية، التي تصدر مرة كل ثلاثة شهور.. أصدرت عدداً خاصاً بمناسبة مرور خمسة وخمسين عاماً علي صدور أهم مجلة في نوعها، كرست معظمه لعدد من أكبر المفكرين والساسة يناقشون فيه موضوع "القوة"!.

بمعني "القوة" في السياسة الدولية طبعاً..

وهناك طبعاً، عناصر "القوة" التقليدية المعروفة، نسجلها هنا في إيجاز، حتى نصل إلى ما نريد التركيز عليه.

فمن أبرز عناصر القوة، بمعناها التقليدي منذ القدم:

* القوة العسكرية، وأمرها معروف وحاسم طبعاً.

* القوة الاقتصادية والمادية. وهي أيضا أمرهاً معروف. وهي في الواقع – أي القوة الاقتصادية والمادية – هي التي تنتج إلى حد كبير بين العنصر الأول وهو القوة العسكرية. فالدولة إذا كانت صناعية متقدمة، ولديها مصادر الخامات المطلوبة، تصبح أقدر من غيرها علي إنتاج السلاح وحشد الجيوش. وإنتاجيتها تجعلها أقدر من غيرها علي احتمال تمديد الحرب زمنا أطول من خصومها.

* قوة عدد السكان والموقع الجغرافى...

فالصين مثلاً دولة متخلفة مثل دول العالم الثالث، إذا أخذنا في الحساب مستوي المعيشة ومعدل دخل الفرد وغير ذلك. ولكن مجرد أنها دولة تضم حوالي ألف مليون، يجعل لها هيبة خاصة وخطراً خاصاً، ولو كان خطراً مستقبلاً وليس آنياً، ولكنه يدخل بالتأكيد في كل حساب.وكذلك الهند، وما يليها من بلاد.

وفي الصراع العربي الإسرائيلي مثلاً، رغم أن إسرائيل خرجت منتصرة في معظم الحروب.. إلا أن مجرد عدد سكانها ثلاثة ملايين والعرب أكثر من مائة وعشرين مليونا، يجعلها في نظر العالم في وضع المدافع عن نفسه، وضع من لا يملك المستقبل.

ولا شك أن التقدم العلمي الهائل، وانعكاسه علي قدرة القوة العسكرية، قد قلل من قيمة "العدد" ورفع من قيمة "النوع": أي نوع الأسلحة التي في يد الجنود، ومدي كفاءة وتعليم الجنود الذين يحملون السلاح...

ففضائل الجيوش في الحروب القديمة، حروب السيف والرمح، من شجاعة وحماسة وكثرة عدد، حلت محلها فضائل أخري هي درجة التعليم، ودرجة استيعاب الأسلحة الحديثة والتحكم فيها، وقوة النيران لا قوة الأفراد.

وليس مصادفة أن نجد أن "القوتين الأكبر" أمريكا وروسيا، كلتيهما تتجمع لها أكبر درجة من عناصر القوة سالفة الذكر:

العدد الكبير (٢٢٠ مليون أمريكا – ٢٥٠ مليون روسيا)، والقوة الإنتاجية الهائلة وتوفر معظم المعادن الخام المطلوبة للصناعة داخل أرضها (حديد – فحم – بترول – ألخ) فهما ليستا مثل اليابان أو ألمانيا، اللتين هزمتهما، إلى جانب أسباب أخرى، ندرة البترول المستورد كله من الخارج.

يأتي بعد ذلك عنصر هام وأن بدا غريباً، وهو: قدرة الدولة علي التحالف مع آخرين.

فهناك دولة تكون علي درجة من الذكاء السياسي، والمرونة، وبراعة التخطيط، بحيث يكون لها دائما حلفاء من دول أخري تقف بجانبها في الحرب أو السلام علي السواء...

فألمانيا مثلاً خسرت حربين عالميتين، لأنها كانت معزولة في أوروبا، ولأنها في الحربين لم تتمكن من كسب تضامن حلفاء مهمين معها.

وإنجلترا بالمقابل هزمت نابليون، ثم هزمت الإمبراطور غليوم، ثم هزمت هتلر.. لأن إنجلترا كانت دائماً لا تخوض حرباً بمفردها قط إنما تخوض حروبها دائماً مع حلفاء. وكما قال تشرشل عندما أمكنه التحالف مع أعدي أعدائه، الاتحاد السوفيتى، خلال الحرب، من أنه مستعد "للتحالف مع الشيطان" لكسب الحرب، كان دائماً هو شعار الإمبراطورية في أوج مجدها، وقبل زوال شمسها...

وإسرائيل، لم تكسب موقعة حرب أو موقعة سلام. إلا بمحالفات مع دول قوية.. مع إنجلترا سنة ١٩٤٨.. ومع فرنسا وإنجلترا سنة ١٩٥٦.. ومع أمريكا سنة ١٩٦٧.

وإذا كانت هذه الصفة "القدرة علي التحالف مع الآخرين" مهمة للقوي الكبرى.. وقد رأينا صراع الأحلاف في العقدين الماضيين وكيف كانت ضراوته.. فإنه إلزام للدول الصغيرة والنامية.. وفي هذا المجال يمكن ملاحظة المزايا التي استفادتها دول هذا النوع في دائرة التجمع العربى، أو التجمع الإسلامى، أو التجمع الأفريقى، أو تجمع دول عدم الانحياز، فلا شك أن التجمع علي هذه المستويات قد ساعد في حالات كثيرة علي تحقيق استقلال أقطار لم تكن مستقلة، وحماية مصالح بلاد أخرى...

وربما نلاحظ لهذا السبب أن الدول الكبرى أو العالم الصناعي المتقدم كله.. ينفر من هذه التجمعات، ويحاول تخريبها أو تفكيكها قدر الإمكان.

والواقع أن بند "القدرة علي التحالف مع الغير" إنما يشير – بين عناصر القوة – إلى عنصر الحذق السياسى، وبعد النظر... واكتشاف المجالات المشتركة مع الغير – سياسياً واقتصادياً – وكيف تضع الدولة قضاياها في موضع القضايا العادلة التي " تقنع" الغير فوق ذلك.

ونستطيع أن نضيف في إطار وسائل الإعلام الحديثة، ذات القوة الساحقة، من سينما وصحافة وإذاعة وتليفزيون. وهنا أيضا من السهل أن نلاحظ قيمة هذا العنصر، إذا تذكرنا ما حققته إسرائيل من نتائج، بسبب تأثيرها علي أجهزة الإعلام في الخارج، وكسبها للرأي العام العالمي خلال فترة طويلة، قبل أن يتنبه العرب إلى خطورة هذا السلاح وقيمته...

وقد وجد الباحثون والمفكرون ما وصفوه بأنه نوع جديد تماماً من أنواع "القوة" لم يسبق له مثيل خلال التاريخ الإنساني كله. وهو ليس موجوداً حتى اليوم إلا في حالة واحدة فقط: هي دول منظمة "الأوبيك" أو منظمة الدول المصدرة للبترول.

نحن هنا نواجه نموذجاً جديداً تماماً: دول تفتقد معظم عناصر القوة التقليدية – في رأيهم– دول قليلة السكان، ضعيفة عسكرياً، وغير ذات موقع إستراتيجي هام. ولكن تكوين الكرة الأرضية أعطاها ما يشبه الاحتكار لسلعة باتت أهم سلعة في العالم وهي البترول.

ولو كانت كل دولة مصدرة للبترول، منفردة بنفسها، لكانت قوتها أقل بكثير، ولكن قدرتها علي التجمع ونجاحها فيه جعلها ذات نفوذ عالمي من نوع خاص.

فهي تستطيع بقرار منها أن ترفع أسعار كل شئ في العالم أو تخفضها، أي أن أثر قراراتها يصل إلى كل بيت وليس إلى كل دولة فحسب. والدول العربية منها متقاربة جغرافياً، ولها قضايا سياسية مشتركة إزاء العالم، وبالتالي فهي قادرة علي استخدام البترول كسلاح سياسي مباشر. وقد حدث هذا بالفعل بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣.

وبعد أن كانت الشركات العملاقة، المتعددة الجنسيات، تملي شروطها علي دول البترول، انعكست الآية تماماً.

ويضرب الخبير "جون كامبل" مثلاً بالتأثير السياسى: إذ يذكر كيف أن الدول الأكثر اعتماداً علي البترول العربي – اليابان وغرب أوروبا – هرولوا ساعة الخطر إلى محاولة إنقاذ علاقاتهم. وكان هذا موضع خلاف شديد بين هذه الدول وحليفتهم الأساسية، الولايات المتحدة الأمريكية..

وحتى الآن – يقول جون كامبل – نجد أن هذه الدول الأكثر اعتمادا علي البترول العربى، أن لم تأخذ خط السياسة العربية تماماً، بسبب وجود الولايات المتحدة، إلا أنها علي الأقل مضطرة " لمجاراة " العرب أحياناً، أو علي الأقل "مداراتهم" حتى لا تتدهور الأمور إلى وضع خطير....

وقد كان ممكنا أن تفعل دول أخري ما فعلته دول البترول: أي أن تظهر "أوبيك" تضم الدول المنتجة للفوسفات، وهكذا بالنسبة للسلع الأخرى الأساسية...

ولو أن تلك الدول المنتجة للخامات تمكنت من عمل تكتلات مثل تكتل دول البترول، لتغيرت موازين القوي في العالم كله، ولأصبحت الدول الفقيرة المنتجة للخامات في وضع قوي جداً، إزاء الدول الصناعية المتقدمة، المستهلكة لمعظم خامات العالم..

ولكن هذا لم يحدث إلى الآن. ربما لأن السلع الأخرى ليس لها أهمية البترول. ولكن من يخطط للمستقبل عليه أن يضع في حسابه هذا الاحتمال.

يأتي بعد ذلك عنصر من عناصر القوة، ربما كان أقدم العناصر، والكثيرون يعتقدون أنه أهم عناصر القوة.

ذلك هو: البعد الداخلى.. أي الظروف الداخلية لأي دولة تريد أن تكون ذات قوة ما في الحياة الدولية..

فكل العناصر السابقة.. من مال أو سلاح أو صناعة أو اقتصاد.. أنما هي في النهاية أسلحة في يد الدولة أو المجتمع الذي يملكها..

فهي كلها – مجتمعة أو متفرقة – بمثابة السيف. وكما أنه من المهم أن يكون سيفاً قاطعاً فانه من الأهم أن تكون "اليد" التي تمسك بهذا السيف ثابتة...

فقد رأينا – مثلاً – إمبراطوريات أعــرق وأكثــر حضـــارة وإنتاجيـــة وقــوة عسكرية... تنهار أمام المد الإسلامى، البسيط، القادم من صحراء فقيرة... ذلك أن هذه الإمبراطوريات كانت قد شاخت، ودبت فيها عوامل الانحلال، فانهزمت رغــم قوتهــا أمام قوة أضعف منها في كل شئ إلا في طاقة الإيمان، والاقتناع، وقوة الاندفاع.

ونفس الشئ حدث للإمبراطورية الإسلامية.. عنــدما وصــلت إلــى ذروة حضارتها، ثم دبت فيها عوامل الانحلال، فصارت تتساقط قطراً بعد قطــر، أمــام زحف أوروبا الجديدة التي استردت شبابها.

وشروط "الوضع الداخلي" لأي بلد، كثيرة، وفي تقديري أنهــا معروفــة لأي قارئ...

ولكن ذلك الحوار توصل إلى أن هناك شرطين أساســيين، لا غنــي عــن وجودهما قط، حتى يصبح المجتمع مجتمعاً قوياً، والدولة دولة قوة...

الشرط الأول: هو التعليم.

والشرط الثانى: هو الإطار السياسي والاجتماعى.

بالنسبة **للشرط الأول**، فهو بالفعل شرط بديهى، فقد دانت الدنيا في عصــرنا هذا بالذات للعلم. والعلم ليس بمعني العلوم التطبيقية وحدها – الكيميــاء والطبيعــة والهندسة والذرة – ولكن العلم بمعني الأخذ بالأسلوب العلمى، من أكبر الأمور إلى أصغرها، وهذا لا يتوفر إلا بوجود قاعدة واسعة "متعلمة".

وغياب هذا العنصر، من أقتل الأشياء للقوة العربية الممكنة.

أن وجود نسبة من الأمية تدور حول ٧٠% في العالم العربي بوجه عام، أمر لم يعد مقبولاً وعبء علي كاهل الأمة العربية يفتــرس حيويتهــا، كمــا تفتــرس الأمراض المتوطنة جسد الإنسان.

ولو وضعنا تاريخاً مقبولاً في معظم الحالات... منذ نهاية الحرب العالميــة الثانية، ثم توالي حصول الدول العربية علي استقلالها، نجد أن دول الاستقلال قــد ضيعت ربع قرن من الزمان، دون أن تختفي الأمية أو حتى تقل بدرجة ملحوظــة، إنما نكاد نلهث لملاحقة عدم زيادة النسبة مع تزايد عدد السكان.

وقد أخذت قضية الأمية في نظرنا مأخذ الترف. أو الشئ الذي لا حل له. وهذا غير صحيح. إذا اطلعنا علي تجارب بلاد أخرى..

من المحراث في الزراعة.. إلى الصاروخ في الحرب.. تتضاعف قيمة أي أداة بمدي تعلم الفرد وتدريبه وتعوده التعامل مع أدوات العصر..

أن هذه هي أحدي الثورات الكبرى التي يحتاج إليها العالم العربى. وبغيرها لا يمكن اجتياز حد معين من حدود القوة.

والأساس الأساس، في انفصام الشخصية العربية، هو وجود فئة متعلمة مثقفة.. وفئة غائبة تماماً عن كل هذا، الأمر الذي يجعل الحوار في داخل الأمة "حوار طرشان" وينتج تمزقات وتصادمات في القيم والعادات والأهداف والمثل العليا.

والشرط الثاني الذي هو الإطار السياسي الاجتماعي السليم، القوي المرن في نفس الوقت، كذلك شرط يبدو بديهياً.

والمقياس الذي يقيس به أي مفكر غربي مدي توفر هذا الشرط هو: مقياس الديمقراطية وحرية الرأى.

وهو بالتأكيد مقياس سليم، فالشعب الذي يستطيع أن يحقق الاستقرار مع توفر الديمقراطية وحرية الرأى، هو الذي يمكن أن يقال عنه أنه شعب منسجم مع نفسه، قد تعمقت جذوره.

ولكننا لا نضع بالضرورة صورة واحدة للديمقراطية وحرية الرأى، منقولة حرفياً من عالم آخر..

إنما نقول أن المطلوب توفر هذين العنصرين، بشكل ينسجم مع تقاليد وقيم كل شعب ونوع تطلعاته وأهدافه.

وذلك بدوره عنصر ناقص في كثير من بلادنا العربية..

وبالتالي فهو عنصر قوة ينقصنا ونحن محرومون منه.

وما أشد ما تتعاظم القوة التي يملكها الشعب، إذا استطاع بمحو الأمية ونشر الثقافة وتكريس صورة الديمقراطية، أن يشارك شعب – وليست فئة قليلة منه – في الحوار الأبدى، الدائر باستمرار داخل كل أمة، صاعدة، ناهضة، تنوي حقاً أن تهزم مشكلاتها وأن تحصل علي أهم أسباب القوة.

قضية "النخبة".. و "الجماهير"
فى مرحلة الانتقال التى يمر بها العالم العربى

بعد احتراق دار الأوبرا فى القاهرة، دار فى مصر حوار واسع حول بناء دار جديدة للأوبرا بدل الأوبرا التى احترقت. وهل لمثل هذا المشروع مجال بالنسبة لبلد يجتاز ظروفا اقتصادية صعبة كمصر، ولكنها من ناحية أخرى اعتادت فكريا وثقافيا وجود دار للأوبرا، فضلا عن أنها قضية مطروحة أيضا فى بلد آخر مختلفة ظروفه، دولة جديدة هى الكويت، يرى البعض ضرورة وجود مثل هذه المنارة الثقافية فيها، ويرى آخرون أنها مجرد ترف..

هكذا.. ناقشت الأمر مرة من ناحية أهمية العلوم الإنسانية تماما كالعلوم التطبيقية، رغم افتتان الناس بها، فى ظل حضارة حديثة طابعها الطاغى هو الجانب المادى، لأن أى مجتمع لا يتقدم على ساق واحدة، إلا تقدما أعرج غير حقيقى، وهنا أريد أن أقول إن الموضوع نفسه كان سببا فى مناقشة قضية أخرى، هى قضية "النخبة" و "الجماهير"..

والعلاقة هنا – بحكاية بناء الأوبرا – أن الناس فيهم من يرى أن الأوبرا لا يفيد منها إلا الخاصة رغم أن أموالها مأخوذة من حق الجماهير، وفيهم آخرون يرون غير هذا الرأى..

وفى البداية، نلاحظ أن "النخبة" هى التى حكمت العالم عبر تاريخه الطويل.

ولذلك كان التاريخ كله تقريبا – قبل المائتى سنة الأخيرة – هو تاريخ الأباطرة والقواد العسكريين وكبار الفلاسفة والمفكرين والأدباء والعلماء.

طبعا، كان العبء الأكبر فى استمرار الحياة يقع كالعادة على عاتق قاعدة عريضة من الناس، هم الذين يزرعون ويبنون ويموتون فى المعارك الكبرى، لكن

التاريخ كان لا يتذكر هؤلاء.. ونادرا ما نجده يتعرض ولو لنوع حياتهم.. وكل حضارة الفراعنة التى عاشت أساسا من خلال فن نعرفه هو أن خوفو هو الذى بنى الهرم.. ورمسيس هو الذى أقام المعابد ويوليوس قيصر هو الذى خاض المعارك وشرلمان هو الذى وحد أوروبا. ثم القلة القليلة النادرة من الذين بقيت أسماؤهم فى عالم الفكر والفن.. سقراط، أرسطو، شيشرون، فولتير، موليير، وغيرهم.

وكان هذا وضعا طبيعيا، فالسلطة كانت إما وراثية، وإما ينتزعها صاحبها بالقوة. وكانت النخبة التى تتولى تسيير الأمور بالتالى محصورة فى هذا النطاق. حتى إذا نبغ فى عصره عالم أو أديب أو قائد عسكرى أو طبيب، فهو لابد أن يمارس كفاءته داخل هذه النخبة المحدودة وفى إطارها، فيتوقف نجاحه على التحاقه بها، وجذب انتباهه غليه. ثم الاحتفاظ برضاها عليه.. وإلا فالسقوط من حالق، أو أن يسلم عنقه لضربة السياف أو حبل المشنقة.

ولم يكن التعليم بالمعنى الذى نعرفه موجودا. إنما كان عدد الذين يقرأون ويكتبون فى أى عصر يعدون على أصابع اليد الواحدة وليس معنى ذلك أن مركز السلطة والتوجيه – أو النخبة بهذا المعنى القديم – كانت على الدوام جاهلة، ففى بعض العهود كانت على العكس تتميز بالمعرفة وتشيع فيها قيم الثقافة والعلم. فقد عرفت بعض عصور الخلافة الإسلامية، الخلفاء الفذين يحيطون أنفسهم بالشعراء والأدباء والفقهاء، والذين كانوا يهتمون بتربية وتعليم أبنائهم المرشحين للحكم من بعدهم. كما عرفت أوروبا مثلا عصرا مثل عصر لويس الرابع عشر، حيث كان ملوك وأباطرة أوروبا يتباهون بمن فى بلاطهم من فلاسفة وأدباء وحكماء وفنانين، ولكن هذا كله كان يدور فى قصر الحاكم، فرساى مثلا، حتى الموسيقار لا يجد جمهوره المستمع إلا فى القصر، وعرف ما يسمى "بموسيقى الحجرة" قبل أن توجد موسيقى الأوركسترات الضخمة التى تعزف فى القاعات الكبيرة وللجماهير. وكان المؤلف المسرحى مثل موليير لابد أن يقدم مسرحياته فى مسرح القصر لنخبة أنيقة مترفة معطرة.

كانت إذن داخل تلك الدائرة تعيش النخبة وتولد الأحداث ويلمع النجوم وتتخذ القرارات، بشكل أو بآخر طيلة السبعة آلاف سنة المكتوبة من تاريخ الإنسان، ما عدا حوالى المائتى سنة الأخيرة تقريبا من هذا التاريخ الطويل..

على أن الوضع بدأ يتغير جذريا بعد ظهور المطبعة، ولـيس مصـادفة أن ظهور المطبعة تلاه مباشرة عصر من كبار المفكرين وعمالقة الأدباء والفنانين فى أوروبا. وتلا هذا فورا ظهور أفكار اجتماعية جديدة، وغليان ضد النظام الإقطاعى الذى لم يعرف له الناس عبر القرون بديلا ~~ضد النظام الإقطاعى الذى لم يعرف له الناس عبر القرون بديلا~~ وتمخض هذا كله عن حدث الثورة الفرنسية العظيم الـذى هز أوروبا كلها هزا..

ولعل تلك الفترة كانت أزهى عصور ما يسمى "بالنخبة" على الإطلاق، لأننا سنرى بعد قليل كيف إنها بدأت فى عصرنا الراهن تعانى من محنة أخرى.

كانت المطبعة وغيرها من وسائل النشر قد أخذت طريقها إلـى الانتشـار. وأصبح الكتاب والعلماء والأدباء والشعراء ذوى أسماء مشهورة ولهم صيت كبير. وخرج الرسامون من تزيينه جدران القصور إلى الكنائس وأماكن أخـرى عامـة كثيرة، وبدأت تتكون المدن الكبيرة بالتدريج مع بوادر الصناعة والتجارة وتحسـن المواصلات. وخرج الموسيقيون من تـأليف "موسـيقى الحجـرة" إلـى وضـع السيمفونيات العظيمة التى تعزف لجمهور أوسع بكثير. وأخذت نظم التعليم تظهـر وتنتشر وبوجه عام – وهو أمر أساسى – صار الفيلسوف والمفكر والأديب والفنان يراعى جمهورا جديدا، ويتوجه إليه، ويتوقع حكمه، بعد أن كان لا يفكـر إلا فـى جمهور محدود جدا، إذا جاز أن يطلق على هذه القلة اسم "جمهور".

لقد صار لهؤلاء المثقفين لأول مرة – قبيل الثورة الفرنسية – صيت عظـيم فى البلاد، وأثر كبير فى الرأى العام، ولأول مرة تكونت النخبة – بالمعنى الثقافى لا الوراثى – من غير طبقة النبلاء الحاكمة، وصارت تخاطب جماهير أوسع. كان هؤلاء حقا هم الذين صنعوا حدث الثورة الفرنسية العظيم بالأفكار الجديـدة التـى دعوا إليها، والكتابات التى نشروها، والأندية التى أسسوها.

وكانت هناك فى نفس الوقت حركة استقلالية وتحررية أخرى عظيمة، لـم يلتفت الكثيرون إلى مغزاها الهائل فى ذلك الوقت، لأنها وقعت بعيدا فـى العـالم الجديد، تلك هى حرب استقلال الولايات المتحدة الأمريكية ووضع وثائقها الأولى.

هنا أيضا نجد أن هذه الثورة – رغم كل عواملها الاقتصادية والاجتماعية – كأى ثورة، فقد كان دور النخبة بمعناها الثقافى أيضا دورا مرموقا ملحوظا لأول مرة.

يقول المؤلف الأمريكى "ميرل كيرتى" فى وصف هذه المرحلة فى بدء حياة أمريكا" كان كل من الحزب الاتحادى والحزب الجمهورى يتفاخر بمن لديه من زعماء من أهل الثقافة والفكر. وكثيرون من مؤسسى أول جمهورية فى العالم الحديث جمعوا بين الثقافة العالمية والعمل. فالمؤتمر الدستورى الأول سنة ١٧٨٧ كان فيه واحد وثلاثون من الخمسة والخمسين عضوا يحملون أعلى شهادات الكليات والمعاهد العليا وآخرون مثل بنجامين فرانكلين كانوا مثقفين من أعلى طراز بمجهودهم الخاص، وفى قاعة الاستقلال ذلك الصيف كان يجلس مديرا جامعتين وثلاثة أساتذة جامعيون، وجيمس ماديسون أحد أكبر مفكرى زمانه، وجون آدمز أستاذ الكلاسيكيات ومؤلف كتاب "دفاع عن الدستور" وكونيسى أشهر أعضاء أكاديمية الفنون والعلوم، وتوماس جيفرسون، وغيرهم".

دخل "النخبة" إذن من رجال الفكر، جنبا إلى جنب مع رجال العمل لأول مرة، وخلقوا فى "الرأى العام" – وهو فى حد ذاته تعبير جديد – تيارات قوية وغرسوا فيه أفكار أهم ثورتين في ذلك العصر، "ثورة الاستقلال الأمريكية، والثورة الفرنسية الكبرى" فاتحين بذلك عصرا جديدا تماما للشعوب.

ولعلنى استطردت قليلا..

ولكن ما أريد أن أقوله هو أن الشعوب فى مجموعها قضت معظم التاريخ الإنسانى وليس لها حساب كبير، رغم أنها كانت على الدوام صانعة الحياة. وأن النخبة – المنبثقة عن هذه الجماهير – عرفت فترات من اللمعان مع ازدهار الحضارات، أبرزها الازدهار العظيم والاحترام الكبير الذى ناله كبار المثقفين فى العصر الذهبي للدولة الإسلامية، خصوصا في بغداد العباسيين وفي الأندلس. حتى اضطهاد البارز منهم – كاضطهاد الإمام أحمد ابن حنبل – كان دليلا علي أهمية أمثاله وتقدير الحاكم لدورهم فى تشكيل الفكر العام. ثم كان حظ المثقفين يخبو مع اضمحلال كل حضارة.

ولكن الفترة التى أتحدث عنها من القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، كانت تختلف عن كل ما سبق، إذ شبت فيها حركات التحرر، وقامت الثورة الصناعية تدريجيا، وتكونت – ما قلت – المدن الكبيرة وبدأ يصبح "للجمهور" وزن لم يكن له من قبل. وبالتالى صار للمثقفين دور بارز، فهم القادرون على إنتاج المخترعات الحديثة المتوالية التى تغير حياة الإنسان، وهم القادرون على توجيه أفكارهم وآرائهم إلى هذا الجمهور الجديد ، الأمر الذى أكسبهم قوة وشهرة، وظهر أكبر نوابغ الفكر والآداب والعلوم وقممها خلال تلك الفترة.

ولكن، حين نصل إلى العصر الحديث، بمعناه الراهن، نجد أننا محتاجون إلى مناقشة أكثر تفصيلا لقضية النخبة.

فأول وأهم ملامح العصر الذى نعيش فيه – فيما يتعلق بالموضوع الذى نتصدى له – هو ثورة الإعلام. أو ما أفضل أن أسميه ثورة المعرفة.

ففى العقود القليلة الماضية من السنين، انفجرت المعرفة انفجارا هائلا وصار العالم بهذا المعنى عالما واحدا صغيرا لأول مرة فالصحافة والإذاعة والسينما والتليفزيون وجهاز الراديو الترانزيستور الصغير الذى يحمله أفقر بدوى فى أبعد صحارى الدنيا، جعلت المعرفة فى متناول كل فرد، وإن تراوحت الدرجات. وبعد أن كان السفر والترحال مهمة المستكشفين أو الرسل الذين يتبادلهم الملوك، صار هواية مئات الملايين كل سنة، كل إنسان يحاول بقدر إمكانياته أن يرتاد أكثر ما يستطيع من أرجاء المعمورة.

وكما يقول "مارشال ما كلوهان" الذى حاول أن يفلسف هذه الثورة فى معظم كتاباته.. كما يقول فى كتابه "القرية الكونية": إن هذه المخترعات جعلت الإنسان بعد أن كان يكفيه أن يتأقلم مع بيئة قريته أو مدينته، صار مضطراً إلى أن يتأقلم مع قرية أكبر، هى الكون بأكمله.

فأين صار مكان النخبة فى هذا العالم الجديد؟ وهل بقى لهم دور يقومون به؟.

إن مكانة النخبة التى كسبتها فى القرن الماضى، من حيث القيادة الفكرية لشعوبها.. سواء فى مجالات الفكر السياسى أو الإنتاج الفنى أو الذوق العام.. هذه المكانة لم تدم طويلا، تحت وطأة هذه المخترعات التى أحدثت تلك الثورة فى المعرفة ونشرها، وذلك من ناحيتين:

الناحية الأولى، هى أن هذه الأجهزة الإعلامية الكاسحة فى تأثيرها صارت قابلة لأن تقع فى يد السلطة الحاكمة، كما هو حادث فى كل النظم الشمولية مهما كانت أنواعها ومذاهبها ومسمياتها. وبالتالى صار ممكنا فى هذه الحالة أن تحرم من لا ترضيهم آراؤها من النخبة، من أى فرصة للتأثير على الجماهير. فهى - السلطة - حتى إذا لم تمنعهم منعا، أو لم تطردهم طردا، قادرة على مواجهة أفكارهم بسيل كاسح من الفكر والذوق والسلوك، المفروض من أعلى، عن طريق استخدام هذه المخترعات الحديثة القادرة على مخاطبة القريب والبعيد، المتعلم والأمى، وهى بهذا أكثر فاعلية بما لا يقاس من جهد حامل فكرة ينشرها فى كتاب أو يدعو إليها فى محاضرة.

فكأن الفكر بوجه عام عاد إلى ما كان عليه قبل قرون: إما أن يخدم السلطة، فتفتح له أبواب التأثير والانتشار، وإما أن يرضى بالانزواء. والانطواء، والقبول بالدور الضئيل المختنق.

وكأن تلك المخترعات الضخمة لنشر المعرفة، والتى ظهرت لتحرير الإنسان، قد غدت وبسرعة وسيلة من وسائل السلطة لصياغة الإنسان وتكوينه، بفعالية لم تكن لأى سلطة من قبل فى التاريخ.

وفى تقديرى أن هذا السؤال - كيفية جعل ثورة المعرفة وأجهزتها فى خدمة الإنسان لا السلطان - من أهم الأسئلة المطروحة على الإنسانية فى هذا العصر الحديث.

الناحية الثانية، إن انتشار المعرفة على مستوى الملايين، ذلك الأمل المرغوب فيه وفى زيادته على الدوام، كان لابد له أن يؤثر - بالهبوط - على مستوى الإنتاج الخاص والآداب والفنون وتربية الذوق العام والعقل العام للناس.

فهذه الأدوات الحديثة للمعرفة - من صحافة يومية وإذاعة وتليفزيون وسينما - كالمعدة الشرهة التى تحتاج إلى كمية هائلة من الطعام تتغذى بها كل يوم. وهذا فى حد ذاته سبب كاف لأن يهبط مستوى الإنتاج فى كل هذه المجالات، وهى مجالات بطبيعتها أكبر تأثيرا وأوسع انتشارا.

ثم إن هذه الجماهير الواسعة جدا التى دخلت ساحة استهلاك ألوان المعرفة، هى بطبيعتها أقل ثقافة من القلة القديمة، وبالتالى صار "ممولو ومنتجو" هذه المعرفة لا يجدون وسيلة للانتشار والكسب سوى التسابق على تلبية طلبات هذه الجماهير

المتزايدة. ظهرت الروايات التى تغرق السوق وتستهلك وتكسب الملايين ثم تنتهى ولا تبقى فى تاريخ الأدب لأنها فى الأصل لا تعد أدباء أو هى نوع جديد من الأدب! وظهر ما يشبه هذا فى كل المجالات وتغلب عنصر التجارة على عنصر الجدوى والفائدة، أو تغلب عنصر "الثمن" على عنصر "القيمة".

لم يعد الذين يصوغون العقل العام والذوق العام هم أولئك الذين نسميهم النخبة، بل اقتصر وجودهم وتأثيرهم على قلة من الجمهور وعلى من هم داخل جدران المعاهد والجامعات فى أحسن الفروض.

وصار الذين يصوغون العقل والذوق العام نوعا جديدا من "رجال الأعمال" يطبعون الكتاب كمشروع تجارى، ويرسمون خطة إبراز نجم أو ترويج اسطوانة بدراسة السوق ووسائل الإعلان الحديثة.

وإذا تساءلنا بعد ذلك عن مظاهر العنف فى عالم اليوم، أو رواج ثقافة الإباحية والانحلال، فإنها تعود بدرجة أساسية إلى تسابق "منتجى الفكر والفن والذوق" الجدد، على إرضاء أوسع فئة من الناس..

وتكفى المرء وقفة اليوم أمام واجهة مكتبة في طريق عام، أو فى مطار أو فى محطة قطار. ليجد رفوف المكتبات حافلة بألوان من الكتب بأسماء كتاب صاروا جماهيريين، وكتبهم تطبع بالملايين. وتتحول إلى أفلام يراها عشرات الملايين. كتب أحيانا فى الجنس. أو فى المغامرات السياسية أو الجاسوسية. أو الأسرار الشخصية. هل هى كتب أقرب إلى الصحافة المثيرة، أم هى نوع جديد من الإنتاج "الأدبى والفنى" سيعيش معنا زمنا طويلا؟. ولكن لا يعيش معظمها فى السوق إلا زمنا قصيرا. فى حين أن الأعمال الأدبية التى تعيش مائة أو مئات من السنين لا نكاد نجد مثلها فى قوائم الإنتاج الحديثة اليوم.

ونفس الأمر ينطبق فى ساحة العلوم التطبيقية.

ففى ساحة العلوم التطبيقية هناك طبعا المبرزون، ولكن عملية البحث العلمى والاختراع لم تعد فردية، ولكنها فى عصر ما بعد الثورة الصناعية، صارت عملية يشترك فيها المئات بل والآلاف من العلماء المتخصصين فى فروع شتى من العلم، لأن التسارع إلى تطبيق نتائج الأبحاث العلمية، وتحويلها إما إلى أسلحة فى ساحة

التنافس الدولى وإما إلى سلع فى ساحة التنافس التجارى جعل عملية الاختراع ذاتها أشبه بعملية الصناعة، فهى "إنتاج مخترعات" على نطاق كبير، لا تقوى عليه إلا مجموعات لا أفراد، ودول بعينها هى الدول التى لديها رصيد ضخم من رجال العلم ومن المال الضخم اللازم للإنفاق على البحث العلمى.

بهذا المعنى، نلاحظ أن مفهوم "النخبة" فى العصر الحديث، قد تغير.

وبرغم الأزمات التى صارت تواجه "فكرة النخبة" فى حد ذاتها، على الأقل لأنها تتعارض للوهلة الأولى مع فكرة الديمقراطية.. إلا أن دورها باق بشكل ملموس وإن كان متغيرا.

فهى لم تعد تلك القلة القليلة ولكنها ازدادت عددا وانتشارا وتنوعا، سواء فى الجامعات أو معاهد الأبحاث أو المؤسسات المالية والاقتصادية والعلمية وغيرها. وهى لم تعد تنبع من خلفية اجتماعية محدودة ومتوارثة، بل صارت بحكم انتشار تكافؤ الفرص تأتى من كل الفئات الاجتماعية.

ولذلك نرى أن دورها – بهذا المجموع الذى ربما لا تلمع فيه أسماء فردية – يزداد أهمية فى عملية التقدم. فالتقدم التكنولوجى كله قائم عليهم، وهو الثورة ما بعد الصناعية.

وبالتالى صار ضروريا أن تتوافر للنخبة البيئة والتسهيلات اللازمة، ابتداء من دار للفنون الرفيعة كالأوبرا، إلى أرقى معامل البحث العلمى، لأن النخبة مع تقدمها وقيامها بدورها تجر وراءها تدريجيا سائر الجماهير.

وإذا كانت هذه نظرة شاملة على وضع النخبة بوجه عام فى العالم، فلابد من الإشارة إلى الوضع الخاص بالنخبة فى دول العالم الثالث.

فى العالم الثالث نجد الأمية هى الغالبة وبالتالى فالاعتماد على وسائل المعرفة السمعية والبصرية أكبر. ونرى أن إمكانيات متابعة النخبة للتقدم العلمى غير متوافرة ابتداء من مجالات البحث العلمى إلى أحدث المطبوعات والأفكار والتيارات. والسلطة السياسية فى أماكن كثيرة لا تعترف بهم لأنهم ليسوا كتلا عددية كبيرة تملك للسلطة السياسية نفعاً أو ضرا.. ولأن هذه النخبة إذا احتاجت إلى أشياء تراها لازمة لها – ابتداء من المعامل المتقدمة وانتهاء بدار أوبرا أو مسرح

تجريبى – يصبح الأمر صعبا، لأنهم يطلبون هذه الأمور التى تبدو أنها لن تخدم سوى عدد قليل إزاء مجتمع أغلبيته الساحقة فى حاجة ماسة إلى الأساسيات.

ولو ذكرنا مشكلة هجرة العقول التى نتحدث عنها دائما فهى ليست إلا وجها من وجوه هذه المشكلة، فكثير من أفراد النخبة يجدون أنهم لن يحققوا ذاتهم وإمكانياتهم إلا فى بلاد غير بلادهم.

وبعض أفراد النخبة معذورون. وبعضهم يبالغ فى ذلك. إذ يتصرف على أن ثقافته وعلمه وكفاءته أمور يجب أن "يكافأ عليها" من مجتمعه. مكافأة مبالغا فيها، ولا يرى الجانب الآخر، وهو أن كونه من النخبة يلقى عليه مسئولية إزاء وطنه أو قوميته. فالنخبة فى العالم الثالث متميزة بالحيرة والتمزق النفسى.. بين البقاء أو الجلاء بين المكافأة أو المسئولية. وبين الاعتراف به أحيانا فى أماكن بعيدة وعدم الاعتراف به فى وطنه.

هذا رغم أن النخبة دورها مطلوب أكثر فى البلاد المتخلفة والنامية ما دام أنه دور ليس فيه استعلاء. وإنه دور لجذب القاعدة الواسعة من الجماهير إلى مستويات أرقى من الحياة والثقافة والاستنارة والعادات والتقاليد.

ولهذا لابد للمجتمعات النامية أن تفهم وتدرك جيدا أن النخبة بمعناها العصرى الجديد هى أحد أهم أسلحتها فى التقدم، وإنها بالتالى لابد أن توفر للنخبة من أبنائها ما تستطيع من إمكانيات فى حدود طاقتها طبعا، حتى ولو كانت دارا للأوبرا.

وكلما تقدمت دولة أدركت أكثر وأكثر قيمة النخبة.

نابليون بونابرت على شهرته العسكرية ترك لفرنسا شيئا أهم وهو مدرسة البوليتكنيك التى تختار أبرز الممتازين من الشباب لقيادة التقدم فى فرنسا فى شتى المجالات.

وأعاد ديجول الكرة، فكان أهم ما تركه لفرنسا معهدا يمكن تسميته "المعهد القومى للإدارة" ولكنه فى الواقع يختار أنبغ الخريجين من كل المجالات ويمتحنهم فى قسوة شديدة، ويفتح أمامهم بالذات سبل الوصول السريعة إلى مراكز الصدارة فى شتى مجالات الحياة فى فرنسا.

كلمات فقدت "سمعتها" في حياة لغتنا الجميلة!
الموضوعية .. العقلانية .. الواقعية ..
لماذا صارت كلمات رديئة؟

اللغة لم تكن أبدا "محايدة". والكلمة الواحدة قد تستخدم فى مجال يحمل كل معانى الجدية. وأحيانا تصبح من كثرة استخدامها فى غير موضعها تحمل لدى الناس كل معانى السخرية، والكلمة فى مجال قد يكون لها وزن الذهب، وقد يكون لها وزن الريشة..

ولعل سخاء اللغة العربية الشديد، هو الذى دفعنا نحن العرب إلى الإنفاق من هذه اللغة بإسراف شديد، فالكلمة الواحدة لها عشرات المترادفات. وإذا القينا كلمة فى أتون الإحداث، واحترقت من فرط تكرارها دون معنى مقصود فاللغة تسعفنا بعشرات المترادفات، فنحن لا نخشى عجزا ما فى هذا النوع من "العملة"....

وإذا كانت الكلمات من "القاموس السياسى" للغة، فهى أكثر عرضة للتلف، ذلك أنها كثيرا ما تكون عرضة للاستخدام الخاطئ المتعمد من رجال السياسة أو الكتابة. أو للاستخدام فى مجرد تخدير الرأى العام. فتفقد أعز الكلمات معناها أو بمعنى أصح تفقد "وقعها" على النفس، وهى القيمة الأساسية للكلمة...

ونأخذ على ذلك أمثلة من كلمات كبيرة مثل "الوحدة" أو "الثورة" أو "الديمقراطية".

كلمات كبيرة جدا لكن بعضها لحقه "الإجهاد" من كثرة الاستعمال اللغوى، وانعدام الاستعمال الفعلى!...

قبل عشرين سنة مثلا كانت كلمة " الوحدة " تحرك أعمق المشاعر لدى الجماهير. ولكن الآن وقد فشلت أكثر من وحدة، وصار كل تقارب يسمى وحدة.

وليس على مستوى الأقطار فقط. ففى داخل القطر الواحد صار حتى تحقيق الوحدة الداخلية أمراً مطلوباً وعزيزا أو صارت الوحدة الوطنية – لا القومية – بعيدة المنال كما فى لبنان وغيرها.

وإذا تركنا الوحدة بمعناها السياسى الدولى. نجد أنه يكاد لا يوجد مشروع اقتصادى واحد، وله طابع التكامل الوحدوى، رأى النور حتى الآن، رغم توقيعات الدول العربية المختلفة عليه.

وفى الخليج مثلا نسمع دائما عن وحدة العملة الخليجية مثلا. وهو أمر يكاد يكون بديهيا. خصوصا من الناحية الاقتصادية المصلحية وليست السياسية فدول الخليج روابطها وثيقة جداً، وأهلها أبناء عمومة بكل المعانى النفسية والتاريخية واقتصادها كلها يقوم على سلعة أساسية واحدة هى البترول. فهذا نوع من الوحدة يتم بقرار لا غير.

لم تعد الكلمة "الوحدة" إذن سخونتها القديمة. صارت لا تحرك شعرة فى رأس مواطن عربى. الكل يتحدث عن الوحدة فلا يوجد فى الظاهر من هو معها ومن هو ضدها. لم تعد تثير نقاشا ولا بحثا ولا عراكا. وضعت فى الثلاجة العميقة، وهذا أحسن الممكن على أى حال، حتى تبقى صالحة للاستعمال ربما بعد وقت طويل، بدلا من أن تفسد نهائيا...

ونفس الشئ لحق كلمة "الثورة". صارت فى لغتنا وصفا يطلق على أول دبابة تصل محطة الإذاعة وتعلن البيان رقم واحد! وصارت فى أفئدة الناس العاديين مرادفة لأى حكم عسكرى!.

وأيضا كلمة ديمقراطية. ألا يوجد لها عشرون تطبيقا على الأقل؟ هل يسمى أى نظام نفسه بغير هذا الوصف؟.. وأنواع الديمقراطية لابد لها أن تتمدد، فلن يصلح للعالم كله ديمقراطية واحدة ولكن إلا تحتاج كل "ديمقراطية" احتراما للكلمة إلى تعريف وثيق لها فى كل مكان، يمكن حساب أهلها عليه؟.

على اننى أريد أن أقف أساسا فى هذا الحديث، عند نوع آخر من الكلمات التى "فقدت سمعتها" بطريقة أخرى. بالطعن فيها والسخرية منها وتشويهها. هذه كلمات فقدت سمعتها بنوع من الإرهاب الفكرى، حتى صارت خافضة جناحها من

الذل أمام صيحات كصيحات الهنود الحمر، الذين إذا لاحت لهم، رشقوها بكل ما؟... لديهم من سهام...

كلمات مثل: "الموضوعية" و "الواقعية" و "العقلانية"... هذه الكلمات مع الأسف فقدت سمعتها تحت وطأة الإرهاب الفكرى الهائل...

إرهاب فكرى ساد فترة من الزمن خلاصته: أن من لا يتبع الرأى "السائد" إعلاميا فهو متخاذل! وان المطلوب من الكتاب هو ترديد الشعارات دون محاولة الذهاب إلى أبعد من ذلك خشية "بلبلة الجماهير". كأن الجماهير فى مرحلة طفولة، ولابد من شغلها عما حولها بالزعيق والصراخ فهى لا تفرح أو لا تصلح إلا لهذه الألعاب النارية الملونة! وبالطبع: من يزيد فى الضجة المتزايدة ومن يطلق فرقعات مدوية ملونة أكثر، هو الذى يفوز بأكبر عدد من المتجمعين فى "مدينة الملاهى" الصاخبة!.

فى هذا الجو، كان لابد أن تداس بالأقدام كلمات مثل "الموضوعية" و"الواقعية" و"العقلانية"...

وفى نفس الوقت لابد أن نسجل أن هذه الكلمات "فقدت سمعتها" بسبب نوع آخر مقابل من الممارسة الرديئة فعلا...

فقد عرف التاريخ العربى الحديث طوال الخمسين عاما الماضية – من قاموا فعلا بأدوار الهزيمة والاستسلام والتقاعس... وأطلقوا على أفعالهم تلك كلمات "الواقعية" و "الموضوعية" و "العقلانية"...

الأمر الذى هو كفيل – وحده – بأن يكفر الرأى العام بهذه الكلمات، أو يضعها فى غير موضعها الصحيح من القاموس، ومعه الحق...

ولكن، هل معنى ذلك أن نسقط هذه الكلمات من قاموسنا، وننزع الصفحات التى نتكلم عنها من كتبنا، ونمحوها محوا من العقل العربى...

مستحيل ...

وهذه معركة يجب أن يخوضها كل ذى مسئولية وكل ذى فكر... حتى لو تعرض لإطلاق النار من الجانبين فى وقت واحد... من جانب الغوغائية والديماجوجية النشيطة، ومن جانب الانهزامية الحقيقية المتخاذلة. وأنا أقصد

الغوغائية والانهزامية ليس فى مجالاتها السياسية فقط كما يتبادر إلى الذهن... ولكن على كافة مستويات الحياة العربية... من تقاليد وعادات وثقافة وتحول اجتماعى وتطور إنمائى وسياسى..

إن الشعب العربى هو الذى نزل القرآن بلغته... والقرآن أكثر كتاب مقدس وغير مقدس تحدث عن العقل والعلم والتفكير والتذكير... فمن المستحيل أن تكون هذه اللغة بالذات هى اللغة التى تفقد فيها هذه الكلمات سمعتها....

الغرب يتباهى علينا ويعلمنا أنه أقام نهضته على أساس "سيادة العقل"... ويذكر لنا ديكارت وقبل ديكارت...

وكتابنا السابق على هذا كله بقرون، هو أول من أقام للعقل سلطانا عظيما..

وهو أول دين تجئ معجزته فى شئ واحد فقط هى: كتاب!.

وأول كلمة فى وحيه كانت: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

وأكثر ما يخاطب فى سطوره وآياته، يخاطب العقل.. ويفرق بين ذوى العقول وسواهم...

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾.

﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾.

﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾.

﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾.

وما معنى العقلانية والموضوعية والواقعية وغيرها من المصطلحات الحديثة، إلا: استخدام العقل؟.

إذا نزعنا عن هذه الكلمات أرديتها السيئة التى أساءت إلى سمعتها، وبحثنا فى معانيها التى صكت من أجلها، فماذا نجد؟.

أليست "الموضوعية" مثلا... هى البدء فى كل أمر بدراسة "الموضوع"؟... والموضوع بالنسبة للعالم حقيقة طبيعية مثلا. وبالنسبة للقائد العسكرى الخريطة الدقيقة لساحة المعركة بهضابها ووهادها، وتقدير قوته، وقوة العدو قبل الصدام؟ وبالنسبة للسياسى دراسة علاقات القوى السياسية فى موقف ما، وحشد الطاقات المتوفرة لمواجهة هذا الموقف، ورسم خطة للتحرك.. إلى آخره...

وما معنى الواقعية إلا انه يجب أن تكون دراستنا "للموضوع" دراسة واقعية، مستندة إلى الواقع لا إلى التمنى، لأننا – ككل الناس – مرغمون على التعامل مع واقعهم وليس مع تمنياتهم.

والرضوخ للواقع أمر... وتغييره أمر آخر.. وفى هذا يختلف فكر الناس، ومدى همتهم، وجدوى حساباتهم...

وأعظم الذين غيروا وجه التاريخ، كانوا أعظم الواقعيين. لأن اختراق طرق التغيير يقتضى معرفة الطريق الممهد. من الطريق الوعر، ومن الطريق المسدود تماما!.

وقد يبدو تصدى هؤلاء لمهمة التغيير فى البدء مستحيلة. ولكن المستحيل وقع. ذلك أنه لم يكن مستحيلا، إنما العظماء الذين يغيرون الواقع يرون من خبايا هذا الواقع وفى ثناياه ما لا نراه، وبالتالى فهو ممكن. وعلى هذا الأساس ينهضون للعمل. ويقع المستحيل، الذى لم يكن مستحيلا. لأن المستحيل حقا لا يقع...

إن اللغة تترك أثرها فى ضمائر الناس، وتشكل أحيانا طريقة تفكيرهم...

وقد ذهب كاتب عربى كبير – عبد الله القصيمى – إلى حد إصدار كتاب عنوانه "العرب ظاهرة صوتية!" لا أوافقه عليه.. ولكن الصحيح فيه ربما قول بعض المستشرقين أن العربى إذا "قال" شيئا، تتحقق له راحة من "فعل" الشئ. وذلك موضوع لصيق بحديثنا، لكنه يحتاج تأملا آخر...

إنما القضية المطلوبة هنا فقط أن نعيد للعقل مكانته فى حياتنا العربية. ولا يمكن أن نعيد للعقل مكانته فى نفوسنا، إذا بقينا نسخر من الكلمات الداعية إلى استعمال هذا العقل...

اللغة العربية

سياسة وحضارة واستراتيجية معا

*هذا الموضوع يلح على خاطرى كثيراً.

ولعلى كتبت عنه قبل ذلك، ولكن أحداثاً كثيرة متنوعة تسوقه دائماً إلى ذهنى.

ذلك أنه موضوع تعليمى، ثقافى، سياسى، حضارى، فكثير من الأحداث أو الأنباء التى تقع، على اختلافها وعلى تباعدها الشديد، فى موضوعاتها وفى مظاهرها، تزيد هذه القضية – التى اعتبرتها استراتيجية – فى ذهنى اشتعالاً..

ولا أملك إلا أن أسأل نفسى: هل مازال العالم العربى، بتمزقاته، وصراعاته، وانشغاله بتوافه يومه، قادراً على أن يخصص من عقله وماله ورجاله، جزءًا يعمل للقضايا ذات الحجم الاستراتيجى الضخم؟ أو أن ما سيقوله أى كاتب فى مثل هذه الأمور يعتبر "ترفاً" لا نقوى – ونحن مشغولون بما نحن فيه – على التفكير والتدبير والعمل؟ بل مجرد إدراك أهميته؟

إن الموضوع عنوانه "اللغة العربية" ولكن ليس جوهره هنا النحو والصرف والإعراب. ولكن جوهره "اللغة" كسلاح، أو كعنصر استراتيجى، يحيى الأمم ويميتها، ويقيم الحضارات ويهدمها، ويشكل الجغرافيا البشرية والسياسة للعالم..

مثلاً...

تتفاقم قصة الصراع فى القرن الأفريقى.. فيخطر على بالى، من بين عواملها الكثيرة، قضية اللغة العربية!.

أو.. يصدر فى دولة باكستان قانون يجعل دراسة اللغة العربية إلزامية كلغة ثانية فى كل المدارس فأتذكر القضية..

أو تبدأ الصراعات الدولية فى الوصول إلى الحزام الأفريقى، فى منطقة "التداخل والتماس" بين العالم العربى والعالم الزنجى.. مثل تشاد وغيرها، فأتذكر القضية...

أو.. أتابع تطورات حل مشكلة جنوبى السودان..

أو.. أتلقى دراسة مفصلة من لندن، عن فرقة "إنجليزية" تخصصت فى ترجمة المسرحيات العربية الحديثة – لكتاب مثل الفريد فرج – وتقديمها للجمهور الإنجليزى.. مشفوعة باقتراح خلاصته "إذا كان العرب يشترون العمارات والفنادق والشركات فى إنجلترا وغيرها.. فلماذا لا يشترون مسرحاً فى لندن؟" تقدم عليه هذه المسرحيات على نطاق أوسع، وتعرض عليه الفرق العربية لمليون عربى تقريباً فى لندن وما حولها؟.. وتفاصيل تبدو أول الأمر طريفة ولكن تأملها يكشف عن جديتها وأهميتها!.

أو.. أتلقى التقرير السنوى للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو العربية) ومحاولتها وضع استراتيجية للثقافة العربية. وما لديها ملاليم.. إذا قيس إلى "ما يمكن" أن يكون لديها من ملايين لو تأملنا الأمر من زاوية أخرى.

***

هكذا، من صراع عالمي معقد رهيب فى القرن الأفريقى.. إلى فكرة فردية خلاقة عن مسرح عربى فى لندن.. حيثما أتجه أو أتابع، أجد هذه القضية تفرض وجودها، قضية اللغة، مرة أخرى ليس لمجرد أنها لغة نعتز بها.. بل بوصف أن اللغة لها تلك الآثار الحياتية فى تشكيل العالم، التى أسلفت ذكر بعضها.

إننا نعرف أن القوميات لها مقومات عديدة. من وحدة التراث، ووحدة التكوين النفسى، والتلاحم الجغرافى، إلى آخره. ولكن لعل أستاذنا المرحوم ساطع الحصرى كان أهم من أبرز أن عنصر وحدة اللغة يلعب الدور الأكبر بين هذه العناصر كلها فى توحيد أمة ما.

ذلك أن اللغة الواحدة هى – من ناحية – عنصر أساسى فى حد ذاته، وهذا الأمر لا يحتاج إلى تدليل. ولكنها – من ناحية أخرى – هى المفتاح الأكبر لسائر العناصر. فوحدة التراث والتاريخ مثلا تكون بالتأكيد أقوى وأمنع وأقدر على مقارعة القرون إذا كانت محفوظة فى وعاء لغة واحدة.

والتكوين النفسى الواحد ماذا يصنعه؟ ربما جغرافية واحدة، وبيئة واحدة. وربما أصول تاريخية واحدة، وعقائد واحدة، أو متشابهة، ولكن المؤكد أن عنصر

الأدب الواحد والفن الواحد – فى أصوله – وأدوات التعبير الواحدة تلعب الدور الأساسى، وهى لا تتوافر إلا بلغة واحدة.

.. ونحن هنا لا نتحدث عن اللغة فيما يتعلق بالقومية العربية فلا توجد هنا مشكلة تقريباً. والإحساس بها بديهى. فما كانت الجزائر مثلا لتعود عربية حقاً إلا ببرنامج التعريب الجبار فيها، حتى تجتث جذور مائة وخمسين سنة من محاولات الفرنسة، وطمس اللغة العربية.

ولكننا نتحدث فى أوسع من الحدود القومية.

وهنا نجد أن اللغة الواحدة، لا تصنع بالضرورة قومية واحدة.

فإنجلترا مثلا والولايات المتحدة واستراليا ونيوزيلندا وغيرها لغتها هى الإنجليزية. ولكنها ليست قومية واحدة رغم أنها تكاد تكون من أصل عرقى واحد. ومع ذلك، وهذه هى قضيتنا هنا، لا شك أن وحدة اللغة أوجدت "علاقة خاصة" و "روابط خاصة" بين هذه البلاد على تباعدها الجغرافى الهائل...

ولم أذكر كندا لأنها نموذج أكثر دلالة. فلأن كندا فيها لغتان – إنجليزية وفرنسية – واحتفظت بازدواجية اللغة. ورغم أن كل ظروف العقل والمنطق والمصلحة تقتضى أن يظل كندا بلداً واحداً. فإننا نجد الآن، وفى أواخر القرن العشرين، حركة انفصالية عنيفة، من مقاطعة "كويبك" ضد سائر كندا، لأنها المقاطعة الفرنسية اللغة.

مرة أخرى لأن اللغة ليست مجرد وسيلة تخاطب. اللغة هى وعاء الفكر ووعاء العاطفة معاً. فالفرد الكندى فى كويبك لا يتحدث بالفرنسية فقط إنه "يفكر" بالفرنسية و "يشعر" بالفرنسية. حتى صارت روابط كويبك الثقافية والتعليمية مع فرنسا، عبر المحيط الأطلنطى، أقوى من روابطها مع عاصمة دولتها "أوتاوا".

والأمة العربية تتميز بوضع خاص وفذ.

ذلك أن القرآن – الكتاب المقدس لأغلبيتها الساحقة – نزل باللغة العربية. وقد امتد الإسلام إلى أمم وشعوب وقوميات أخرى، صحيح أنها لا تتكلم اللغة العربية. ولكن الإسلام حمل إليها بالتأكيد روائح اللغة العربية. ولقحها بها. وجعل لهذه اللغة حتى عند غير أهلها "مكانة" خاصة وأحياناً "قداسة" خاصة. لأنها لغة كتابهم المقدس.

ونحن نرى.. إلى أى حد حاربت دول لتفرض لغتها بالقوة وأنفقت المال لتفرض لغتها بالإغراء وجاهدت القرون لقلب اللسان المحلى إلى لسان أوروبي. ولم يكن هذا حماقة ولا عبثاً، فانتشار اللغة من أقوى أسلحة انتشار النفوذ المعنوى، والمشاركة الوجدانية، والتأثر العقلى..

وحين استقلت أفريقيا مثلا، صرنا نرى ما يسمى بكتلة أفريقيا الفرنسية، وكتلة أفريقيا الإنجليزية. ليس على أى أساس سوى نوع المستعمر الذى فرض لغته على البلاد التى كان يحتلها. وآثار هذا النفوذ موجودة إلى الآن فى التجارة والسياحة والتعليم والنظرة إلى الغد إلى آخره.

وما هو الشئ الذى يجعل جريدة إنجليزية، أو وسيلة إعلام غربية كما نقول، لها هذا النفوذ الهائل؟ إنه انتشار لغتها، ووجود من يقرأ بها، فى أى عاصمة من عواصم العالم بأجمعه.

***

والأمة العربية – ليست ككيان سياسى فقط، بل ككيان حضارى أيضاً – لديها فرصة نادرة، لأن تكون لغتها سلاحاً من أمضى أسلحتها فى كل معاركها، ووسيلة خلاقة للمساهمة فى صراع الحضارات العالمية الراهن.. أو "الحوار بين الحضارات" إذا شئنا أن نختار التعبير المهذب للمفكر الفرنسى روجيه جارودى.

ولا أريد أن أدخل فى بحث لغوى تاريخى معقد عن العائلة التى تنتسب إليها اللغة العربية. ولا عن تأثيرها وتأثرها. فليس هذا ميدانى. وهو أمر له أصحابه وأهل العلم فيه، ولكن يمكن القول ببساطة ودون الوقوع فى خطأ، إن الشعوب الإسلامية، المتأثرة بالتالى باللغة العربية، تنقسم إلى قسمين.

* شعوب لها قوميات قديمة، ولغة حضارة حية، يتكلم بها عدد كاف من الناس. مثل إيران.
* وشعوب لها لغات مشتتة، أحيانا غير مكتوبة أو مستوعبة للغة الحضارة كشأن الكثير من مناطق آسيا وأفريقيا المبعثرة. التى كانت إلى وقت قريب قبائل وليست دولاً ولا شعوباً بالمعنى الكامل.

ولنتأمل، على سبيل المثال الحرب القائمة فى القرن الأفريقـى، والتـى وصـل المشتركون فيها من روسيا شرقاً إلى كوبا غرباً، أو المال الأمريكى والسلاح الأمريكى من قبل ومن بعد. وفى منطقة حساسة جداً بالنسبة لما نسميه "العالم العربى"..

لقد احتلت إيطاليا الصومال وإثيوبيا وإريتريا معنا زمناً طويلا، انتهى بانتهاء الحرب العالمية الثانية..

وفى الصومال استقرت اللغة الإيطالية، وأريد لها أن تمحو اللغـة العربيـة تماماً، كما حاولت فرنسا فى الجزائر، إدراكاً من تلك الدول الأوروبيـة أن إقامـة حاجز اللغة هو إقامة الساتر الحديدى الطبيعى النهائى بين شعب وجيرانه. وصـار من قبل ذلك الصومال صومالاً إيطالياً وصـومالاً فرنسـياً وصـومالاً إنجليزيـاً وصومالاً إثيوبياً هو مقاطعة أو جادين.

وبعد الحرب العالمية الثانية أضيف لإثيوبيا – فوق الأوجـادين – إريتريـا وعادت فرنسا إلى الصومال الفرنسى "جيبوتى" ووضـع الصـومال الرئيسـى – الإيطالى – تحت وصاية الأمم المتحدة لفترة يعقبها الاستقلال..

ومثلت الأمم المتحدة بلجنة ثلاثية: مصرى وإيطالى وإنجليزى.

وأهم معركة قامت خلال وصاية الأمم المتحدة كانت حول اللغة فتقرير نوع اللغة التى سيتحدث ويتعلم بها الشعب هو من تقرير هويتـه واتجاهـه الحضـارة وتكوينه النفسى.

وكان هم الغرب أن يختار الصوماليين اللغة الإيطالية، فهى لغة أوروبية على أى حال. وبصماتها بعد الاحتلال كانت قوية. وكل شـباب الصـومال كـانوا لا يتعلمون إلا فى جامعات إيطاليا. ولكن الرغبة الشعبية العارمة كانت فـى اختيـار اللغة العربية ولأن مندوب مصر فى لجنة الوصاية الدولية كشف كل المنـاورات، قتل اغتيالاً، ومات السفير كمال الدين صلاح شهيداً لهذه القضية، وأقام الشعب لـه تمثالاً فى عاصمة الصومال..

وكانت مطاردة اللغة العربية هدفاً أهم. فأوجد الغرب من يدعون إلى اللغـة السواحلية، تحت ستار إثارة نعرة إقليمية. ورغم أن الاستفتاء دل علـى تفضـيل الشعب للغة العربية، فقد آثر الغرب تقرير اللغة السواحلية، أملاً فى انقراض اللغة العربية هناك ذات يوم.

وحين دخلت الصومال، جامعة الدول العربية، كان يجب أن يطلب منها الارتباط ببرنامج تعريب. لأنها جامعة دول "عربية".

ولأن إثيوبيا لم تنتبه إلى أهمية القضية كأوروبا، فقد عاشت اللغة العربية – مع السواحلية – فى الأوجادين خمسين سنة، والصورة نفسها مع اختلاف فى طول الفترة، فى إريتريا.

ومن اتصل بهذه الحركات، وقابل زعاماتها، وشبابها المثقف، يعرف أن اللغة العربية كانت بالنسبة لهم أحد أقوى الروابط والوشائج وحوافز الأمل فى التحرر واسترداد شخصيتهم.

وإننى لأسمح لنفسى أن أروى، أننى منذ سنوات، وقبل قيام هذه الصراعات بأشكالها الحالية، حين كان السودان على وشك الانقسام فى الحرب فى الجنوب.. فى تلك السنوات، قلت لبعض زعماء وحكام الدول العربية، الذين لديهم الإمكانيات الهائلة: إن هناك خدمة بسيطة جداً، ولكن أثرها الاستراتيجى بالنسبة للأمة العربية.. والأمن العربى.. لا يقدر بثمن، وهو الاتفاق والنضال، من أجل نشر اللغة العربية، على طول الحزام الإسلامى فى أفريقيا.. وحيث لا توجد لغات محلية متكاملة.

السنغال.. مالى... وسط أفريقيا.. تشاد.. غينيا.. شمالى غانا.. ونيجيريا.. جنوبى السودان.. الصومال بفروعه المبعثرة.

هذا الحزام، كان من حظى أن أذهب إلى بعض مناطقه، فى أول أيام استقلال تلك المناطق، وانهدم الحاجز الذى كان يمنعنا منعاً من الذهاب إليه.. ورأيت لهفة الناس إلى اللغة العربية.. لغة كتابهم المقدس.. لغة عباداتهم وصلواتهم.. وأحيانا لغة جيرانهم الأقدمين وشركائهم فى التجارة عبر طرق القوافل التى شقها العرب قديماً.

هذه اللغة أقرب إليهم. وأسهل لهم. ولم تفرض يوماً بالقوة عليهم إنها ليست الإنجليزية ولا الفرنسية ولا الإيطالية ولا الألمانية مما تعاقب عليهم.

وقد حاولت بعض الدول العربية محاولات محدودة فى هذا المجال ولكن وجه الخطأ كان فى أنها ركزت على تدريس اللغة فقط أو تدريس الدين فقط.

ولكن من زار هذه البلاد – ميدانياً – يجد أن هذه الشعوب على درجة من التخلف تجعل الناس بها محتاجين أشد الحاجة إلى ما يغير حياتهم. ومن هذه الزاوية دخلت إسرائيل فى تلك الأيام بسهولة ويسر كانت تعلم الناس حرفاً يدوية تلائم البيئة.

أو طرقاً حديثة مبسطة لزراعة الأرض البالغة الخصوبة فيتغير مستوى الفرد ودخله ووضعه بينما من تعلم اللغة فقط وترك كما هو فى الغابة لم يستفد شيئاً.

ثم إنها على أية حال، كانت مجهودات قليلة وتجريبية تقريباً.

ومن هنا – فيما أذكر – نشأت فكرة تطوير الأزهر فى مصر ليخرج منه رجل الدين واللغة والعلم معاً: الطب مثلا ليعالج أو الهندسة الزراعية ليعلم، إلى جانب تلبية حاجات الناس الروحية المعنوية والمتعطشين إليها تعطشاً شديداً ولكن الأمر فى تطوير الأزهر خرج عن فكرته الأولى، وتحول إلى جامعة أخرى بين الجامعات العديدة.

ولكن الآن وقد توافر للعرب المال الهائل وقد افتتحت أفريقيا وآسيا أمامهم وأقبلت عليهم. فلم يعد لنا عذر فى هذا المجال.

وإن المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة تبحث حقا فى هذا وتتلمس وضح استراتيجية لها. ولكن بملاليم؟.

إن نصف الملايين التى تنفق فى شراء السلع حتى الأسلحة القديمة، لا تحقق الفوائد الاستراتيجية التى يحققها استخدام سلاح اللغة العربية فى آسيا وأفريقيا إلى أقصى مداه..

لا يكفى أن نستصدر قرارات من الأمم المتحدة ومنظماتها باعتماد اللغة العربية لغة رسمية من اللغات العالمية.

المهم أن نجعل هذا واقعاً أقوى، وأقوى، كل يوم.

من بنجلاديش شرقاً.. إلى الشاطئ الإفريقى غرباً.. أرض وشعوب أخصب ما تكون لتلقى اللغة العربية وتحويلها إلى لغة أصلية لها مع الزمن.

وهذا نضال وكفاح لا يقل شرفاً عن أى نضال آخر.. فى صراع الحضارات الراهن والمستقبل أو – مرة أخرى – فى حوار الحضارات كما يجب أن يقول روجيه جارودى.

وهذا كله وجه واحد من وجوه سلاح اللغة. هو واجب، وهو مسئولية أيضاً وهو عمل حضارى فوق كل شئ وللأمر وجوه أخرى كثيرة.

لغة الكلام ولغة العمل
ولماذا لا يهتم العرب إلا بالعلاقات السياسية
بين الحكام فقط؟

كلنا سمعنا عن مشروع شق قناة تحت بحر المانش، لتربط الجزر البريطانية لأول مرة بالقارة الأوروبية. وهو مشروع كفيل بإحداث انقلاب هائل في حياة الاثنين. وكلنا سمعنا عن مشروع إنتاج طائرة الكونكورد، أول طائرة نقل مدني أسرع من الصوت، وقد تم إنتاجها بمساهمة من المال والخبرة الفرنسية والإنجليزية معاً. وقد تم هذا عندما كان ديجول يحكم فرنسا، ويخالف إنجلترا، ويعارض دخولها السوق الأوروبية المشتركة. وكلنا نعرف أن نهر الدانوب في أوروبا يمر بحوالي ست دول أوروبية، وأن كل المشروعات الخاصة به كطريق للملاحة تتم بالاتفاق بينها، ولم نسمع مرة عن خلاف في هذا الشأن، رغم أنه يمر بدول شيوعية ودول رأسمالية ودول محايدة كالنمسا.

وهذه الأيام، أعلن عن مشروع جديد هام، سوف يبدأ تنفيذه هذه السنة، لشق قناة بحرية تربط أنهار فرنسا المفتوحة على البحر الأبيض بنهر الراين – ألمانيا وبلجيكا وهولندا – المفتوح على بحر الشمال، وبذلك يخلق طريق ملاحي جديد من البحر الأبيض إلى بحر الشمال مباشرة دون الالتفاف حول أسبانيا من جبل طارق..

أكثر من ذلك أننا نرى مشروعات ضخمة جديدة، مثل مد أنابيب تنقل الغاز بين دول بينها توترات مثل إيران وروسيا، ومشروع آخر لخط أنابيب ينقل البترول الروسي إلى غرب أوروبا، رغم أن كلا منهما في معسكر..

لماذا أسوق هذه الأمثلة التي يوجد الكثير غيرها؟ وما هي العبرة المطلوبة من هذا السرد؟..

.. أريد أن أقول أن هذه الدول التي سبقتنا في مضمار النضوج السياسي والاقتصادي والفكري، أدركت أن الخلافات السياسية لا يجوز أن تحول دون وجود

مصالح مشتركة، إذا كانت تعود اقتصاديا بالنفع على شعوبها. فالحكام يروحون ويجيئون. والسياسات تتغير وتتبدل. ولكن مصالح الشعوب باقية ومستمرة وهي الأساس في كل سياسة. ومشروعات التعمير الكبرى التي تغير الجغرافيا نفسها أحياناً هي التي غيرت وجه الحياة على مر الزمن.

.. فإذا جئنا إلى بلادنا العربية، لا نجد شيئاً من هذا.. وإنما نجد منطقاً عكسياً تماماً.

والبلاد العربية تقول أنها تمثل أمة واحدة. وأن طريقها الطويل إلى الوحدة هو سبيلها الوحيد إلى التقدم. وأن التكامل العربي في كل المجالات الممكنة هو الذي يضاعف ثروة العرب وقوتهم وتأثيرهم على العالم.

ومع ذلك فالحكام والحكومات يسلكون مسلكاً آخر تماماً.

فإذا اختلف حاكم مع آخر، أو حكومة مع أخرى على قضية سياسية ما، سرعان ما ينعكس هذا فوراً على القليل النادر من هذا النوع من الروابط العضوية. إما أن تغلق الحدود. وإما أن تقفل المكاتب التجارية أو المعارض الصناعية لدى الدولتين المختلفتين. وإما أن توضع القيود على حركة المواطنين. وإما أن يوقف تنفيذ الاتفاقات التجارية.

وتعود الأوصال القليلة إلى التقطع. وتعود الدورة الدموية – فيما نزعم أنه جسد واحد – إلى التوقف. ولا تشعر المشروعات المشتركة بالأمان. وقد تطمئن دولة عربية في تخطيطها إلى دول غير عربية أكثر من اطمئنانها إلى دول عربية، لأن الأولى غير معرضة للهزات بينما الثانية معرضة دائماً للهزات، وأحياناً للأمزجة.

.. ودعك بعد ذلك من أن الجانب الإيجابي، وهو المشروعات المشتركة وخطط التكامل، كلها مشروعات على الورق، أو عناوين في الصحف، تمر السنين دون أن ترى النور في قليل أو كثير.

إن أجهزة التخطيط في إسرائيل، قامت بعد حرب ١٩٦٧ بإعداد كتاب شهير عن المنطقة سنة ٢٠٠٠ على أساس أن إسرائيل صارت مفتوحة تماماً على العالم العربي. ونترك جانباً هذا الجانب السياسي. ولكن المهم أنهم حين طرحوا على أنفسهم هذا السؤال نظروا للمنطقة نظرة واحدة شاملة، ودرسوا أين يكون المال وأين توجد الثروة الطبيعية، وأين توجد الثروة البشرية وأين توجد الأسواق.. الخ.

وتصوروا منطقة تتخصص أقطارها فيما يناسبها وفيما يتكامل مع غيرها.

وقد ردت مؤسسة الدراسات الفلسطينية بوضع كتاب مقابل تعرض لنفس الموضوع عن دور إسرائيل. ولكن المرء يشك في أن المسئولين العرب قد اطلعوا مجرد إطلاع على هذه الدراسة.. دعك من محاولة الدعوة لها والعمل من أجلها.

ونحن نقول أن بلادنا العربية فيها كل شيء. الخامات. المعادن. المياه. الأراضي الصالحة للزراعة. المناطق الصالحة للسياحة. الأيدي العاملة والسوق المستهلكة. الشواطيء التي تطل على عدة بحار ومحيطات. ولكن ما قيمة هذا كله إذا كان مبعثراً؟..

إن أحد أسرار قوة أمريكا من جهة وروسيا من جهة أخرى، أن كل دولة منهما تتميز بوجود كل هذه المقومات جميعاً داخل حدودها. بعكس الدول القوية التي هبطت للدرجة الثانية، إذا كان لديها شيء وليس لديها أشياء.. فإنجلترا لديها الفحم والصناعة، ولكن ليس لديها الزراعة. واليابان لديها الخبرة واليد العاملة ولكن ليس لديها لا فحم ولا حديد ولا بترول. وألمانيا فيها الحديد ولكن ليس فيها بترول أو مواد أخرى كثيرة.. وهكذا..

وهذا الشرط غير متوفر الآن بعد روسيا وأمريكا إلا في العالم العربي. وهو حقاً ليس دولة واحدة، ولكن ها هي دول أكثر تباعداً كدول أوروبا تعوض نقصها بالتكامل رغم الخلافات وتغير الحكومات واختلاف النظم.

والعرب لا يتحركون في هذا الاتجاه.

موضوع قديم؟.. ولكنه إلى أن يبدأ في التحقيق فهو جديد!

والأمر يحتاج فوق الإمكانيات إلى خيال. خيال مبني على العلم والتنبؤ الصحيح والتجرد من الهوى.. والارتفاع عن الإقليمية..

ويحتاج قبل ذلك إلى أن نعرف أن هذا حق الشعوب. وحق المستقبل العربي في عالم يتحرك بسرعة مذهلة.

ويحتاج على الأقل إلى أن لا تكون هذه الأمور صريعة الخلافات السياسية.. وأحياناً تغير الأمزجة.. والوسيلة ؟

أن يوجد رأي عام عربي قوي يضغط في هذا الاتجاه، ويرفض كل تصرف سواه!

نحو نظرية أمن عربية شاملة
جبهات الهجوم علينا تتزايد..
ونحن لا نتحرك بالسرعة الكافية

لست أحب أن يظن القارئ العزيز، أننى أنظر إلى المستقبل العربى نظرة قاتمة، وأننى لذلك أحب أن أطلع عليه أول كل شهر بحديث ملؤه التحذير والنذر.

كلا. أننى على العكس متفائل بالمستقبل العربى. متفائل باليقظة الشاملة فى الضمير العربى العام. متفائل بالتطلعات العربية حتى وإن كانت متعجلة. متفائل بالإمكانيات المتاحة للأمة العربية مادياً وبشرياً، مهما شابها من فوضى أو سوء استعمال أو إهدار.

وإذا كنت أميل إلى جانب التحذير، فإنه لهذا السبب ذاته. فلو كانت الأمة العربية كمية مهملة، أو كانت أرضها عاقر، أو عقلها غافل.. أو خالياً من التطلعات.. إذن لما اهتم بها فى العالم أحد، ولما تربص بها عدو، ولا أحاطت بها أطماع.

ولكن بقدر إمكانيات الأمة العربية الواسعة، وبقدر طموحاتها المشروعة، وبقدر ما لها من سابق تاريخ يثبت قدرتها على النمو والقوة والإبداع، بقدر ما علينا أن نتصور المخاوف التى تثيرها هذه الأمور لدى الآخرين. وما يمكن أن ترتبه هذه المخاوف والتوقعات لديهم من سياسات..

من أجل ذلك فإننى لست أحب أن ينام المواطن العربى على حرير من الرضا عن النفس، والاطمئنان إلى المستقبل.

إننا ما زلنا نعيش فى عالم لا تسوده السلوكية الأخلاقية، ولا قواعد القانون الدولى. ولا مبادئ العدالة الإنسانية. نحن نعيش فى عالم سيظل زمناً طويلاً تحكمه شريعة الغاب، والظفر والناب.

وإذا كانت بعض العلاقات الدولية تبدو أكثر "تشذيبا" مما مضى، فهذا مظهر فقط. وتغير فى الأساليب لا غير. الأساليب غير المباشرة اليوم أخطر مائة مرة من الأساليب المباشرة. المواجهات المباشرة كانت على الأقل ظاهرة للعيان، أما اليوم فأسلحة الفتك بدولة ما أو بمجتمع ما، ليست فقط محصورة فى الأسلحة والجيوش، ولكن لها أسلحة أخرى ما خفى منها هو الأعظم. ابتداء من إفساد الذمم والضمائر على مستويات عالمية. إلى تأليب عناصر الفتنة والتخريب بأيد مجهولة خفية. إلى الإيقاع بين الإخوة والجيران. إلى إثارة الحروب المحلية التى يستفيد منها طرف ثالث بعيد. دون أن تتلوث يداه.

ورجوعاً إلى ما سبق أن قلته فى هذه الصفحات، وأكرره، من أن ثمة حرباً صليبية شاملة – بالمعنى الحديث – تشن حالياً على العالم العربى، فإنه لابد إلى التنبيه إلى بعض مظاهر ما نتعرض له بالفعل وما يمكن أن يكون مقدمة لأشياء أكبر وأخطر، فى المستقبل القريب...

خصوصاً وانه لابد أن يسجل المرء، مع الأسف، أن كثيرا من دولنا ومجتمعاتنا والتيارات الفكرية لدينا، تقع فى بعض هذه الشراك المنصوبة، دون أن تراها...

إن العالم الأجنبى، خصوصاً قواه المؤثرة والفاعلة عسكرياً واقتصادياً وسياسياً، يهمه بوجه عام أن ينشغل العالم العربى بنفسه بصراعاته وخلافاته ومشاكله بشتى أنواعها، وان يمزق نفسه بنفسه. بحيث تتعطل فاعليته تماماً، على الأقل لمدة تتراوح فى حساباتهم بين العشر سنوات والعشرين سنة المقبلة، حسب تقديراتهم للفترة اللازمة إما لاستنفاذ النفط، وإما لإنهاء دوره الإستراتيجى كسلاح فعال بظهور المصادر البديلة للطاقة، ولإجهاد الأمة العربية خلال هذه الفترة بوجه عام. بحيث تكون فترة إرهاق واستنزاف وتمزق وضياع، ولا تكون فترة بناء وتعمير وتنوير ووضع أسس القوة العربية الذاتية لقرون عديدة مقبولة.

والزوايا التى يمكن معالجتها كثيرة.

ولكن لننظر مثلاً إلى الحدود العربية، أو الجبهات التى على الحدود العربية. فقبل ظهور قوة البترول وتعاظمها. وقبل ظهور إمكانية التضامن العربى عسكرياً كما حدث فى حرب أكتوبر. وقبل التزام العرب بمساعدة بعضهم البعض بالمال والمواد الاستراتيجية والسلاح...

قبل هذا كله، وطوال ربع قرن، كانت "الجبهة" الوحيدة التى تشغل بال "الأمن العربى" – فضلاً عن الحق المسلوب – هى جبهة إسرائيل...

الآن ماذا نرى؟....

جبهة إسرائيل اتسعت، واستشرت، وتفاقم خطرها...

.. "ثم هناك جبهة الخليج"... وقد بدأت السفن الحربية الأجنبية تسبح فيها من حين لآخر، ولا يمر يوم دون مئات المقالات فى صحف العالم عن المخاطر المحتملة فيها..

.. ثم جبهة "باب المندب" والبحر الأحمر بوجه عام، فالدول الكبرى تسعى إلى إقامة قواعد عسكرية على مقربة من مدخل البحر الأحمر الجنوبى.. وإسرائيل ذاتها تجرب بعض قطعها البحرية، وتحصل على طائرات تصل إلى هناك.. وصار على من يفكر فى الأمن العربى أن يكرس اهتماماً كبيراً بأمن البحر الأحمر...

... "ثم جبهة إفريقيا"... فى المشاكل التى تتعرض لها حدود السودان، المطلة على تسع دول افريقية، ومحاولات تقسيمه وتمزيقه..

فالجبهات المعرضة زادت. وتعددت. والتحرشات توالت. أو فى القليل إرهاصات هنا وهناك تشير بأن مداخل العالم العربى ومفاتيحه الجغرافية، صارت محل اهتمام واضعى الاستراتيجيات الأجنبية، الأمر الذى يفرض على واضعى الاستراتيجيات العربية أن يضعوا هذه الأمور الأضخم، والأوسع، فى حساباتهم الجديدة، بما يلقيه هذا عليهم من أعباء بشرية ومالية ضخمة.

وحين نتأمل هذه الجبهات التى انفتحت علينا، وقد ينفتح غيرها غداً، نجد أن الأمة العربية باتت فى أشد الحاجة إلى نظرية أمن جديدة، وإلى استراتيجية موحدة شاملة للأمن القومى العربى كله.

وحين أقول نظرية أمن عربية جديدة، أو "استراتيجية أمن قومى" شاملة.. فلا يجب أن ينصرف الذهن إلى المعنى العسكرى وحده.

إن العنصر العسكرى هو جزء واحد فقط من أجزاء كثيرة تتكون منها "الاستراتيجية". فإستراتيجية الأمن تشمل سياسة الدفاع العسكرى، وسياسة الاقتصاد، وسياسة التعمير، وسياسات أخرى كثيرة...

الاستراتيجية مثلا تفترض وجود حد أدنى من التنسيق السياسى إزاء العالم.

والاستراتيجية تفترض دراسة "مخارج" البترول العربى، وغيره من الثروات الهامة جداً التى يطغى عليها البترول حالياً كالفوسفات والكبريت، بحيث تتنوع هذه "المخارج" وتتوفر لها البدائل، بما يحتاجه ذلك من مشروعات..

والاستراتيجية تفترض رسم سياسات لملء الفراغات الجغرافية الحدودية للعالم العربى.. بتعميرها وإسكان الناس فيها..

والاستراتيجية تفترض ربط أجزاء العالم العربى بشتى أنواع المواصلات، ليس بالطائرات وحدها، ولكن بالطرق البرية والسكك الحديدية، حتى تترابط شرايين الوطن العربى ترابطاً ينعكس على صحته فى حالات السلم والخطر على السواء.

وهكذا...

هذا يجرنا إلى زاوية أخرى من زاويا الهجمة الشاملة المتنوعة المصادر والأغراض، على الأمة العربية...

تلك هى الهجمة، أو الهجمات،من الداخل...

اننى من أشد الرافضين لفكرة إلقاء اللوم دائماً على الغير، وبالتالي إعفاء أنفسنا من المسئولية...

ولكن هذا لا يجب أن يقودنا إلى سذاجة تجعلنا ننكر أن ثمة أيد أجنبية كثيرة تتحرك بشتى الوسائل المعقدة، لإحداث أنواع من الصراعات الداخلية في بلادنا...

... وإلا، فكيف تقبل عقولنا أن نجد فى هذه الظروف بالذات جيوشاً عربية تواجه جيوشاً عربية.. على حدود بين أقطار شقيقة.. فى أكثر من مكان من الوطن العربى.

... وكيف تقبل عقولنا توالى الفتن، بأشكال شتى، من حروب أهلية إلى درجات اقل، فى سلسلة من الأقطار العربية فى هذه الظروف نفسها؟

... وكيف تستريح ضمائرنا، ونحن نرى ما نرى، أى أن ما هو أشد هولاً قد يكون كامناً فى طريقنا، وان لم يتبين لنا ذلك بعد؟...

إن خطة إسرائيل في التوسع تقوم فى الدرجة الأولى على أساس تمزيق الكيان العربي من الداخل.

والأساليب المؤدية لذلك كثيرة جداً، وليست مباشرة بالطبع، ولكن لها مسارب خفية تصل إلى استخدام بعض العرب ضد بعضهم وهم لا يعرفون..

ولإسرائيل حلفاء أقوياء فى هذا المجال، فى القارات الخمس!

فمتى تقف الحرب الأهلية العربية نهائياً؟.

وإلا فكيف يمكن، قبل ذلك، الحديث جدياً، عن نظرية أمن عربية جديدة؟.

نحن.. والتاريخ

حرية الرأى والعقيدة
كانت المفتاح السحرى فى يد العرب

الحرب والسلم، أو اللاحرب واللاسلم، علاقات تتوالى بين الدول، أو الشعوب أو القوميات أو النظم.

وتتراوح حظوظ الأطراف يوما عن يوم، تبعا لعلاقات القوة فى فترة ما، وللظروف المحلية، والظروف الدولية، وغيرها.. خصوصا ونحن فى عالم يزداد تقاربا وتأثرا متبادلا، فلم تعد هناك أزمة أو مشكلة أو قضية يمكن عزلها عن ظروف العالم الذى نعيش فيه، وتفاعلاته المتغيرة.

من هذا المنطلق، كنت ولا أزال لا أتصور للصراع العربى الإسرائيلى إلا نهاية بعيدة. قد تتوالى الفصول وتتعدد الوقفات والنهايات الوقتية. ولكن نهاية "طبيعية" حقيقية، لا سياسة فحسب، لن تكون إلا بوجود مجتمع يهودى، مهما كان الاسم السياسى الذى سوف يحمله، يعيش تحت ظل وارف من وجود مجتمع عربى واسع كاليوم، له قيمه الحضارية والإنسانية التى تتسع لهذا الوجود وأمثاله فى البحر العربى الفسيح.

بمعنى آخر: مجتمع يهودى يرضى عنه العرب، بل ويكونون هم حفاظا عليه.. وليس "قوة كبرى محلية" روابطها وشخصيتها أجنبية تماما.

والتاريخ لا يكرر نفسه، على الأقل لا يكرر نفسه بنفس الأسلوب ولكن هذا لا ينزع عن الشهادة التاريخية قيمتها تماما. ذلك أن التاريخ لا تتكون أحداثه من فراغ، ولكن وقائعه تنشأ من ظروف معينة فهو يتشابه ولو بوسائل شتى يتشابه الظروف.

والظروف المتشابه الذى ينطلق منه تفكيرنا، هو وجود حضارة عربية قوية متجددة، يمتزج فيها أحسن ما فى ماضيها بأحسن ما يمكن أن نحققه فى حاضرها ومستقبلها.

لو قام هذا الظرف – وما أظن إلا أنه يوما سيقوم – لا يمكـــن تصـــور أى صيغة أخرى للعلاقة العربية الإسرائيلية.. أو غيرها من العلاقات فى المنطقة.

وقبل أن نخوض فى المراجع الإسرائيلية، من حقنا أن نعود إلى مؤلفات المؤرخ العربى الكبير النزيه عبد الله عنان، أهم من أرخ للأندلس فى العصور الحديثة.

ينقل الأستاذ عبد الله عنان عن "ابن خلدون" قوله: إن شمال أفريقيا الغربـــى كانت توجد فيه قبل الفتح الإسلامى قبائل يهودية، تلقت تعاليمها الدينية مـــن بنـــى إسرائيل فى المشرق. ولكن تلك الأقطار كانت تحـــت حكـــم الإمبراطوريـــة قبـــل الإسلام. وكانت تتعرض لغزوات "الوندال" من شواطئ فرنسا وأســـبانيا. وكانـــت الإمبراطورية الرومانية تعمل على تنصير الأهالى بالقوة فمنهم من تنصر ومـــنهم من تعرض لعذاب شديد.

"وكان يهود الجزيرة (شبة جزيرة أيبيريا التى هى حاليا أسبانيا والبرتغـــال) كتلة كبيرة عاملة، ولكنهم كانوا موضع البغض والتعصب والتحامل، يعانون أشـــنع ألوان الجور والاضطهاد. وكانت الكنيسة منذ أشتد ساعدها ونفوذها تحاول تنصير اليهود، وتتوسل إلى تحقيق غايتها بالعنف والمطاردة. ففى عهد الملـــك ســـيزبوف فرض التنصر على اليهود أو النفى أو المصادرة، فاعتنق النصرانية كثيـــر مـــنهم كرها ورياء (سنة ٦١٦ ميلادية) ثم توالى عليهم بعد ذلـــك صـــنوف الاضـــطهاد والمحن، حتى ركنوا مرة إلى التآمر وتدبير الثورة، وتفاهموا مع يهود المغرب على المؤازرة والتعاون. ولكن المؤامرة اكتشفت قبل نضجها (٦٩٤ ميلادية)، وكان ذلك فى عهد الملك راجيكا، فقرر أن يشتد فى معاقبتهم، واجتمع مؤتمر الأحبـــار فـــى طليطلة للنظر فى ذلك وأجاب الملك إلى ما طلبه، وقرر معاقبة اليهود باعتبـــارهم خوارج على الدولة يتآمرون على سلامتها، ولأنهم ارتدوا عن النصـــرانية التـــى اعتنقوها من قبل. وقرر أن ينزع أملاكهم فى سائر الولايات الأسبانية وأن تحـــول إلى جانب العرش، وأن يشردوا ويقضى عليهم بالرق الأبدى للنصارى. وأن يهبهم الملك عبيدا لمن يشاء، وألا يسمح لهم باسترداد حرياتهم ما بقوا على اليهودية، وأن ينزع أبناؤهم منذ السابعة ويربون على دين النصرانية. وألا يتزوج عبد يهودى إلا بنصرانية، ولا تتزوج يهودية إلا بنصرانى. وهكذا عصفت يد البطش والمطـــاردة

باليهود أيما عصف فكانوا قبيل الفتح الإسلامى ضحية ظلم لا يطاق وكانوا يتوقون إلى الخلاص من هذا النير الجائر، ويرون فى أولئك الفاتحين الذين يتركون للناس حرية الضمائر والشعائر مقابل جزية ضئيلة، ملائكة منقذين".

كانت هذه الصورة للواقع اليهودى فى المغرب والأندلس بين سنتى ٦١٦ و٦٩٤ ميلادية تقابل – فى المشرق – الفترة الواقعة بين الهجرة النبوية تقريبا وخلافه عمر وفتح الشام وفارس ومصر والعراق، وخلافة على. وقيام الدولة الأموية، ثم أول اصطدامات ضد البيزنطيين فى ديارهم ذاتها وأول حصار للقسطنطينية سنة ٦٩٧ ميلادية. ولم يتأخر فتح الأندلس (٧١١) كثيرا.

ولا شك أن كسر العرب لشوكة الإمبراطورية الرومانية فى عقر دارها، كان أكبر عامل لسكان شمال أفريقيا وأسبانيا على الثورة وأكبر أمل لهم فى الخلاص.

ولذلك لم يكن غريبا، حين عبر طارق بن زياد بجيوشه إلى أسبانيا، أن "اليهود كانوا يعاونون المسلمين فى تلك الفتوح.. وعندما وصل طارق بن زياد بجيوشه إلى طليطلة مخترقا هضاب الأندلس.. كان القوط قد فروا، ولم يبق بها سوى اليهود وقليل من النصارى، فأستولى طارق عليها، وأبقى على من بقى من سكانها، وترك لأهلها الكنائس وترك لأحبارها حرية إقامة الشعائر الدينية.

يقول المؤرخ الأمريكى سكوت "..كان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل، كما يسمح للملحد أن يجاهر بآرائه دون خشية المطاردة والأحبار يزاولون شئونهم فى سلام!.

حرية الرأى والدين والعقيدة، كانت مفتاح الحضارة العربية الذى فتحت به الأبواب على ظلام العصور الوسطى فى أوروبا نفسها ومازالت ولا تزال فى كل مكان مفتاح كل تقدم..

يقول المستشرق الأسبانى جاينجوس "لقد سطعت فى أسبانيا أول أشعة لتلك المدينة التى نثرت ضوءها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية، وفى مدارس قرطبة وطليطلة العربية، جمعت الجذوات الأخيرة للعلوم اليونانية بعد أن أشرفت على الانطفاء. والى حكمة العرب وذكائهم، يرجع الفضل فى كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها".

ويقول المؤرخ لين بول "أنشأ العرب حكومة قرطبة التي كانت أعجوبة العصور الوسطى! بينما كانت أوروبا تتخبط فى ظلمات الجهل، فلم يكن سوى المسلمين من أقام بها منائر العلم والمدنية".

ويعود الأستاذ عبد الله عنان، وقد استقرت الأندلس وازدهرت فيقول فى سياق حديثه "أما اليهود فقد كانت منهم أقليات فى معظم المدن الأندلسية تتمتع بحماية الحكومات الإسلامية ورعايتها. وقد ازدهرت هذه الأقليات اليهودية فيما بعد، وظهرت منها شخصيات بارزة تولت مناصب كبيرة فى الدولة، وغلب نفوذها فى بعض المناطق، كما حدث فى مملكة غرناطة، وظهرت كذلك فى ميدان العلوم والآداب، ونبغ منها علماء نابهون مثل ابن ميمون وغيره".

وفى سياق آخر من تاريخ عبد الله عنان الضخم عن الأندلس، يروى أن الأندلس كانت أول بلد في أوروبا تشيع فيه القراءة والكتابة بين الناس، بينما كانت في بقية أوروبا مقصورة تقريبا على رجال الدين. وفى عصر "الحكم المستنصر" الذى أنشأ المكتبة الأموية الكبرى، شاع اقتناء الكتب واقتناء المكتبات الخاصة "وكانت سوق الكتب في قرطبة من أشهر الأسواق وأحفلها بالحركة، وسرى هذا الشغف باقتناء الكتب إلى النصارى واليهود "بعد أن شاعت اللغة العربية بينهم" وكان كثيرون منهم يتذوقون ثمرات التفكير العربى من أدب وشعر وفلسفة وغيرها، وكان من أشهر هؤلاء الطبيب اليهودى حسداى، طبيب الحكم الخاص، وفى ظله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية، وألفوا بها مختلف الكتب. وكان من أشهر المكتبات الخاصة فيما بعد، مكتبة يوسف بن إسماعيل بن نغرالة اليهودى، وزير باديس أمير غرناطة".

ومن أكثر الفقرات دلالة، قوله "ويجب أخيرا ألا ننسى الأقلية اليهودية فقد عومل اليهود منذ الفتح بمنتهى الرفق والرعاية، وازدهرت أعمالهم التجارية والصناعية في ظل ذلك التسامح الإسلامى المأثور ووصلوا فى قرطبة فى ظل الخلافة إلى ذروة النفوذ والرخاء. وفى أيام الناصر تولى أحدهم، وهو العلامة حسداى بن شبروت، الإشراف على الخزانة العامة، وكان قبل ذلك قد حظى برعاية الناصر لخدماته الدبلوماسية، وترجمته لكتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية، من

اليونانية إلى العربية، وهو الكتاب الذى أهدى قيصر منه نسخة إلى الناصر. وفى ظل هذه الرعاية، وفد كثير من العلماء والأدباء اليهود إلى قرطبة، أيام الناصر وولده الحكم، وقامت فى ظل نشاطهم مدرسة قرطبة التلمودية، ومؤسسها الرابى بن حنوش، وازدهرت فى ظلها البحوث التلمودية، وغدت مركز الرياسة والتوجيه لهذه البحوث. واستمرت الخلافة الأموية، ومن بعدها حكومات الطوائف على رعاية الأقلية وتشجيعها. وكان يهود قرطبة يرتدون الزى العربى، ويتخلقون بالتقاليد والعادات العربية ويمتازون بثرائهم ومظاهرهم الفخمة".

وفى بحث حديث جدا، منشور منذ شهور قليلة، للكتاب الإسرائيلى "الفريد مورابيا" عنوانه "الثقافة اليهودية فى أسبانيا الإسلامية" نجده يعطينا تقريبا نفس الصورة التى رسمها المؤرخ الكبير ومن أخذ عنهم من المؤرخين الأسبان..

ويستهل "الفريد مورابيا" دراسته بكلمة للأستاذ ج فاجولا، يقول فيها " لم يحدث طيلة العصور الأولى وحتى آخر القرون الوسطى أن حققت اليهودية المبعثرة ذاتها فى بيئة غير يهودية، كما فعلت فى أسبانيا" يقصد بذلك العصر الأندلسى للإسلامى هناك..

ومعظم هذا البحث، يقدم لنا ما يشبه القائمة الطويلة لأسماء أهم اليهود الذين ترعرعوا في ظل الدولة الإسلامية فى الأندلس وتأثروا بها وتركوا لليهود أهم تراثهم.

وهو يركز – من باب الاختصار – اختياره في مجالات أربعة هى: الدين، واللغة، والشعر، والفلسفة..

والقائمة طويلة جدا...

ولكن يكفى تسجيل بعض الملاحظات عليها:

أولا: أن القائمة، التى هى على سبيل المثال لا الحصر، طويلة جدا وغزيرة. وأن أبحاث هؤلاء العلماء لم تتناول فقط علوم الحياة كالطب والهندسة. ولكن الكثير منها تخصص إما فى تعميق وإيجاد أسس اللغة العبرية، وأما لتعميق وتحليل وشرح أسس الديانة اليهودية.

والدين واللغة أمران من أهم الأمور التى تحفظ استمرار أى شعب والتسامح الإسلامي في هذا المجال بالذات يلفت النظر وله أهمية خاصة. لأنه يدل على اتساع

الحضارة الإسلامية العربية لهذه الأعمال التى أصبحت أهم مراجع التراث اليهودى. فى حين كان الشائع فى غير ذلك العصر، تشجيع أصحاب الأديان الأخرى فقط على الأمور الدنيوية من طب وهندسة، لأنها تفيد الجميع.

ومؤرخون يهود – مثل أبا ايبان وزير خارجية إسرائيل السابق – يحاولون إذا ذكروا فضيلة التسامح أن يبرروا بروز اليهود بأبحاثهم الدنيوية فقط. أو كفاءتهم فى الطب مثلا. وسنعود لذلك بعد قليل.

ولكن دلالة التسامح والتشجيع فى صدد دراسات تستكمل وضع قواعد اللغة العبرية والديانة اليهودية، أكبر وأعمق فهى تدل فوق استنارة السلطة الحاكمة وتسامحها فى حرية العقيدة، على ثقة هائلة بالنفس.

ثانيا: إن معظم التراث اليهودى، فى تلك المواضيع وغيرها مكتوب باللغة العربية التى كان يتعلمها ويتقنها هؤلاء وأبا ايبان نفسه يعترف فى أحد كتبة بأن حوالى ٦٠ فى المائة من التراث اليهودى مازال غير مترجم إلى العبرية بعد.

ثالثا: إن هؤلاء المؤلفين، لم يكن عملهم مقصورا على إنتاجهم هذا فى الأندلس الإسلامية فقط. إنما نجد الكثيرين منهم جابوا أفاق العالم الإسلامى العربى فى ذلك الوقت من بغداد شرقا إلى طليطلة غربا بعضهم طلبا للعلم. وبعضهم لينشر أفكاره عن اليهودية بين يهود العالم العربى فى شتى أماكنهم. كما يقول المؤلف الإسرائيلى الفريد مورابيا فى بحثه هذا الذى نعرض له! كان التسامح إذن يشملهم فى كل العالم العربى الإسلامى، بينما كانوا لا يجسرون على الحركة فى نصف العالم الآخر فى ذلك الوقت: كل ما هو شمال البحر الأبيض من دول أوروبية مسيحية فنجد مثلا:

اسحق الفاسي، الذى ولد فى "قلعة حماد" بالقرب من قسنطينة الجزائر الآن "واستمد اسمه من فاس التى عاش فيها معظم عمره وتلقى دروسه فى القيروان. وعاش حتى الخامسة والسبعين من عمره بين المغرب والأندلس يقول المؤلف الإسرائيلى أنه من أهم من فسروا التلمود، ونشر تعاليمه بين تلاميذه مثل يوسف بن ميجاش ويهوذا هالفى، وافرايم الحمادى (نسبة لقلعة بن حماد) وباروخ بن الباليه، وكان يرسلهم إلى أنحاء العالم الإسلامى حيثما وجد مجتمع يهودى لنشر تعاليمه.

- مناحم ابن ساروق، صاحب أهم قاموس عبرى تلمودى إلى الآن والوحيد الذى كتب قاموسا حتى ذلك الوقت بالعبرية مباشرة، إذ كان معظم الكتاب اليهود يكتبون بالعربية، ثم تترجم بعض أعمالهم إلى العبرية.
- دوناش بن الأبرط. الذى ولد فى بغداد، وتتلمذ على يد "سعيد بن جاعون" ثم جاب العالم العربى حتى استقر فى فاس. وكان لغويا وشاعرا.
- يهودا بن داود الذى يعتبر مؤسس قواعد اللغة العبرية إلى الآن، وقد ولد فى فاس. وكتب مؤلفاته فى تأصيل قواعد اللغة العبرية باللغة العربية، وترجمت بعد ذلك واستعان بكير من قواعد اللغة العربية فى وضع قواعد جديدة للغة العبرية.
- موسى بن عزرا: أحد أهم الشعراء العبرانيين. وأهم مؤلفاته أسمه بالعربية "كتاب المحاضرة والمذاكرة".
- يهودا الحريزى الذى وصفه المؤلف بأنه كان يسافر كثيرا بين الأندلس، ومصر وفلسطين أو سوريا، وما بين النهرين (أى العراق) يقدم أعماله الفنية والفكرية لكل مجتمع يهودى. وهو أول من أخذ شعر "المقامات" من العرب واستخدمها باللغة العبرية.
- وفى مجال الفلسفة يقول الباحث الإسرائيلى إن الأندلس الإسلامية كما أعطت للعامل كله ابن طفيل وابن رشد وغيرهما، فقد تربى ونشأ فى أعقابهم أهم فلاسفة اليهودية مثل "باهى بن باقودة" الذى ألف أحد أهم كتب الفلسفة اليهودية بعنوان "كتاب الهداية إلى فرائض القلوب" ولم يترجم كتابه إلى العبرية إلا بعد مائة سنة من تأليفه.. إلى آخره.. إلى آخره...

وإذا عدنا بعد ذلك إلى "أبا ايبان" المؤرخ والسياسى قبل أن يكون أستاذ تاريخ نجده لا ينكر شيئا من هذا فى الأساس..

بل يقول فى كتابه "قصة اليهود" أن اليهود لم يعرفوا درجة من الازدهار وتحقيق الذات طوال التاريخ كله إلا مرتين: مرة فى الولايات المتحدة الأمريكية اليوم، ومرة فى الأندلس الإسلامية منذ قرون!.

ونقول له إن هناك مع ذلك فارقا: فما وصلوا إليه فى الولايات المتحدة جاء بعد العصر الحديث وانتشار التنوير فى العالم كله فى حين أنهم وصولا إلى ذلك فى

الأندلس، في العصور الوسطى. ووسط ظلامها، وفى أوج التعصب والاضطهاد الدينى فى أوروبا!

ثم أن أبا ايبان – كما سبق ذكرت – يركز على الذين برزوا فى ظل العالم العربى فى تلك الحقبة بمهاراتهم الشخصية فى الطب أو المال أو الهندسة أو الترجمة. ومن الطبيعى أن لا يبرز ولا يوضع فى كتب التاريخ إلا أسماء الأكفاء والمشهورين. ولكن أليس هذا البروز بحاجة فوق الكفاءة إلى شئ آخر وهو جو التسامح واحترام حرية العقيدة؟

إن النابهين لا يبرزون فجأة فى عصر دون عصر ولا فى قطر دون قطر إنما يبرزهم عنصر أساسى يسمح للموهبة أن تتفتح إلى أقصى قدراتها. وذلك هو جو احترام حرية العقيدة.

والغريب أن أبا ايبان يقول فى أجدى صفحات كتابه عن "قصة اليهود" إن سبب بروزهم قام على إتقانهم اللغات المختلفة، بحكم وجودهم فى أقطار مختلفة. وبالتالى كانوا ضروريين للنقل والترجمة بين تلك الأقطار وبين عالم العرب وعالم أوروبا مثلا فى تلك الحقبة التى نتجدث عنها. وهو من حيث لا يشعر يحاول أن يجعل هذا دورا خالدا لليهود، يميزهم عن سائر الدنيا، ويجعلهم ضروريين لتسيير هذه الدنيا.

وهو بهذا يهزم قضيته من وجوه كثيرة دون أن يدرى.

صحيح أنهم قاموا طويلا بدور المبعوثين والمترجمين بين الدول...

ولكن هذا يفترض دوام وجودهم فى "الشتات" بعكس العقيدة الصهيونية التى تريد جمعهم فى وطن واحد.

ثم أن هذا مفهوما فى عالم كانت القراءة والكتابة ودراسة اللغات كلها مقصورة على القلة النادرة، لضرورات الفكر والإطلاع أو لضرورات العامل التجارى والسياسى. وكانت مقصورة تقريبا على رجال الدين.

أما الآن، وقد أصبح التعليم ومعرفة اللغات شيئا شائعا وأساسيا بل ومفترضا وجوده فى أى مجتمع إنسانى.. فإن هذه الوظيفة الخاصة قد انتهى دورها. ولم يعد دور اليهودى العالمى مطلوبا!.

والواقع أن الإسرائيلى حين يكتب يحتار دائما بين اختيار دور المواطن الصهيونى وبين دور المواطن العالمى. وهما نظرتان مختلفتان.

وبعده...

فلم يكن موضوع هذا الحديث كل العلاقة العربية الإسلامية اليهودية، وإلا لطال الحديث وذكرنا آلاف الأدلة على أن ازدهار العرب وتحضرهم وقوتهم كانت تلقائيا تعطى اليهود فرصة أكبر..

وإنه ليكفى أن نذكر أن عمر بن الخطاب هو الذى أعادهم أول مرة إلى القدس بعد أن حرم الرومان عليهم سكنى المدينة.

وإن صلاح الدين الأيوبى هو الذى أعادهم مرة ثانية بعد أن هزم الصليبيين، الذين حرموا اليهود بدورهم من مجرد الاقتراب من القدس.

ولكن الحديث انصرف أساس إلى تجربة واحدة هى التجربة الأندلسية، التى لم يتسع المجال مع ذلك إلا لمجرد سرد لمحات خاطفة منها.. تثبت صواب ما ذهبنا إليه فى أول هذا الحديث على المدى التاريخى.

إن النظرة التاريخية المفصلة، تثبت قول بعض الباحثين اليهود أنفسهم، من: أن عصر التنوير العربى فى أوج الإمبراطورية الإسلامية وحضاراتها، هو الذى لعب أكبر دور فى حفظ استمرارية اليهود كبشر وكتراث، وتاريخ، ومعتقدات.

فلم يكن لهم طول التاريخ مكان آخر يتنفسون فيه.

إعادة كتابة التاريخ الإسلامى والعربى
من لهذه المهمة الصعبة

بصرف النظر عما سوف تكون عليه الصورة فى لبنان، عندما تصل هذه السطور إلى يد القارئ، فإن هناك جوانب هامة، باقية، من آثار الحرب الأهلية اللبنانية، توحى لكل عربى بالتأمل، فيما هو أوسع منها.

أننى أكتب هذه السطور، وقد بلغ عدد القتلى عشرة آلاف، والجرحى أضعاف هذا العدد. والحرب الأهلية مازالت تهدأ يوما، ويستعر أوارها أياما أخرى وأسابيع..

الصراع بين الأخيار والأشرار مستمر. بين الذين يريدون أن يبقى لبنان الذى نعرفه، والذين يريدون تقسيمه. بين الذين يحاربون معركة الحاضر والمستقبل، والذين يحاربون معارك الماضى.

فقط، يجب أن نسجل قبل الانتقال إلى هذا الجانب، أن الحرب الأهلية اللبنانية إذا كانت قد اتخذت طابع الحرب الطائفية، إلا أن أسبابها أعقد من ذلك بكثير، باعتراف جميع الأطراف. ولو كان الجانب الطائفى هو الجانب الوحيد فيها، لأمكن التوصل إلى حل، قبل أن يتفاقم القتال إلى الحد الذى وصل إليه.

فهناك القضية الاجتماعية، والاتساع الهائل بين الفقر والغنى، والذى جاء ارتفاع الأسعار العالمى والتضخم ليزيد من المسافة والمرارة معا.

وهناك العنصر الخاص بأزمة الشرق الأوسط، والذى تمثل فى الوجود الفلسطينى المسلح فى لبنان، ورضا البعض عن ذلك كحتمية لا مفر منها ورفض آخرين لها.

وهناك استغلال إسرائيل لهذا الواقع ومحاولتها الدائمة لتفجير الكيان اللبنانى، أملا فى العصف بالوجود الفلسطينى من جهة، وبالعصف بالوجود اللبنانى كله من جهة أخرى، كنموذج حى على قدرة العرب على تحقيق التعايش بين الأديان والطوائف.

وهناك صراع الدول الكبرى، التى صارت المنطقة العربية بالنسبة لها جميعا قضية هامة، بل أهم القضايا، وذلك لموقعها الفردي، وسوقها الواسعة، ووجود أهم ثروة استراتيجية – البترول – فى أراضيها وإطلالها على كل المواقع الحساسة من المحيط الهندى والخليج إلى البحر الأحمر، والبحر الأبيض، والمحيط الأطلنطى.

كل هذه العوامل تفاعلت وتداخلت فى أزمة لبنان التى انقلبت إلى حرب أهلية مستعصية على الحل...

ومع ذلك، فإننا يجب أن نواجه المشكلة الطائفية التى يتحرج كل من هو غير لبنانى عن الحديث عنها..

ليس فقط لأنها لعبت دورا أساسيا فى الحرب الأهلية فى لبنان، لأنها الأسهل استخداما، والأكثر فعالية فى إثارة النعرات المتطرفة لدى الإنسان، ولكن أيضا لأن العالم العربى – بحكم اتساعه وتنوع ظروفه وتاريخه – حافل بالطوائف والمذاهب والأقليات، فهى قضية أبعد مدى من لبنان. وان كان لبنان حتى فى هذا المجال له ظروفه الخاصة، بحكم التعدد الكبير للطوائف الدينية والعرقية من جهة، وبحكم التقارب الكبير بين الأرقام العددية لهذا الطوائف، الوضع الذى لا مثيل له فى أى بلد فى العالم العربى أو غير العربى.

الحقيقة الأولى التى يجب أن تسجل، هى أن المارونية "دين، وليست سلالة عرقية. فالموازنة كطائفة ليسوا كالأرمن مثلا، ولكنهم مزيج من مسيحيين عاشوا فى الشرق الأوسط قبل الإسلام، ومن قبائل عربية جاءت مع الفتح الإسلامى، ومن تجمعات عربية مسيحية كانت فى مناطق أخرى، ثم تجمعت بسبب الاضطهاد أو رغبة التجمع فى جبل لبنان، ومن بقايا الحملات الصليبية. وإن كان يجب أن نسجل هنا أيضا – تاريخيا – أن ليس كل من بقى من الحملات الصليبية بقى فى لبنان، وليس كل من بقى فى لبنان منهم صار مارونيا فالكاثوليكية فيها المارونى وغير المارونى. وبقايا الصليبيين توزعت على طول الشاطئ من شمال سوريا إلى جنوب فلسطين.

الحقيقة الثانية هى أن الموجة العربية حين شملت كل العالم العربى كما نعرفه اليوم، لم تكن هناك – بعد – مارونية. بل إن المارونية – كفرع من الكاثوليكية – ظهرت أول ما ظهرت فى الشام، فى كنف الدولة العربية الإسلامية،

ثم تجمعت فى جبل لبنان،وأقامت مجتمعها الخاص بها فى كنف الدولـــة العربيـــة الإسلامية، وبعد قيامها بقرون طويلة وتلك حقيقة بالغة الأهميـــة، لأن معناهـــا أن الدولة العربية الحاملة لواء الإسلام لم تقف فقط عند حـــد الإبقـــاء علـــى الأديـــان السماوية، كالمارونية المتفرعة من الكاثوليكية المسيحية، مما يغنى عـــن أى دليـــل آخر على جوهر التسامح فى الحضارة العربية والدين الإسلامى.

وقصة عمر بن الخطاب عند فتح القدس المسيحية معروفـــة حـــين رفـــض الصلاة فى الكنيسة حتى لا يختلف الشعب العربى من بعده عليها، وصلى بجـــوار الكنيسة، حيث يقوم مسجده الصغير ملاصقا للكنيسة إلى الآن. وحتى اليهود الـــذين طردوا من القدس وحرم عليهم دخولها على يد روما المسيحية، لم يسمح لهم اليهود بالعودة إلى زيارتها وسكناها إلا فى ظل الخلافة العربية الإسلامية، بعد أن حرموا من ذلك بقرون.

الحقيقة الثالثة، هى أن التاريخ فى المنطقة لم يخل بعد ذلك من الاضـــطهاد بكل أنواعه. الاضطهاد الدينى والاضطهاد العرقى خصوصا على يد المماليك أحيانا – وهم فى الأساس شراكسة ليسوا من عنصر عربى، وكانوا ينظرون للعـــرب – مسلمين ومسيحيين – نظرة أقل أو على يد الحكم التركى.

ولكن فترات الاضطهاد، والحروب الدينية أو بالأحرى الحروب باسم الـــدين عرفتها كل الحضارات فى فترات معينة من تاريخها. وليس أشهر مـــن الحـــروب الدينية التى أغرقت أوروبا المسيحية طوال العصور الوسطى. ولم يعرف جزء آخر من العالم درجة من العسف كالتى عرفتها أسبانيا مثلا فى عصر محاكم التفتيش.

وفى العالم العربى قامت الحروب الدينية بين المذاهب الإسلامية ذاتها، وفى فترات الحكم التى سادت فيها عناصر غير عربية، تعـــرض العـــرب للاضـــطهاد مسلمين ومسيحيين على السواء. فلا نجد عصرا كان فيه الاضطهاد موجهـــا إلـــى الأقليات المسيحية بالذات، أو مطاردة المسيحية كدين منتشر فى شتى أرجاء العالم العربى، حتى فى أيام الحروب الصليبية المتعاقبة.

ولكن تلك فترة من الزمن ومن القيم مرت على العالم كلـــه وانتهـــت ومـــع عصور التنوير وما تلاها من تقدم حضارى وقيام الدول الحديثة لم يعـــد لمعـــارك الأمس مكان، صار الدين لله والوطن للجميع.

وحتى حين نجد، هنا أو هناك. حروبا صغيرة فى مجتمعات صـــغيرة، ذات طابع دينى كالحرب بين الكاثوليك والبروتستانت فى ايرلندا الشمالية، ونحد هــؤلاء وهؤلاء يحتفلون – نكاية – بذكرى معارك حربية وقعت قبل خمسة قرون، نجد أن جذورها الحقيقية ليست دينية بقدر ما هى أولا: اجتماعية، حيث يشعر الكاثوليك – الأقلية – أنهم لا ينالون نفس حقوق البروتستانت، الأغلبية الأكثر انتماء لإنجلتـــرا. وثانيا وطنية كبقية لحركة الاستقلال الايرلندية الشهيرة، التى انفصلت بها ايرلنـــدا عن إنجلترا، وما زال فى الشمال من يـــرى نفســـه ايرلنـــديا ويفضـــل الالتحـــاق بجمهورية ايرلندا ويرى أن الإنجليز "غزاة".

وكل دارس للتاريخ العربى الحديث، يعرف أن المسيحيين العـــرب – وفـــى مقدمتهم الموازنة بالذات – كانوا من أول الذين ناضلوا فـــى ســـبيل اســـتخلاص استقلال العربى من السطوة التركية، وساهموا فى إحياء التعريب ومقاومة التتريك.

لقد عربت الكنيسة العربية صلواتها. وكان الأديرة فى لبنان أول من أدخل المطابع ذات الحروف العربية فى المشرق، وهاجر مجاهدون منهم إلى مصر خـــلال حركتهـــا الوطنية الأولى، وكان صاحب شعار "مصر للمصريين" مهاجرا غير مسلم جاء من "بـــر الشام" ليجاهد مع مجاهد مسلم عظيم هو جمال الدين الأفغانى وسائر تلاميذه.

وأنقل عن "الخورى يواكيم مبارك" المارونى اللبنانى بعض ما جاء فى مقال له فى ذروة الفتنة هناك قوله لمواطنيه الموارنة "أما موضع الإسلام فقد رافق تاريخ كنيستنا منذ نشأتها.. ولكنى ألاحظ أن نشأة هذه الكنيسة (المارونية)، تحت الضغوط الدينية والسياسية آنذاك لم تكن بسبب الإسلام فالمارونية التى تكونت خلال الفـــتح العربى وأخذت تستوطن لبنان، سواء عن طريق الرسالة، أو عن طريق الهجـــرة والعصيان، تبلورت شخصيتها ووضحت معالمها فى النضال، لا مع الإسلام، بـــل مع الفرق المسيحية الأخرى.

"إن استعراب المارونية الذى سيكلل مسيرتها الطويلة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لم ينتظر هذه الحبة الحديثة، ليبرر صفته المميزة فى هيكل الجســـم المارونى غربا وشرقا، فالتراث المارونى الأصيل والشاهد التاريخى الأول علـــى الروحية المارونية والنظام المارونى معا، هو عمل لا نعرفه إلا فى صيته العربية

أعنى كتاب الهدى، وكتاب الهدى هذا ليس نموذجا لاستعراب الكنائس الشرقية ابتداء من صدر الإسلام، موصولة بالكنيسة العربية ما قبل الإسلام، وبلوغ الجميع على أيام الأمويين ثم العباسيين، مشاركة وثيقة فى تبنى ثقافة واحدة".

".. وحين نصل إلى عصر الاستعراب الكامل الذى لاحت بشائره منذ البدء، نلاحظ تبنى المارونية العميق للحضارة العربية فى صيغتها، والإسلامية فى كثير من مفاهيمها، على يد الألمعيين من الموارنة، وفى مقدمتهم المطران جرمانوس فرحات، بل أن الموارنة الذين أحسوا بنوع من الانكماش على مجالات العالم العربى والإسلامى، لم يترددوا فى الانعتاق من هذه الطائفية الضيقة. هذا كان شأن جبار العرب فى القرن التاسع عشر وصقر لبنان "أحمد فارس الشدياق" وقد تبعه ألمع من ظهر فى المارونية كأمين الريحانى وجبران خليل جبران".

إننا هنا لا نتناول قضية لبنان السياسية، ولكننا نتناول إحدى خلفيات هذا الصراع الدامى المقيت، ونتناوله للوصول إلى خليفة أكبر تهم العالم العربى كله.

إن العودة إلى دراسة التاريخ مفيدة وهامة. ولكن لكى نستفيد من دروسه ومجمل عبره، لا لكى نعود القهقرى، ونحارب معارك فات أوانها وتخطاها الزمن.

وكل أمة لابد أن تكون لها ذاكرة، وإلا انقطعت عن جذورها، ولكنها ذاكرة تساعدها على تفهم المستقبل، ولا تغرقها فى دوامة الماضى.

والعالم العربى الإسلامى، أولا بحكم اتساعه، وترامى أطرافه وتنوع بيئاته وخلفياته التاريخية، وثانيا بحكم ظهور كل الأديان، ومعظم المذاهب والفلسفات فيه، وثالثا بحكم موقعه الوسط من العالم، وبالتالى كثرة الهجرات والغزوات فى تاريخه.. هذا العالم العربى، رغم أن الإسلام صار أساس تراثه وإطار تجمعه، فانه لهذه الأسباب السابقة ظل فى كل أقطاره حافلا بمظاهر التنوع، فى مجال الأغلبيات والأقليات من داخل الإسلام ذاته ومن خارجة.

ولا شك أن اتجاه العالم العربى السريع إلى مرحلة التمدن، والأخذ من جديد بأسباب الحضارة بعد طول رقاد، تجعل هذا الواقع المتعدد ينصهر ولا يتباعد، ولا شك ا، ما حدث فى لبنان ليس هو القاعدة فى العالم العربى ولكنه الاستثناء، ولكن هذا لا يمنع من مواجهة المشكلة بالعقل المستنير، وبالروح الإسلامية السمحة، وبمسئولية الأغلبية عن احتضان الأقلية، وتزويدها بالدفء والرعاية والاطمئنان والأمان.

ومن أجل أن ننجح تماما فى هذا، لابد من التطرق إلى قضية أخرى باللغة الخطورة والأهمية، وهى إعادة كتابة التاريخ العربى والإسلامى.

لماذا؟

لاشك أن الحضارة العربية الإسلامية قد عرفت بداياتها الطاهرة، المثالية وينابيعها الصافية الأولى على عهد النبى وخلفائه الراشدين.

ثم بعد ذلك، وبعد أن اكتملت الأسس والقيم والمبادئ عرفت الحضارة العربية الإسلامية بطريقها إلى تكوين الدولة الحديثة بمعايير ذلك العصر على عهد الأمويين ثم العباسيين.. فضلا عن عهود الفاطميين فى مصر، والحضارة الأندلسية الفذة.

ولكن، لاشك أيضا أن هذه الحضارة عرفت كل ما عرفته الحضارات الأخرى بعد ذلك من عهود الاستبداد والظلم، ومن الصراعات السياسية التى ارتدت ثيابا دينية، حتى دخلت مراحل الجمود ثم الاضمحلال والتحلل والضعف، حتى تبارى فى نهبها الطغاة من الحكام، والأقوياء من الأجانب.

وحين نقول "التراث" فإن التراث قد مر بدوره بكل هذه المراحل سطعت أنواره فى عصور النهضة، وخبا ضياؤه فى عصور الاضمحلال وجاءت أوقات كانت حتى الفتاوى الدينية خاضعة لهوى الحاكم مبررة لمظالمه وانحرافاته.

هذا التاريخ ينبغى إعادة كتابته بسلبياته وإيجابياته، هذا "التراث" ينبغى إعادة انتقائه واختياره.

ففى الذهن العربى العام، نجد أن كل ما حدث خلال خمسة عشر قرنا هو كتلة واحدة مضيئة من التاريخ، وكل كتاب مضى على وضعه مئات من السنين.. تراث.

وكثيرون من الأجانب "المتخصصين" يركزون على الجوانب السلبية من هذا التاريخ والتراث، ويستخرجون منها استنتاجاتهم عن الإسلام والعرب، وكثيرا ما ترتد هذه الآراء إلينا والى الشباب المثقف القارئ للغات الأجنبية بالذات.. على أنها النظرة الصحيحة للأمور.

وهكذا يدرس التاريخ والتراث فى المدارس!.

وهذا غير صحيح...

فكما أن هناك أمثلة الحرية والتقدم الكبرى، فهناك محنة أحمد بن حنبل مثلا أيام فتنة "القرآن هل هو قديم أو مخلوق"

وكما أننا نجد "أبا ايبان" وزير خارجية إسرائيل السـابق، وأسـتاذ التـاريخ والأدب العربى السابق، يقول فى آخر كتاب له "شعبى" إن اليهود عرفـوا خـلال تاريخهم مرحلتين ذهبيتين: الأولى فى الأندلس العربى الإسلامى، أيام ظهـر ابـن ميمون (اليهودى) وغيره، وأن تسعة أعشار التراث اليهودى مكتوب باللغة العربية والثانية هى حياة اليهود اليوم فى الولايات المتحدة الأمريكية.. فإننا نجـد مراحـل ضاقت فيها حلقة الفكر على المسلمين أولا، ونزل الظلم والتزييف بالمسلمين العرب قبل غيرهم.

فمن، لهذه المهمة الكبرى؟

لقد عرفنا فترة ظهر فيها أمثال محمد عبده وطه حسين والعقاد قاموا خلالها بجهود فردية فى هذا المجال، وكانت ميزتهم أنه قد تهيأ لهم رسوخ القدم فى دراسة التراث القديم من جهة ورسوخ القدم فى فنون النقد والكتابة والفكر الحديث من جهة أخرى..

بعدهم.. جاءت أجيال قل فيها من يجمع بين الأمرين..فهو إما خريج الدراسة الدينية المحضة وإما نتاج التكوين الأوروبى المحض، فوقـع الانقسـام الفكـرى، ونقص عدد القادرين على التكامل.

ولا أقول إن هؤلاء غير موجودين، ولكن الأمر صار أكبر وأهـم، بحيـث يحتاج إلى جهد جماعى، ترعاه هيئة أو دولة تدرك قيمة هذا العمل...

فمن، لهذه المهمة الكبرى؟

هناك أمران بديهيان:

الأمر البديهى الأول: هو أن التاريخ ليس شيئا يكتب مرة واحدة ولكنه مـادة تكتب مئات المرات، وتعاد كتابتها باستمرار سواء بسبب ظهور معلومات مستجدة عن أى صفحة من صفحات التاريخ، أو بسبب تطور فى مذاهب التاريخ وفلسفاته، وظهور أدوات فكرية جديدة تستخدم فى فهم التاريخ. أو بسبب أبسط وهو ظهـور

أى كاتب أو مؤرخ يجد فى نفسه القدرة والرغبة على أن يدلى بدلوه فى التعرض لموضوع ما من موضوعات التاريخ.

أليس من المألوف أننا إذا أردنا الرجوع إلى موضوع من موضوعات التاريخ أن نعود إلى الفهارس فنجد عشرات الكتب أو مئاتها، حسب أهمية الموضوع، المكتوبة عنه؟.

كتابة التاريخ إذن تاريخ فرد أو أمة أو عالم.. عملية بطبيعتها متجددة، لا يصدر قرار ببدئها ولا يصدر قرار بإيقافها. وليس فى هذا جديد، كل ما فى الأمر أن الشعوب فى مراحل يقظتها الفكرية تزداد اهتماما بتاريخها، تمام كما تزداد اهتماما بحاضرها ومستقبلها، فاليقظة لا تكون إلا شاملة. وبالتالى تشتد حركة التأليف عن التاريخ ويزداد الناس إقبالا على قراءته وفى حالات الخمول تنام الأمم عن ماضيها ومستقبلها معها. تستلم لما وجدته مكتوبا عنها من قبل ولما ترى أنه "مكتوب لها" فى المستقبل.

الأمر البديهى الثانى: هو أنه كما أن التاريخ ليس شيئا يكتب مرة واحدة، كذلك فإنه ليس شيئا تكتبه جهة واحدة.

ولعل هذا الأمر الثانى أكثر بديهية من الأمر الأول. فليس هناك فرد ولا جهة ولا دولة ولا مجموعة دول تحتكر كتابة التاريخ حتى ولول كان تاريخها، فلو أراد أحد أن يكتب عن تاريخ العرب أو الصين أو بلاد واق الواق. فلا يوجد أحد يملك منعه من ذلك. ولا يملك فرد ولا مجتمع أن يمنع الغير من الكتابة عنه، وكلما كانت الحضارة غنية تعدد جنسيات الذين يكتبون عنها. بل أن جامعة أمريكية مثلا قد تنفق الملايين لترسل علماءها إلى ابعد بلاد الدنيا لعمل حفريات ودراسات تاريخية عن موضوع لا صلة لها به. ذلك أن التاريخ والحضارات ملك مشترك للمعرفة الإنسانية كلها. ومرة أخرى، نجد أن الشعوب كلما زادت تقدما، صاحب ذلك اهتمامها بحضارات العالم كلها..

فى مصر.. نجد أن الذين اكتشفوا حجر رشيد وفكوا أسرار اللغة الهيروغليفية، فرنسيون. والذين كشوفا آثار كنوز توت عنخ آمون إنجليز. والذين ينقبون عن آثار مدينة الفسطاط القديمة من جامعات أمريكية. وحضارة العرب

أشبعها "المستشرقون" كتابة وتحليلا.. ونحن ترجمنا عنهم واستفدنا بهم. وهم روس وألمان وإنجليز وفرنسيون وهولنديون.. إلى آخره.

وأصحاب أى تاريخ يفرحون باهتمام الآخرين بهم. فما كان كل هؤلاء المستشرقين مثلا ليهتموا بالحضارة العربية، ويقيموا لها مراكز الأبحاث فى جامعاتهم وأقساما خاصة فى متاحفهم، لولا أنها حضارة غنية وتاريخها مهم، وأنها حلقة جوهرية فى التاريخ الإنسانى كله.

هاتان البديهيتان، الواضحتان للعيان لا تحتملان أى مناقشة أو جدل أو خلاف.. كانت السبب فى "رد فعلى" هذا إزاء الموضوع كله واعتذارى عن مجرد مناقشته..

على أننى بعد أن استنفدت المناقشات نفسها وطويت صفحاتها، وجدت نفسى أتأمل الموضوع من زوايا أخرى طرأت على البال بعضها ظاهر للعيان ولكنه قد يحتاج إلى تفسير، وبعضها أثارته التأملات فى خاطرى، مما وجدت أنه قد لا يكون من ضياع الوقت أن أشغل القارئ بها، ووجدتها تفرض نفسها على فرضا ساعة جلست إلى الورق أكتب هذا الحديث.

عدم ثقة الناس فى الحكومات:

ينسب المؤرخون إلى بعض فراعنة مصر القدامى، قبل ألاف السنين، وحين كانت التاريخ يسجل عن طريق حفر نقوشه حفرا على الحجر الصلد.. أنهم كانوا يمحون ما سبق أن حفره أسلافهم، ويعيدون كتابة بعض الأحداث ناسبين إلى أنفسهم معارك لم يخوضوها، وانتصارات لم يحرزوها، وأعملا لمي قوموا بها سواء كان طمسا لحكام سابقين عليهم، أو انتحالا لفضل لاحق لهم فيه...

وفى الثلث الأول من القرن العشرين.. وبعد أن مات لينين قائد الثورة الروسية، ودار صراع عنيف على السلطة من بعده بين أبرز رفيقين له وهما ستالين وتروتسكى، انتهى بانتصار ستالين وبطرد تروتسكى من البلاد عرفنا أن ستالين عاد إلى وثائق الثورة، بسلطة الدولة يمحو منها كل عمل هام قام به تروتسكى للثورة.. وظهرت من الكتب ودوائر المعارف طبعات جديدة تعيد شرح أحداث الثورة بطريقة أخرى تمحو أثر تروتسكى أو تشوه دوره، حتى اللوحات الزيتية التى رسمها الرسامون لأحداث الثورة ومواقفها الحاسمة وعلقت فى

المتاحف العامة، أعيدت الريشة إليها لتمحو وجه تروتسكى حيثما ظهر في أى موقف منها.. بل أن عددا من الصور الفوتوغرافية الهامة فى الأرشيف أجريت عليها تعديلات فى الاتجاه ذاته.

إذن فمن بعض فراعنة الأسرة الأولى قبل أربعة آلاف سنة.. إلى قيادة أوروبية حديثة قبل أربعين سنة.. وقع نفس الشئ، وتحت محاولة "إعادة كتابة التاريخ" بصورة واحدة!.

ولا شك أن العادة لم تنقطع تمام بين هذين النموذجين اللذين تفصل بينهما أربعة آلاف سنة.. بصورة أو بأخرى..

وبالتالى فإن النفس الإنسانية، أو نفسية "السلطة" والشعور بسطوتها حين تمتلك البشر، فيها ملامح متشابهة، مستمرة، عرضة للتكرار.

ولذلك، فمن الطبيعى أن يشك الناس فى كل ما هو "تاريخ رسمى". وبالتالى فحين يذكر موضوع إعادة كتابة التاريخ وتشتم منه رائحة أن الدعوة موجهة إلى "الدولة" لتعيد هى كتابة التاريخ فالمناقشة تصبح واردة. ومن السهل أن نلمح في المناقشات تيارا يحرض الدولة على أن تقوم بذلك وتيارا أخر يعارض هذه الدعوة، لاشتباهه فى انطوائها على هذا التحريض للدولة.. خاصة وقد انتشرت بالفعل "موضة" تكوين اللجان الرسمية المكلفة بإعادة التاريخ فى أكثر من بلد عربى...

ونحن نعرف فى قاموسنا الحديث عبارات "الرقابة على الصحف والكتب" و "الحظر على الأنباء" و "مصادر المطبوعات"، وأحيانا حتى التشويش على موجات الإذاعة، ولكن هذه وسائل حديثة، ظهرت لمواجهة وسائل حديثة لنشر المعلومات، ولكن قبل ظهور الطباعة والصحافة والإذاعة.. ربما لم تكن تلك الوسائل المضادة غير موجودة لعدم وجود مبرر لها. ولكن مبدأ إخفاء المعلومات بوجه أو بآخر، لا شك أنه كان موجودا فى نظم المجتمعات الإنسانية عبر التاريخ كله..

بل أن الكتمان فى الأزمنة الماضية كان أسهل. فالتاريخ كان يدور فى قليل من الدور والقصور. والأحداث كانت تتم داخل جدران قلاع بعيدة وأماكن محرمة إلا على القلة الموثوقة، وكانت معرفة الأخبار لا تتم إلا بالنقل الشفوى وتتواتر الروايات من شخص لآخر، مع كل ما تمر به خلال ذلك من تحريف مقصود أو غير مقصود... لذلك كانت معرفة الناس بسيطة، دعك من المؤرخين الذين يأتون

بعد ذلك بمئات السنين. يحاولون تجميع ملامح الحدث أو العصر بصعوبة بالغة، ومن شواهد نادرة. وحتى الآن يعثر الناس على وثيقة أو على مخطوط أو على قطعة حجر، فتقلب تاريخ عصر كما نعرفه رأسا على عقب. وتلعب المصادفات في ذلك دورا كبيرا.

فهى علاقة بين السلطة حين تكتب وبين الناس حين تتلقى، قديمة والشكوك فى شأنها منذ أقدم صفحات التاريخ.

وحتى حين جاء العصر الحديث، غير الكثير جدا، ولكنه لم يقضى على الظاهرة أو لم يقتل بذرة الشك الموجودة دائما لدى الناس..

لقد صارت الصحف والإذاعة تعلن الأنباء يوما بيوم. والكاميرا أو التليفزيون ينقلها حية إلى عيون المشاهدين. وبعض الدول صارت ترفع السرية عن أوراقها الرسمية بعد خمسين أو ثلاثين سنة، لمن شاء أن يقرأ ويدرس وينشر. وانتشرت ظاهرة نشر المذكرات. فكل من عاش قصة هامة سرعان ما ينشر مذكراته عنها بمجرد تركة لوظيفته بل صار مسئولا – مثلا – فى أخطر موضع مثل كيسنجر، يتعاقد على نشر مذكراته حتى قبل أن يترك وظيفته. وذلك تحت إغراء المبالغ الكبيرة التى صارت تدفعها دور النشر وتصل إلى ملايين الدولارات، وهو أمر لا نعرف هل هو مفيد أو ضار. فكل رسمى، فى أدق مباحثات مثلا، صار يعرف أن حديثه السرى سينشر بعد سنوات، وهو مازال على قيد الحياة.

وإذا كانت "الندرة" هى مشكلة العصر القديم، فالكثرة هى مشكلة عصرنا الراهن. ومرة أخرى صار كل رسمى يحب أن يشرح رأيه ويرسم صورته للتاريخ قبل أن يرسمها غيره. وبالتالى فهو يلون ما يكتبه بالألوان التى تناسبه. وان لم يكذب صراحة، فهو على الأقل يحذف مالا يريد له أن يذيع.

وخلال كتابتى هذا الحديث على سبيل المثال، كنت اقرأ – كعادتى – عدة كتب فى وقت واحد: مذكرات هنرى كيسنجر – مذكرات أبا ايبان وزير خارجة إسرائيل الأسبق – مذكرات موشى ديان وزير خارجية إسرائيل السابق – مذكرات اسحق رابين رئيس وزراء إسرائيل السابق.

وكنت اقرأ عن مواقف شهدها الأربعة، وكانت بين الروايات الأربع خلافات أحيانا، وتناقضات تامة أحيانا أخرى. والأربعة أحياء. وما يرونه لم يمر عليه سوى سبع سنوات.

فهل يا ترى مهمة المؤرخ، أمام الندرة القديمة كانت أصعب.. أم أنها أمام هذه الكثرة الحديثة هى الأصعب؟!

وأيهما أكثر بعدا عن الحقيقة.. الرواية أو المشاهدة، أم "الطرف" وصاحب الدور فى الحدث، الذى يهمه أكثر تلوين صورته باللون الذى يريد.

وسواء فى المجتمعات التى يشتهر عنها الوضوح الشديد، أو الغموض الشديد، فمازال ممكنا أن تبقى الحقيقة مستترة ولو فترة من الزمن بفعل السلطة الرسمية أو بفعل جهات ذات قوة ونفوذ فى مجتمع ما.

كنت فى أمريكا مرة، وكعادتى فى زيارة لبعض الجامعات، حضرت محاضرة فى جامعة "كارنيجى – مليون" فى بتسبرج. وكانت المحاضرة عن المسرح!

وكان الأستاذ يقول: إن من أسباب أزمة المسرح فى العالم أن الدراما التى يراها الناس حية على شاشة التليفزيون تلغى أى دراما أخرى فى المسرح يدخل الرسول ويروى ما حدث لملك بلاد كذا مثلا. ولكن الآن – يقول الأستاذ – رأى الناس على شاشة التليفزيون، على الهواء، حادث اغتيال الرئيس جون كيندى كاملا. وزادوا بعد ذلك حادث اغتيال القاتل "لى هرافى أزوالد" على الشاشة ساعة وقوعه.

ودون استطراد حول هذه القضية الفنية، نعود إلى سياق حديثنا عن التاريخ ونسأل: إن الناس رأوا الاغتيال يتم على شاشة التليفزيون وهم فى منازلهم. ورأوا القاتل وهو يغتال بدوره.

ولكن، وبعد مضى ثمانية عشر عاما على مقتل جون كيندى مازال المواطن الأمريكى يسأل: من الذى قتل جون كنيدى؟

وكلما مر الزمن زادت الشكوك. وكل سنة تتكون لجنة جديدة لأنها عثرت على دليل جديد. والانقسام مستمر حتى بين الخبراء حول ما إذا كانت رصاصة ازوالد هى التى قتلته، وما إذا كانت هناك رصاصة ثانية من جهة ثانية هى التى قتلته..

رغم أن القضية بحثها أكبر القضاة فى أمريكا، ولكن المواطن ظل يعتقد أن "السلطة" تخفى عنه شيئا! وأن جهات ما لا مصلحة لها فى القطع بالحقيقة!.

وسيضاف هذا إلى سؤال مشابه، معلق منذ حوالى مائة سنة، هو: من الذى قتل ابراهام لنكولن عشية انتصاره فى حرب تحرير العبيد فى أمريكا؟.

وفى نظام أخر وحدث أخر يسأل العالم: من الذى قتل محمد تراقى الذى قاد الانقلاب الماركسى الأول فى أفغانستان قبل أقل من سنتين؟

لقد قالت السلطة فى عهد خلفه أنه مات بمرض مفاجئ فلما وقع انقلاب آخر على خلفه – حفيظ الله أمين – وجاء برباك كارمل، قالت السلطة، إن حفيظ الله أمين أمر بقتله.. وإنه مات قتلا، وليس مرضا.

ما هى الحقيقة؟

الشك لدى الناس فيما يصدر عن السلطة إذن قديم. وهو مستمر.

وبالتالى كان لابد أن يمتد الشك إلى كل مشروع تتولى فيه السلطة كتابة التاريخ.. أو إعادة كتابة التاريخ.. أو "إعادة إعادة" كتابة التاريخ..

ولذلك فانه من الحق أن يعجب المرء من كتاب ومؤلفين يطالبون الدولة بكتابة التاريخ!

لماذا لا يكتبون هم ما يرون وما يريدون من تاريخ.. ويلقون بما يكتبون فى خضم سائل الكتابات التاريخية؟

ولا اعتراض طبعا على أن تقوم الدولة بكتابة ما تشاء من تاريخ، ولكن لا لكى يكون – كما يريد البعض – القول الفصل والحكم القاطع، ولكن لكى يكون مرجعا من المراجع لا أكثر ولا أقل.

إن الدولة – أى دولة – تساهم فى كتابة التاريخ بقسط وفير.

فالدولة هى التى تكتب التاريخ الذى يدرس فى المدارس. أى تكتب المقرر الذى يقرؤه ويدرسه كل طفل منذ سن الطفولة حتى الشهادة الثانوية، وعلى الأغلب الجامعية.

والدولة هى التى ترعى المشروعات الكبرى كالموسوعات ودوائر المعارف وطبع كتب التراث وهو نوع من كتابة التاريخ بحكم الانتقاء وبحكم النشر.

وهذا يكفى...

وما يمكن أن يطلب من الدول هو أن "تسهل" كتابة التاريخ. أن تمكن المؤرخ من ممارسة عمله. أن تمول الحفريات والتنقيب والبحث أن تنظم الوثائق الممكن نشرها وتضعها حيث الإطلاع عليها والاستعانة بها.

وفى أمريكا صار تقليدا أن كل رئيس دولة، بمجرد تركة الحكم، يضع كل أوراق عهده فى مكتبة مستقلة، وقد يسمح للباحثين بالإطلاع فورا على جزء منها، ويوصى صاحب الأوراق بإبقاء بعضها سرا عشر سنوات أو عشرين سنة، ولكنها تصير إلى ملكية الأمة على أى حالة.

ولكن كتابة التاريخ بعد ذلك قضية شخصية.

فحتى إذا كانت "الوقائع" ثابتة ومتفقا عليها. فان التاريخ ليس سرد وقائع. ولكن هو وضع الوقائع فى إطار معين، وتحليلها فى ضوء منطق معين فالتاريخ فى أرقى صوره وجهة نظر، الحقيقة فيه ملك القارئ؟ ووجهة النظر ملك الكاتب المؤرخ وهناك وقائع تاريخية كبرى ثابتة، يتخاصم المؤرخون على تحليلها طيلة ألف سنة!..

ومن الخواطر المتصلة بهذا الموضوع، أننا لو دققنا النظر فيما حولنا، وفى خضم الأدوات التكنولوجية المتاحة فى العصر الحديث، وفى عصر ديمقراطية المعرفة بمعنى وصولها إلى الجميع حتى الأميين إن لم يكن بالقراءة فبالسماع أو بالمشاهدة... نجد أن أمامنا مشكلة أخرى تحتاج إلى تدبر، وهى ما يرجى كل يوم من إعادة لكتابة التاريخ!.

نترك الآن جانبا الكتب والمؤلفات العلمية والوثائق والمذكرات، وكل ما يخطر على البال حين نتحدث عن كتابة التاريخ، أو لكى نستعمل عبارة أوسع "إعادة صياغة التاريخ"..

ما القول فى أفلام السينما التاريخية، بألوانها والشاشة "السينما سكوب" وجاذبيتها الهائلة على مئات ملايين المشاهدين فى العالم من كل المستويات فى الأعمار والمدارك والثقافة؟

ما القول فى الحلقات التليفزيونية المسلسلة التى تتحدث عن التاريخ وتدخل كل بيت؟

ما القول فى المسلسلات الإذاعية التاريخية؟

ما القول فى الروايات المكتوبة؟

ما القول فى مجالات الأطفال وكتب الأطفال ورواج ذى الطابع التاريخى منها؟

القليل من هذا الفيض الهائل، هو الذى تتوافر له الدقة التاريخية وعدم التضحية بالنزاهة فى سبيل التشويق، أو الربح،أو الدعاية لوجهة نظر معينة.

والكثير غير ذلك..

كل الأفلام التى تنتجها السينما اليهودية عن قصص الإنجيل.

كل المخرجين الذين يغريهم الربح بأفلام عن كيلوباترا أو سبارتاكوس أو غيرهما..

إلى آخره.. إلى آخره...

إن فيلما واحدا، بنجومه وأسمائه وألوانه وموسيقاه، عن حقبة تاريخية.. هو الذى يلصق بالذهن. ويمحو من الذاكرة أثر مائة كتاب فما بالنا وهو يتجه ملايين لا تقرأ الكتب، وليس لديها مناعة المعلومات السابقة، أو قدرة إدراك الخطأ أو التحريف؟

وجه الممثل الذى يقوم بالدور يصبح فى الذهن العام وجه البطل. كيرك دوجلاس هو سبارتاكوس. واليزابيث تايلور هى كيلوباترا. وأحمد مظهر هو صلاح الدين الأيوبى! الثياب، والقصور، والجدران وصور المعارك أو الحفلات.. كلها تلصق صورة فى ذهن الجمهور. ما هى دقتها يا ترى. هل كانت حقا ثياب العصر، وألوانه، وحركات الناس وسكناتهم.. كما نراها فى الشاشة؟

إنها نظرة المخرج، وتصوراته والله أعلم بمدى قربها أو بعدها عن الحقيقة. ولكن هذا هو ما يستقر فى الذهن ويمحو سواه.

وأعظم كتاب تاريخ يقرؤه آلاف، فى حين أن أى فيلم يراه ملايين وأى مسلسل تليفزيونى يراه مئات الملايين. وأى كتاب أطفال يقرؤه عشرات الملايين. وأى كتاب تاريخ مدرسى، وضعته الدولة يقرؤه شعب بأكمله، سنة وراء سنة وراء سنة!.

إن ديمقراطية المعرفة، وأن التكنولوجيا الحديثة، كلاهما تحول عظيم فى حياة العالم. وقد رحبت بهما الإنسانية مفتوحة الذارعين. ولكن الإنسانية لم تجد بعد ما تعالج به مخاطرهما ومحاذيرهما. لم تكتشف بعد "المضادات الحيوية" لما يحمله الجديد من جراثيم!.

إعادة كتابة التاريخ الإسلامى:

ولقد تذكرت، وأنا أدير هذا الحديث فى نفسى، أننى دعوت، وعلى نفس هذه الصفحات إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى!.

ومازال هذا المنبر الذى أخاطب القارئ منه، مؤمنا بهذه الدعوة، وملتزما بها. ومازلنا نحاول ممارسة ذلك فى حدود الطاقة.

فهل هناك تناقض، بين أول الحديث وآخره..؟

كلا. فالدعوة كما قصدتها، دعوة إلى الانفتاح على الحقيقة، وليست دعوة إلى الانغلاق دونها، كما توحى كتابات بعض المطالبين بإعادة كتابة التاريخ..

فالتاريخ الإسلامى، قد كبت جانب كبير منه فى ظل ظروف من تحكم السلطة.. وفى عصور مظلمة فكريا وثقافيا، واجتماعيا.. وبالتالى فلابد من إعادة النظر فى كل هذا...

والبعض ينظر إلى التاريخ الإسلامى نظرة يخلط فيها بين التاريخ الذى صنعة البشر وبين الإسلام ذاته فأسبغوا على البشر عصمة الدين وبالتالى جعلوا التاريخ وكأنه كتلة مقدسة تتساوى فى قيمتها وكأن الخليفة عمر فى مكة فى مقام الخليفة العثمانى فى اسطنبول!.

ثم إن أمهات الكتب التاريخية الإسلامية ذات القيمة، صارت بعيدة عن متناول القارئ، وصعبة على فهم حتى المتعلم، الأمر الذى يبرز الحاجة إلى طرحها على الناس بإعادة نشرها، مع حسن الانتقاء، وتبسيط بعضها، لتصل لجمهور أكبر.

ثم إن هذه الدعوة تنطلق مما نراه من إدخال أشياء على حياة المسلمين ليست من الإسلام وأخطرها المذاهب المتعددة التى تنتمى إلى أحداث خاضها البشر. وصنعها البشر. ومزقت المسلمين تمزيقا وأخذها الناس عبر آلاف السنين على أنها الدين وهى اجتهادات على أحسن الأحوال. فالنبى الكريم ترك إسلاما واحدا ومذهبا واحدا، ولم يترك عشرين مذهبا تفرق المسلمين حتى اليوم.

ولكن لن يكون هذا إلا بإعادة طرح التاريخ وإعادة تحليل أحداثه. وفرز الغث من السمين فيه. فتبقى للقداسة حرمتها. ويبقى ما هو من صنع البشر للبشر.

من حضارة ذهبية قديمة
إلى حضارة جديدة لا مفر منها

كان الحديث يدور بين بعض "المثقفين" فى الكويت، وأن جاءوا من أقطار عربية مختلفة عن حريق دار الأوبرا فى القاهرة، وما أعلن وقتها عن إعادة بنائها فورا، ولماذا لم يتم شئ من هذا إلى الآن، ويبقى مكان الأوبرا ساحة واسعة لوقوف السيارات. وذلك بوصف أنها كانت دار الأوبرا الوحيدة فى العالم العربى، وأنها كانت أحد أبرز معالم القاهرة، وليس بمناها، ولكن برمزها ومعناها، وما كانت تقدم فوق خشبتها من أعمال فنية، وفرق عالمية، وما كانت تقوم به بالتالى من دور كهمزة وصل بين عاصمة عربية وعواصم العالم المتقدم فى مجال هام من مجالات الثقافة والفكر والفن والمتعة الراقية.

وتحمس فريق لضرورة إعادة بناء دار الأوبرا، مهما كانت ظروف الحرب وظروف الاقتصاد، فلابد أن يقتطع لها نصيب من ميزانيات وزارات الثقافة والتعليم والتعمير، لأن الأوبرا حجر أساس فى الثقافة والتعليم والتعمير جميعا.

وتحمس آخرون لأن يتبرع الشعب فى مصر – ومن يشاء بعد ذلك من خارج مصر – وخصوصا المثقفون منه لبناء الأوبرا، ففى الترع الشعبى معنى المبادرة العامة من المتهمين بارتقاء بلادهم فى مجال يهتمون به وإذا كان غيرهم من أبناء الشعب يقاتل فى ساعات أخرى، فتلك ساحتهم التى يقاتلون فيها.

وطرح آخرون سؤالا هاما:

صحيح أن احتراق دار الأوبرا فى القاهرة، كان خسارة فادحة بكل المعانى..

ولكن أما وقد احترقت فعلا وانتهى الأمر، وصار إعادة بنائها أمرا يكلف مبالغ ضخمة من ميزانية الدولة كانت أو من أموال التبرعات، فهل ي ترى بناء دار للأوبرا، بهذه التكاليف الضخمة، يأتى حقا فى هذه المرتبة المتقدمة من سلم الأولويات بالنسبة

لأى شعب يواجه متطلبات أخرى أولى وأهم، حتى فى ميدان الثقافة؟

إن دار الأوبرا فى أى مكان لا يرتادها إلا الخاصة من المثقفين، وهـم قلـة قليلة بين مجموع أى شعب من شعوب بلادنا..

فهل انفقا المال على بناء دار الأوبرا أهم، أم أن الأجدى إنفاق هذا المال فى مكافحة الأمية مثلا؟ أو فى توسيع نطاق المدارس والجامعات؟ أو علـى الصـحة العامة.. إلى آخره.

واحتدم النقاش، دون أن يصل إلى قرار.

أثار هذا النقاش فى خاطرى قضية أساسية من القضايا التى تواجهها بلادنـا وكل البلاد الآخذة فى التقدم، وهى قضية: النخبة، والجماهير..

كما أنه أثار فى خاطرى قضية أخرى هامة، هى قضـية العلـوم العلميـة والتطبيقية.. كالهندسة والطب والكيمياء.. والعلوم الإنسانية كالقانون والأدب والفن والاجتماع والتاريخ..

وعلاقة الأمرين بحكاية الاختيار بين بناء دار للأوبرا أو الإنفاق على محـو الأمية، علاقة واضحة.

فبالنسبة للعلوم التطبيقية والعلوم الإنسانية.. نجد أنه لو قام من يـدعو إلـى إنفاق الملايين لتوفير وسائل البحث العملى من أجهزة ومعامل، لما اعترض عليـه أحد، فى حين أنه لو قام من يدعو إلى إنفاق هذه المبالغ على ما يشبه هذه المعامل بالنسبة لأهل العلوم الإنسانية، لجادل فى ذلك المجادلون، وذلك مظهر من مظـاهر التصور الكاسح للحضارة بوصفها تتمثل فى الجوانب المادية للحياة، دون الجوانب المعنوية فالحاضرة هى السيارة والطائرة والمصنع والمدفع، وأى شئ يساعد على التقدم فى هذه العلوم أساسى ومفهوم وموضع حماسة الجميع. أما الجوانب المعنوية للحضارة التى تتمثل فى "مجموعة القيم" التى يأخذ بها المجتمع المتحضر، وهـى القيم التى تحرسها وترعاها وتطورها العلوم الإنسانية، فهى أمور صارت فى نظر الناس ثانوية، أو نوعا من أنواع الترف...

ولقد نجد هذا الرأى قويا بين المجتمعات التى لديها ذخيرة قديمة من العلـوم الإنسانية. من فلسفة وعقائد وفكر وفن، ولكنها مع ذلك تشعر أنها فى الـذيل مـن طابور التقدم.

وينطبق هذا مثلا على عالمنا العربى بتراثه الغنى فى كل هذه الأمور وفقره فى أرباب القوة المادية.

ويختزل هذا الموقف، القول المأثور عن أمين الريحانى: أنا الشرق عندى فلسفات، من يأخذها ويعطينى دبابات وطائرات!.

ومثل هذه الاتجاهات فى حياة الشعوب، فى فترات معينة، كثيرا ما تكون بمثابة "رد فعل"...

فالبلاد ذات الحضارات العريقة كالعرب والهند والصين مثلا، تجد أن لديها تراثا عريقا كما ذكرت من الثقافة والتراث وكل ما يدخل تحت باب العلوم الإنسانية ولكنها مع ذلك تجد نفسها فى عالمنا هذا الحديث مستضعفة. فهى لم تلحق بالثورة "الصناعية" التى هى نتيجة العلوم التطبيقية.. ثم لم تلحق بعصر "ما بعد الثورة الصناعية" الذى نعيشه الآن، فأنها عصر البخار، ثم عصر الكهرباء، ويفوتها الآن عصر الذرة إزاء هذا يكون رد الفعل حادا، أحيانا يكون بالفزع من مواجهة مستقبل هذا وصفه، وبالهروب إلى الماضى، والدعوة إلى استرجاع عصر كان ذهبيا، فى حين أنه كان ذهبيا فى ظروفه وزمانه وعودته برمته لا يعنى بالضرورة أنه سيكون ذهبيا مرة أخرى، وأحيانا يصل ببعض الشعوب إلى درجة كراهية هذا الماضى المجيد، والرغبة فى تحطيمه كأنه هو العقبة التى تحول دون تقدمها، كما حدث فى الصين خلال ما أسمته بالثورة الثقافية فقاموا يهاجمون كونفوشيوس، ويندون بكل الحكماء الأوائل ويحطمون تماثيلهم وأثارهم الفنية الرائعة الجميلة!

ولاشك أن رد الفعل فى كلتا الحالتين، خطأ..

على الأقل لأسباب ثلاثة:

الموقف من الماضى:

السبب الأول، أن تحطيم الماضى والثورة الشاملة عليه، ومحاولة محوه.. فوق أنه أمر غير ممكن عمليا، فإنه عمل غير منتج، لأن أى حضارة قديمة لا شك أنها تميزت بشئ، وخطت بالإنسانية خطوة، وساهمت بدور فى وضع أسس الحضارة الحديثة التى رناها، ليس فقد فى جوانبها الفلسفية والفكرية، ولكن أيضا فى جوانبها المادية والتطبيقية.

فنحن ننسى مثلا أن اختراع الدبابة كان مستحيلا، لولا سلسلة طويلة جدا،

بدأت منذ آلاف السنين، على يد الفراعنة، حين اخترعوا العجلة الحربية. ونحن نرى اليوم أن العجلة شئ بديهي. ولكن كل شئ يبدو بديهيا بعد اكتشافه وصنعه بزمن. فمن يولد اليوم يجد أن الطائرة مثلا شئ بديهي. ولكنه لم يكن ذلك قبل أقل من عشرين سنة، بل كان مجرد خيال علمي طريف.

ونحن ننسى أنه لولا اختراع الورق فى الصين قبل آلاف السنين، لما أمكن اختراع المطبعة والكتاب، والجريدة، وبالتالى انتشار العلم وجعله ميسرا وفى متناول الملايين.

ونحن ننسى أنه لولا اكتشافات علماء العرب فى الرياضيات والفلك. كالبيرونى وغيره. لما أمكن الوصول إلى النظريات الرياضية الحديثة، وأينشتين، والنسبية، وتحطيم الذرة.

إذن، فالذين يحاولون تحطيم حضارات الماضى القديمة بأسرها، ومحوها محوا.. ينسون مسألة بديهية، وهى أن تلك الحضارات، كان التقدم فيها يمشى على القدمين معا: على التقدم والابتكار فى العلوم العقلية والإنسانية، وعلى التقدم والابتكار فى العلوم التطبيقية. وكلمة التكنولوجيا كلمة جديدة. ولكن معناها قديم. وهو تحويل المعرفة العلمية النظرية إلى نتيجة تطبيقية علمية، يستوى فى ذلك اكتشاف النار من الإنسان الأول مع اكتشاف الإلكترون من قبل الإنسان الحديث.

ولربما كان السبب، فى نسيان الناس لهذه الحقيقة، هو أن العلوم التطبيقية، سريعة التغير بطبيعتها ينسخ أحدهما الآخر ويلغيه ويستغنى عنه كالانتقال من السفينة التى تسير بالشراع إلى السفينة التى تسير بالبخار، إلى السفينة التى تسير بالطاقة الذرية فى حين أن العلوم الإنسانية أطول عمرا وأطول بقاء، وأحيانا إلى درجة الخلود، لأن العلوم الإنسانية فى جانب كبير منها تتناول الإنسان ذاته. وهو أكثر العناصر بقاء وأقلها تغيرا. فى مشاعره وأحاسيسه وغرائزه، والعوامل المؤثرة فى صفاته.

وليس أدل على القيمة الكبرى للماضى بهذا المعنى المتكامل من أننا نجد أن أكثر الدول تقدما وتحضرا ورقيا بمعايير العصر الحديث هى الدول التى تتميز بالمخترعات الحديثة والمظاهر المادية للتقدم، فى نفسها أكثر الدول اهتماما وعناية فى التنقيب عن آثار الماضى مهما كان بعيدا عنها في الزمان والمكان.

اكتشاف جمجمة إنسان ترجع إلى عشرات الآلاف من السنين فـــى أقصـــى أنحاء الأرض، خبر هام ينشر فى الصفحات الأولى من صحف أوروبا وأمريكـــا، ويتجادل فيه العلماء، وتحتدم حوله الاستنتاجات.

الجامعات الأمريكية والأوروبية الكبرى.. هى التى ترسل البعـــوث وتعتمـــد الميزانيات، لعمل الحفريات والتنقيب عن آثار عمرها ألاف السنين فى البحرين، أو فى جزيرة فيلكا أمام شاطئ مدينة الكويت أو فى الكشف تحت تراكمات الزمن فى مدينة قديمة كالقاهرة لدراسة نظم البناء والمعمار وشبكات الماء والمجـــارى فـــى المدن الفاطمية القديمة التى اندثرت.

وحين جاء نابليون إلى مصر ومعه بعثة من أعظم علماء فرنسا ليكشف عن آثار مصر، ويعثر على حجر رشيد، ويفك لغز اللغة الهيروغليفية، لـــتفهم أســـرار حضارة بادت منذ ألاف السنين.. كل هذا ليس ترفا. ولكنه فى جانب أثر من آثـــار غريزة الإنسان فى الحاجة إلى معرفة أمه وأبيه وأصوله، ومن أين جاءت، وفـــى جانب منها إدراك عميق أن الإنسان كلما زاد معرفة تاريخه زاد معرفـــة بنفســـه، وكلما زاد فهمه لماضية زادت قدرته على تصور مستقبلة.

النقطة الثانية، أو رد الفعل الثانى، وهو الفزع من حضارة العصر الحـــديث، بتحدياتها العنيفة والجانب القاسى من ملامحها، ومواجهة ذلك بالهرب إلى الماضى، والاستكانة إلى القديم، والانسياق لحلم غامض بالرجوع إلى عصر كان ذهبيا فـــى أوانه، فهو بدوره رد فعل خاطئ، نفهمه فى الحقيقة من خلال علم النفس، أكثر مما نفهم من خلال مصلحة المجتمع، والأمر هنا يبدو بديهيا لا يحتاج إلى أكثـــر مـــن استخدام العقل السليم، رغم أنه فى العادة – كالحال فى بلادنا – محل خلاف شديد.

فلا يمكن لمجتمع يريد الحياة أن يرجع كلنا اا الوراء. ولا يمكن أن يهرب مجتمع إلى كهف ينام فيه قرونا ثم يصحو ليجد ان الأمور قد تطورت لصـــالحه أو أن الحياة قد توقفت عند لحظة إغفاءته. فكل ترتيب وضعه الإنسان قبل ألف ســـنة ليواجه ظروفا معينة، لا يمكن أن يصلح لورثته بعد ألف سنة. ولا يمكن أن يعفيهم من واجبهم فى ترتيب أمورهم من جديد، اكتفاء بجهد الأجداد والأسلاف العظـــام. فهؤلاء الأسلاف كانوا عظاما لأنهم لم يركنوا إلى ما وجودوه من قـــبلهم ولكـــنهم تقدموا وصنعوا الجديد فى عصرهم، وكل ماضى تندثر منه أشياء وتبقى منه أشياء.

الظروف تتغير باستمرار ولابد من مواجهة الظروف الجديدة بحلول جديدة، الواحة غير القرية غير المدينة الكبيرة الرعاة غير الفلاحين غير العمال المحتشدين فى المصانع والمحكومين بالآلات.

تبقى من الماضى قيم أساسية. وقسمات خاصة بكل شعب كانت لـه فترات حضارية عظيمة. وتكوين نفسى عام نتيجة الرسالة السماوية، وأحداث التاريخ، وحقائق الجغرافيا الباقية، والامتحانات التى مر بها. ولكن يتغير أسلوب الحياة وأنماط السلوك بتغير شكل الإنتاج وأسلوب التجمع السكانى وقدرات العلوم والاكتشافات المتتالية.

ولو أننا احتكمنا إلى المنطق المجرد، لقلنا إن الأمة التى كانت لها حضارة عظيمة وتاريخ مجيد، هى التى يجب أن تكون أسرع فى اليقظة من سباتها، والتخلص من عوامل تخلفها، والانطلاق إلى التقدم ولكن كثيرين من علماء وخبراء التنمية المعاصرين يلاحظون أن العكس هو الذى يحدث فى حالات كثيرة فالمجتمع البادئ من نقطة ليس لها تاريخ، يتحرك بسرعة أكبر، لأنه ليس لديه ما يجعله ينظر إلى الوراء وليس له هوية قديمة يحرص على الاحتفاظ بها وهو يقتحم مغامرة التقدم.

والمثل على هذا فى العصر الحديث نجده فى المقارنة بين السرعة التى اندفعت بها الولايات المتحدة الأمريكية والبطء النسبى الذى سارت به أوروبا وهى الأم فى كل مجال تفوقت فيه أمريكا.

ذلك أن أمريكا بدأت بالمهاجرين. المهاجرون جاءوا إليها هربا من ماضيهم فى أوروبا، كطريقة للفرار من سيئاته ومعوقاته. الاضطهاد الدينى، الحروب الوطنية العصابات الإقليمية، النظام الطبقى.. كل هذه الملامح الأوروبية فر منها مهاجرون، ارتادوا أمريكا، يعملون فقط بغير هذه العقد، كل فرد حر فى دينه الولايات التى تكونت هناك التحمت فى بساطة شديدة فى وطن واحد كبير البوتقة صهرت الفرنسى والألمانى والإنجليزى والأسبانى الذين ظلوا فى أوروبا قبل ذلك وبعد ذلك يتحاربون. امتيازات الوراثة لم توجد – وليس صدفة – ولادة أول نظام جمهورى هناك. الفرصة المتكافئة كقاعدة فى المجتمع بدأت هناك من جديد.

ولست أنسى دهشة ذلك الصديق من كندا كلما قلت له فى القاهرة هذا المبنى عمره ألف فالبلاد ذات الحضارات الذهبية القديمة – مثلنا – تواجه فى الواقع

معادلة لابد من حلها.

فإلغاء التاريخ عبث، والسكنى بين مقابره وأثاره انتحار. إنما لابد من الإسراع بإيجاد صيغة تجمع بين القدرة على استيعاب التراث ومواجهة المستقبل.

وهذا لا يكون إلا بمعاملة التراث معاملة انتقاء. لا معاملة اكتفاء وانكفاء. والتوجه إلى المستقبل فى شجاعة وليس فى خوف واتقاء.

ولعله مما يسهل علينا هذا، أن ندرك ما ننساه فى نظرتنا إلى الحضارات القديمة، من أن التقدم فيها كان إنسانيا وماديا على السواء كما ذكرت من قبل، تماما كأى حضارة حديثة.

وهذا ينقلنا إلى النقطة الثالثة.. وهى أننا كثيرا ما ننسى أن الحضارة الحديثة الراهنة، هى أيضا قامت كسابقاتها على أساس من التقدم فى الناحيتين: العلوم التطبيقية أو التكنولوجية على السواء .

لا شك أن الحضارة الحديثة، بحكم التقدم العملي المتسارع، تبدى من نفسها للناس وجها طاغيا فى ماديته. الأمر الذى جعل الكثيرين يظنون أن هذا الجانب المادى الساحق هو الحضارة كلها، فالتقدم التكنولوجى الذى تم فى مائتى سنة لم يرث مثله فى ألف سنة قبل ذلك ظل الإنسان آلاف السنين مثلا يركب الدواب أو ما تجره الدواب، ولكن الإنسان فى خمسين سنة، أى فى عمر متوسط الإنسان، عرف الدراجة والسيارة والقطار والطائرة والغواصة والصاروخ والأقمار الصناعية.

هذا الوجه الطاغى فى ماديته للحضارة الحديثة، كان من خصائصه أيضا إيجاد تسهيلات مباشرة للحياة اليومية للفرد العادى فقصور الأباطرة والملوك والأمراء عبر آلاف السنين لم تكن فيها التسهيلات الموجودة فى بيت أى فرد بسيط من مياه جارية وإضاءة سهلة نقية بالكهرباء ومصاعد وثلاجات وسخانات وأجهزة تكييف الهواء وتغسل الأوانى والثياب وراديو وتليفزيون وأجهزة تنقل الأخبار والأصوات والصور عبر آلاف الأميال فى ثوان.

هذا كله رسخ فى أذهان كثيرة أن الحضارة الآن هى إعادة فى كل مظاهرها. وأنها كلها خرجت من معامل الباحثين فى العلوم التطبيقية والتكنولوجية.

وهذا خطأ كبير...

فهذه الحضارة الحديثة كغيرها من قبل قامت على العلوم الإنسانية والتطبيقية معا. عصر النهضة عرف الرسامين العظام والأدباء والفلاسفة الكبار جنبا إلى جنب مع العملاء ولو اخترنا رمزا لوجوب أن نذكر ليوناردو دافنشى رسام عصر النهضة الذى كان يرسم أجمل اللوحات ويرسم نماذج علمية للغواصة والكبارى المعلقة وغيرها، الحضارة الحديثة صنعتها ريشة رافاييللو وبيكاسو كما صنعتها موسيقى بتهوفن وكما صنعتها فلسفة ديكارت وهيجل وكما صنعتها تجارب أديسون وماركونى، ورياضيات إينشتين وصواريخ فون براون وقنابل اوبنهايمر الأمريكى وزخارف الروسى الذرية والهيدروجينية، ومطبعة جوتنبرج وأدب فولتير والفكر السياسى لتوماس جفرسون وأبحاث فرويد ويونج فى نفس الإنسان، مهما كانت محل خلاف أو اتفاق.

إن الحضارة كل لا يتجزأ. إنها تربة واحدة تنتج زهورا مختلفة لكنها متسقة متكاملة. إنها مجموعة قيم، بخيرها وشرها، يفلسفها الفكر وترعاها العلوم الاجتماعية وتدعمها العلوم التكنولوجية، ولا يتصور قيام تحضر أعرج يعتمد على عنصر واحد دون سائر العناصر التى تعطى الظاهرة الاجتماعية اسم الحضارة. وتعطى كلمة الحضارة معناها وترسم لها مسيرها، نموها أو اندثارها.

ولقد استنفذت فيما يبدو الصفحات التى لى، فى الحديث عن قضية واحدة من القضيتين اللتين أثارتهما مناقشة عن بناء دار للأوبرا..

أردت أن أقول إن إقامة مجمع فنى رفيع لا يقل قيمة وأهمية عن إقامة "معمل أبحاث" رفيع، والظن بأن الثانى يعطى بمفرده نتائج ملموسة محسوسة مادية يمكن أن تكون وحدها حضارة، ظن خاطئ..

أما القضية الثانية، قضية النخبة والجماهير "فيبدو أنه لابد من تركها لحديث آخر.

استعمار التاريخ.. والحوار بين الحضارات!
حديث عن الماضى، من أجل الحاضر والمستقبل

"عندما هزم شارل مارتل الفرسان العرب فى بواتييه سنة ٧٣٢، بدأ تراجع الحضارة العربية أمام الهمجية الأوربية".

أناتول فرانس:

فى كتاب "الحياة بالزهور"

يبدو أنه لا يوجد فى عالم اليوم مفكر واحد راض، أو متفائل. ولا نتحدث طبعاً عن أولئك "الكتبة" لا "الكتاب" الذين يملأون الصحائف كل يوم إما بتملق حكامهم أو بتملق قرائهم أو بتملق أنفسهم. هؤلاء الذين يعيشون بالغرائز لا بالمشاعر. بالنقل لا بالعقل ربما كانوا أحد أوبئة الحضارة التى جعلت النشر سهلاً واسعاً ميسراً ولم يعد "بابا ضيقا" كما كان الأمر فى الماضى عندما كان لا يظهر إلا الجديرون، الذين يشقون ويتعبون ويرهقون الناس معهم، عملا بكلمة الإنجيل "أجهدوا للدخول من الباب الضيق".

وليست هذه الظاهرة ولا هؤلاء "الكتبة" هم موضوع حديثنا هذا. ولكن العذر هو أن المرء يضطر أحيانا وهو يتحدث إلى أن "يهش الذباب"!...

***

ومن هذه الأرواح القلقة، التى يفيدنا قلقها خصبا ومعرفة وتأملا، مفكر فرنسى لأعماله صلة وثيقة بالعصر كله من جهة، وبعالمنا العربى بالذات من جهة أخرى، وهو روجيه جارودى.

كان روجيه جارودى معظم حياته عضوا فى الحزب الشيوعى الفرنسى، حتى صار أهم مفكريه، وأشهر أعضاء قيادته المتمثلة فى المكتب السياسى، ولكنه بدأ تحت وطأة صدمات العصر الحديث ومطارق العلم ودوار التغيير السريع.. بدأ يعيد النظر، ويقلب الفكر، ولم يكن هذا مما يتسق مع وضعه القيادى فى حزب حديدى، ففصل من الحزب الشيوعى الفرنسى، بعد محاكمة "فكرية" شهيرة.

وقد أصدر بعدها كتاباً أحدث ضجة واسعة، إذ سجل نقطة خلافه الأساسية مع الفكر الماركسى التقليدى عنوانه البديل L'Alternative ولكن قضايا هذا الكتاب ليست موضوع هذا الحديث.

ولكن موضوعنا هو ثلاثة كتب أخرى له، متكاملة أو متداخلة:

أولها: كلمات إنسان Parole D'Homme.

وثانيها: من أجل حوار بين الحضارات Pour Un Dialogue Des Civilisation.

وثالثها: (وقد صدر أخيرا): كيف يصبح الإنسان إنسانيا؟' Comment l'Homme Devient Humain.

والكتاب الثالث لم يصلنا بعد. ولكن بين أيدينا أجزاء كثيرة نشرت منه، ومناقشات دارت حوله إلى جانب الكتابين الأولين..

ببساطة شديدة يقول الكاتب المفكر الفرنسى لجمهوره الغربى: إن كل مصائب الدنيا مصدرها أن العالم الغربى يظن أنه صاحب الحضارة العظمى ومصدر كل التقدم فى هذه الدنيا لمجرد انه – اليوم – هو الأقوى، وهو المصدر...

ويطلق جارودى صيحة أذهلت مواطنيه: إن الغرب مجرد صدفة!..L'occident Est. Un Accident! فالغرب ليس تعريفا جغرافياً، ولكنه تلك المجموعة من القيم والقوى والثقافات و الماديات التى تميزه كحضارة متقدمة فى عصرنا الراهن.

ولكن حضارة الغرب لم تولد من العدم. ولكنها كأى شئ له اصل وله جذور.. ولو نظرنا نظرة صحيحة فاحصة إلى كل ما لدى الغرب اليوم، وما يشعه على العالم، من أفكار ومبادئ ونظم وفنون وماديات، فسنجد له جذورا فى حضارات أخرى...

ثم إن الغرب – كحضارة حديثة – عمره لا يزيد عن مائتى سنة! ومع ذلك فهو يبدو على وشك أن يجر العالم إلى الهلاك بمخترعاته الذرية واستخداماته للقوة الغاشمة.

فهو لم يثبت بعد قدرته حتى على البقاء زمناً طويلاً. لان حضارة المصريين القدماء، عاشت زاهرة ثلاثة آلاف سنة. ولان حضارة الصين عاشت ألفين – لا مائتين – من السنين!.

وبالتالي فهو يرى أن الحضارة الغربية قد أثبتت أنها عاجزة عن قيادة العالم.

والحل هو "أولا" أن تدرك هذه الحضارة الغربية حجمها الحقيقي بين حضارات العالم الأخرى. و "الثاني" أن يقوم حوار بين الحضارات، تتبادل فيه مفاهيمها ومثلها وقيمها وتجاربها، وعلى قدم المساواة، حتى يصبح ممكناً أن يعيش العالم فى سلام...

ولكن، متى بدأ روجيه جارودى الفرنسى، الماركسى، هذا الانعطاف الهام؟.

يقول ردا على ذلك: انه تدرج فى نفسه طويلاً وببطء. وبدأ بلقائه الأول بالحضارة العربية الإسلامية.. "بدأ اهتمامى الأول بهذا الموضوع سنة ١٩٤٧ حين أصدرت كتابا صغيراً بعنوان "محاولة تاريخية لفهم الحضارة العربية".. وقد أسعدني أن أعرف أن بعض الشباب الوطنى فى مصر ترجمه وقدمه لجمال عبد الناصر. ولكن، سبق لى قبل ذلك حادث لا أنساه أبداً: فى سبتمبر ١٩٤٠، خلال الاحتلال الألمانى لفرنسا، كنت شيوعيا اعمل في المقاومة ضد حكومة فيشى، فالقى القبض على وأرسلونى إلى معسكر اعتقال عند واحة "غرداية" فى قلب صحراء الجزائر الكبرى.؟ وبعد وقت قصير، قمنا بحركة تمرد فى المعتقل، وأمر الضباط جنودهم الجزائريين بإطلاق النار علينا وقتلنا. كان عمرى سبعا وعشرين سنة. ولكن الجنود الجزائريين العرب رفضوا إطلاق النار. فانا عشت بعد ذلك بفضلهم".

ويقول جارودى: انه ليس أول من قال بهذا الرأى، وإن كان هو قد عكف على شرحه وقرر جعله موضوع ما تبقى من حياته..

ثم يذكرنا بكلمة قالها الكاتب الفرنسي الشهير "أناتول فرانس": "أن أهم تاريخ فى حياة فرنسا هو معركة بواتييه سنة ٧٣٢ ميلادية، حين هزم شارل مارتل

جيوش الوالى عبد الرحمن، ففى ذلك التاريخ بدأ تراجع الحضارة العربيـة أمـام البربرية الأوروبية!".

ويروى جارودى انه استشهد بهذه الجملة فى محاضرة له فى تـونس سـنة ١٩٥٥. وكانت تونس ما تزال تحت الاحتلال الفرنسى. وفى اليوم التالى طردتـه السلطات الفرنسية من تونس بتهمة قيامه بدعايات مضادة لفرنسا!.

***

ويشرح روجيه جارودى في إسهاب لماذا يعتبر "الغرب.. صدفة".. فى كتابه "حوار بين الحضارات".

وإذا رجعنا إلى قول "بول فاليرى" إن الغرب قد صنعته ثلاثة عناصر:

أخلاقيا: المسيحية، والكاثوليكية بالذات.

سياسيا وقانونيا: روما وقوانينها.

فكريا وفنيا: الإغريق.

فانه يمكن القول أن المسيحية ولدت فـي آسـيا، وأن حضـارة الإغريـق والرومان ولدت في حجر البحر الأبيض، وبتأثير شديد جدا من شـواطئ إفريقيـا وآسيا.. فكلها عناصر "شرقية"، خارج "الغرب" بمعناه المعاصر..

ويقول جارودى إن حضارة أوروبا نبتت جذورها كلها لأول مرة فى إفريقيا وآسيا: وبالتحديد في مصر، وبلاد ما بين النهرين (العراق)..

فروح حضارة الغرب ومنطلقها هو التوجه نحو سيطرة الإنسان على عوامل الطبيعة، وعلى ذاته وإعلائها..

ولكن في بلاد ما بين النهرين، ومنذ خمسة آلاف سنة قبل "الياذة هوميروس"، يرفع الستار عن أسطورة "جلجامش". التي تتحدث عن مارد ثلثه إنسان وثلثاه الـه، ظهر في مدينة "أور" بعد الطوفان، ورحل إلى أرض الأنهار الخمسة، حيث تجرى الأسطورة متحدثة عن كل أشواق الإنسان إلى تحدى الطبيعة والسـيطرة عليهـا، وتجاوز إمكانياته كبشر.. فمنذ أربعة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح، كان "فاوسـت" الذى ألفه "جوته" واتخذ رمزا لروح الغرب، قد ظهر في أسطورة "جلجامش".

وحين سئل جلجامش فى الأسطورة العراقية القديمة "ولماذا تحاول المستحيل؟" رد قائلا "إذا كان هذا الأمر لا تجوز محاولته، فلماذا اتقدت فى نفسى نار القلق والرغبة فيه؟".

ذلك هو أساس كل حضارة الغرب، التى تناقلها بعد ذلك فلاسفة الإغريق حتى أوصلوها إلى أوروبا.

أما "الجرثومة" الأخرى للفلسفة الإغريقية التى ولدت فى فينيقيا وكريت وخصوصاً عن طريق أفلاطون فنجدها فى مصر.

فالفلاسفة والمؤرخون الإغريق تأثروا تأثراً كبيرا وأعجبوا إعجابا عميقا بمصر القديمة. وفكرة أفلاطون التى ألهمت أوروبا عن الدولة الفاضلة التى تجمع بين الاستقرار السياسى والديمقراطية الحية، كان وحيه فيها من مصر، ألهمت مصر كل تجارب الإغريق.

فلو فحصنا ما أنجزه الإغريق. بدءاً من فن النحت إلى الفلسفة إلى السياسة نجد تأثرهم العميق بمصر وتمثلهم الدائم بها.

ويضرب جارودى المثل بثلاث "مساهمات" مصرية قديمة أساسية فى تراث الإنسانية كلها:

الأولى: أسطورة أوزوريس الذى يقاوم الطبيعة فيمزقه أعداؤه إلى قطع ينثرونها فى الوادى كله، ثم تجمعه من جديد. موجهة بفكرة البعث، أخته إيزيس بحبها ودموعها عبر سنوات المعاناة الطويلة، فهى أول حديث عن رموز العلاقة اللانهائية بين الإنسان، والطبيعة والآلهة..

والثانية: "كتاب الموتى"، ثم صراع الفراعنة التاريخى ضد الموت بفكرة إقامة مبان تدوم إذا فنى الإنسان، وتسجل طابعه وعمله دهورا بعده، كالأهرامات وقبور وادى الملوك وهى فكرة جوهرية فى حضارة الغرب.

والثالثة: اخناتون الفرعون الذى مات فى الثلاثين من عمره بعد أن اكتشف أول فكرة انقلابية فى التاريخ وهى عقيدة التوحيد، بعد تعدد الآلهة التى نجدها بعد ذلك فى فلسفة الإغريق وفى التوراة.

ويضيف جارودى فضلا ثالثا إلى اخناتون، فيقول انه أول من رفع المـرأة، فبدت فى تماثيله جالسة على حجره، وقد نقش على الجرانيت أول قصائد حب.

"هكذا نجد جذور الغرب وقد تشكلت فى مصر وبلاد ما بين النهرين: صراع الإنسان ضد الطبيعة للسيطرة عليها، ونضاله لكى ينفرد من بين كـل المخلوقـات بصفاته، وبقدرته على التفكير المجرد.. وكل محاولة لقطع جـذور الغـرب عـن جذوره الشرقية لا تؤدى إلا إلى افتقار الإنسان" .

أما ما تسميه كل المراجع "عصر النهضة" فى أوروبـا فهـو عصـر نمـو الرأسمالية وبدء الاستعمار. هو بداية صعود الغرب ولكنه كان بداية تـدمير هـذا الغرب نفسه لحضارات أخرى أرقى من حضارة الغرب. سواء فى علاقة الإنسان بالله، أو علاقة الإنسان بالطبيعة أو فى علاقة الإنسان بالمجتمع.. وهى العناصـر التى تحدد رقى أى حضارة..

وقد فعل الغرب ذلك عن طريق شئ أساسى وهو: تفوقه فى استخدام القـوة العسكرية دون أى نوع آخر من القوى ذات العلاقة بالتقدم والرقى.

ويحلل جارودى حضارة الغرب الراهنة – السائدة – تحليلا فلسفيا طـويلا، نحاول تبسيطه فى قوله أولا: إن تاريخ الإنسان يتلخص فى ثلاث مراحل:

الأولى: مرحلة سيطرة الطبيعة على الإنسان.. أى حين كان الإنسان يصارع عن مركز ضعفه ضد قوى الطبيعة الأقوى منه.

الثانية: مرحلة سيطرة الإنسان على الطبيعة.. وهى حين نجح الإنسان فى التقدم بدرجة سمحت له باستئناس الطبيعة إلى حد كبير بما أوتى من عقل وعلم وحضارة.

والثالثة: وهى التى نعيشها حاليا ويسميها "مرحلة محاولة سيطرة الإنسـان على نفسه" ذلك أن الإنسان بما وصل إليه من تقدم وعلم وصـناعة أطلـق قـوى تدميرية هائلة من عقالها باتت تشوه حياته وتدمر بيئته ومقوماته وتهدد وجوده ذاته والنتيجة فى هذا الصراع الأخير مشكوك فيها!.

والمرحلة الثالثة، مسئولة عنها حضارة الغرب، بتخليها عن القيم المشـتركة مع الحضارات الأخرى والمستلهمة منها.

وبأسلوب آخر.. إن حضارة الغرب قامت من ثلاثة منطلقات.

أولوية العمل كقيمة أساسية ("والعمل" كما يقول تقليدى بورجوازى وقيمة اشتراكية).

وأولوية العقل بوصفه أداة حل كل المشاكل والرد على كل الأسئلة.

وأولوية القيمة التى سماها هيجل "باللامتناهى".

ولكن هذه القيم تحولت وشوهت بحيث ركزت كلها على الذكاء.. ولم تترك مجالا للحب، والشعور، والضمير..

والأولويات الثلاث صارت أثقالا، لا حوافز..

قيمة العمل تحولت إلى خضوع الإنسان للاستهلاك.

قيمة العقل تحولت إلى خضوع الروح للذكاء.

وقيمة اللامتناهى تحولت من الكيف إلى الكم.

والسؤال الوحيد الذى يطرحه الآن الإنسان على نفسه كل ساعة إزاء أى مشكلة أو موقف هو: "كيف"؟.

ولم يعد أحدا يسأل أبدا السؤال الأكثر أساسية وإنسانية وهو: "لماذا؟".

وفى فصل هام عن "الفرص الضائعة" يتحدث جارودى فى إسهاب عن ضياع فرص تأثر الغرب باطراد وتواصل الحضارات الأخرى. وقد يكفى هنا أن نضرب مثلا بحديثه عن حضارتنا العربية.. وعن تزوير الاستعمار الغربى للتاريخ بتصويره التوسع العربى، منذ القرن الثامن الميلادى، على انه موجة من موجات "البربرية الآسيوية" التى هددت الغرب!.

هذا فى حين أن الغزاة الإنجليز والفرنسيين والأسبان هم الذين دخلوا أرض الإسلام مدمرين للحضارة العربية فى كل أشكالها.

".. إن ما يسميه الغرب " بغزو أسبانيا" لم يكن غزوا عسكريا فقط كغزوات الأوربيين فأسبانيا كان فيها من السكان عشرة ملايين ولم يدخلها من الفرسان العرب أكثر من خمسين ألف فارس.. ولو كان الأمر حربا فقط لما نجحوا. ولكن تفوق حضارة على أخرى كان هو عنصر النجاح الساحق".

"وما فعله العرب فى أسبانيا يجعلنا نفهم ما فعله ماوتسى تونج فى الصين"!! أتى بنظام اجتماعى أرقى. حرر العبيد وانهى الرق وسوى الحقوق ودعم النظام. وعلى أنقاض الفوضى الإقطاعية أقام العرب أعظم مساقط المياه فى ذلك العصر وأغنى البساتين القائمة إلى الآن.

"وما رأيته في تونس.. من آثار عربية قديمة تدل على سابق الازدهار ومن واقع – خلال الاحتلال الفرنسى – ينم عن الإفقار والدمار.. يعطينا صورة ساطعة عن الفرق بين حكم الأغالبة فى شمال إفريقيا، وحكم الفرنسيين.

"الحضارة التى زرعها العرب عندنا فى أوروبا وبالقرب منا فى أفريقيا تمتد جذورها إلى الشرق فى آسيا. وحين سافر الفرنسى "جيربر" إلى معاهد الشرق وعاد حاملا علومه قال الناس فى أوروبا انه قد اتصل بالجن لكثرة معارفه! وبعد قليل جعلوه بابا على روما باسم البابا سيلفيستر الثانى.

"ونحن مدينون للعرب بأول كليات الطب. وأولها كلية الطب فى مونبليه الفرنسية. وحتى القرن التاسع عشر كانوا يدرسون فى جامعات فرنسا وإنجلترا بإسهاب علوم الطب العربية، ومؤلفات الرازى..

ولكن منذ انتصار شارل مارتل على العرب فى بواتييه تكونت لدى أوروبا عقدة اسمها "حماية الحضارة الغربية من البرابرة!".

إن كتب التعليم تلقن الأوروبيين منذ طفولتهم أن بواتييه كانت نقطة تحول إذ طردت الهمج عن أوروبا المتحضرة. وهذا هو استعمار التاريخ بعينه. فالواقع هو العكس. فهزيمة العرب ضيعت على فرنسا وأوروبا فرصة الالتقاط المبكر لحضارة العرب... وأخرت أوروبا عشرة قرون على الأقل.. حتى بدأت أوروبا ترى النور بعد القرون الوسطى!.

***

ولست هنا فى مجال الاستشهاد بأقوال جارودى عن مآثر العرب، وقلب أوروبا لحقائق التاريخ، أو استعمار التاريخ كما قال بحق، فالأمثلة كثيرة..

ولكن المهم انه يستشهد بنفس الأسلوب بحضارات أخرى غير الإسلام، أهمها الصين. وعدم الاستفادة منها. إنها فكرة عداء الحضارات لا تكاملها..

المهم هو المشروع الذى نذر جارودى ما استقبل من حياته له وهو:

نزع استعمار التاريخ، وتصحيحه..

وإقامة حوار بين الحضارات كلها.

وبكلماته "كيف يمكن بناء تاريخ لا تحتكره حضارة واحدة؟".

إنه يرى فى هذا المشروع الخلاص الوحيد للبشرية من خطر الفناء، فهل نشاركه هذا المشروع؟.

بعد كتابة هذا الحديث، أنهى جارودى رحلته الفكرية القلقة، باعتناق الإسلام، والحج إلى بيت الله الحرام، وتغيير اسمه إلى "رجاء جارودى".

نحن.. والآخرون

نحن نعيش الحرب الصليبية العاشرة

نحن نعيش الآن الحرب الصليبية العاشرة؟

استنتاج مؤسف، لا يتمكن من يقرأ التاريخ، ومن يدرس ويحلل الحاضر من منظور تاريخي، إلا أن يصل إليه..

وأبادر فأقول إن الكاتب إذا كان مضطراً إلى استخدام هذا التعبير الكريه، تعبير "الحروب الصليبية".. فلأن هذا هو الاسم التاريخى للحروب الصليبية الغابرة، ولأنه فعلا وعندما بدأت قبل قرون من غرب أوروبا ضد العالم العربى والإسلامى، جاءت جيوش الغزو تحت راية الصليب وبشعار استرداد الأراضى المقدسة من "المسلمين"، وتحت رعاية البابا فى روما، وحاكم ورئيس كنيسة الإمبراطورية البيزنطية...

ولكن الصيغة الدينية لهذه الحروب، كانت تقل مع الزمن ويبرز من خلفها جوهرها الحقيقى، وهو بداية تحرك أوروبا إلى الاستعمار والاستغلال الاقتصادى، وتنافس ملوكها وأمرائها فى هذا المجال..

ولا نحتاج إلى الغوص وراء أدلة كثيرة قد تجرفنا عن جوهر هذا الحديث، ولكن يكفى أن نحتكم إلى مرجع غربى واحد، دقيق، يزن الكلمة والسطر، ولا يتهم بالتحيز للعرب والإسلام، بل العكس، وهو " لانسيكلوبيديا بريتانيكا"، أو دائرة المعارف البريطانية...

فهى فى مفتتح حديثها عن الحروب الصليبية تقول أن السبب الأول هو اضطراب الأمن فى الأناضول (تركيا) مما كان يزعج قوافل الحجاج الأوروبيين الذاهبين إلى القدس، وكان الأناضول فى ذلك الوقت، القرن الحادى عشر، محل صراع بين الأتراك والبيزنطيين. والسبب الثانى، والأساسى، الذى تشرحه الانسيكلوبيديا هو أن أوروبا بعد أن انتهت من حروبها مع القبائل الغازية – المجيار والفايكنجز وغيرهم، وبعد أن تمت مسيحيتها، انتعشت فيها التجارة، وزادت حركة المال، وكان لابد من مجال "لإطلاق القوة الزائدة فى غرب أوروبا من عقالها"،

تعبير مهذب عن الاتجاه إلى الخارج، وراء المستعمرات.

الدليل الثانى ما نجده فى صفحات تاريخ الحروب الصليبية من صراع بين ملوك وأمراء أوروبا الغزاة، لا على القدس وكنيسة القيامة كما زعموا، لكن على اقتسام أجزاء واسعة من المشرق العربى الإسلامى، صراع تضاءلت إلى جانبه الرغبة فى تحرير القدس وغيرها من الاماكن المقدسة..

والدليل الثالث أنهم حين دخلوا القدس مثلا ذبحوا "المسلمين واليهود" كما تقول دائرة المعارف البريطانية أيضا. ونضيف إلى ذلك أنهم حرموا على اليهود سكنى القدس حتى حررها صلاح الدين الأيوبى بعد ما يقرب من مائة سنة. والأهم من ذلك قول دائرة المعارف البريطانية أن المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين اشتركوا فى مقاومة الغزو الأوروبى البيزنطى المشترك، ورفضوا الخضوع لهذه الكنيسة أو تلك، وحين سقطت إمبراطورية بيزنطة كلها "قبل المسيحيون الشرقيون حكم المسلمين".

وتعترف دائرة المعارف البريطانية فى تحليلها لنتائج الحروب الصليبية كلها – الحملات الثمانية خلال خمسة قرون – باب المشرق العربى الإسلامى لم يكن يعرف التعصب ضد أى دين قط، قبل أن تداهمه أوروبا بهذه الحروب، وأن الحروب الصليبية، وتنكيلها الوحشى بالمسلمين واليهود وأحيانا بالمسيحيين العرب، هى التى تسببت فى حالات الاضطهاد الدينى بعد ذلك، كنوع من رد الفعل.

فأوروبا سعيا وراء مصالحها المادية، هى التى صدرت إلى بعض بلاد المشرق بعض صور التعصب الدينى، الذى كانت أوروبا تتوسل به كأسلوب لتبرير السيطرة والنفوذ.

وأيضا، وفى تحليل دائرة المعارف البريطانية لآثار كل هذه الحروب الصليبية طوال قرون، تقول أن أوروبا أخذت عن العالم الإسلامى الكثير من العلوم والفنون والصناعات التى كانت تجهلها، وحملت إلى أوروبا البضائع الشرقية والنظم الغريبة عليهم على السواء. وازدهرت التجارة والملاحة عبر البحر الأبيض، ثم يقول نفس المصدر أن أوروبا لم تقدم للشرق العربى الإسلامى أى شئ له قيمة حضارية، لان أوروبا ذلك العصر لم يكن لديها ما تقدمه! وان كثيرين من الأمراء الذين جاءوا معتقدين أن المسلمين برابرة متخلفون، دهشوا حين وجدوا أن

لديهم كل هذه المظاهر للحضارة والتقدم والنظم التى لا تعرفها أوروبا!.

المهم نعود إلى ما أسلفت ذكره من أن اهتمام أوروبا بالاحتفاظ بالقدس – وهو حجة الحروب الصليبية كلها – تضاءل إزاء اهتمامها باستعمار المشرق، بدليل أن كثيرا من الحملات – أو معظمها – استهدف إقامة ما يسمى "دولا لاتينية" فى المشرق، فاهتموا بغزو إنطاكية، وحلب، والموصل فى العراق، ودمشق، بل وحين وجدوا أن مصر تلعب دورا فى مساندة المشرق، شنت بعض الحملات الصليبية، بقصد الاستيلاء على الدلتا والوصول إلى القاهرة.

وفى إحدى الحملات تحالفوا مع المغول – الوثنيين – ليحصروا المنطقة العربية الإسلامية من الشرق والغرب. واهتم المغول بعد ذلك – لأسباب خاصة بهم – بالاندفاع من اجل اكتساح العالم العربى الإسلامى، فدمروا بغداد، ودخلوا دمشق، حتى تجمعت كلمة العرب المسلمين وهزموهم فى الموقعة التى غيرت وجه التاريخ.. "عين جالوت" بالقرب من مدينة الناصرة الفلسطينية الآن. وكان قائد المغول فى تلك المعركة قائدا أوروبيا مسيحيا بعثه الأوروبيون إلى المغول ليحسن قيادتهم!.

كانت أوروبا فى ذلك الوقت تقلل من حروبها الدينية الداخلية، وخلافاتها، وتزداد قوة، وتتجه إلى الخارج..

وكان العالم العربى الإسلامى على العكس، قد وصل إلى قمة الحضارة، ولكنه بدأ مرحلة التفكك والخلافات الإقليمية والصراعات...

ولهذا فكرت أوروبا فى هدفها الذى لم يتغير من وقتها: غزو الشرق. أو فى القليل إقامة دويلات أوروبية فيه، منها تتحكم فى بقية تلك المنطقة الاستراتيجية، الغنية، القريبة منها...

فى سنة ١٠٨٥، انهار الوضع الإسلامى فى الأندلس، إذ سقطت طليطلة...

وفى سنة ١٠٨٧، احتل أهل "جنوا" الإيطالية مدينة "المهدية" فى تونس...

وفى سنة ١٠٩١، طرد الأوربيون المسلمين العرب من جزيرة صقلية..

"مد" أوروبى متصل.. و "جزر" عربى إسلامى.. وتأمل التسلسل التاريخى الذى أسلفت ذكره..

وقد كان طبيعيا، بعد ذلك أن تبدأ أول "حملة صليبية" لغزو قلب الشرق كله،

سنة ١٠٩٥ ميلادية!.

لقد استقر فى كتب التاريخ كلها، أن الحروب أو الحملات الصليبية فى التاريخ، عددها ثمانية..

وليس هذا مجال التاريخ لهذه الحروب الطويلة المعقدة المتشابكة، ولكن ربما لم يكن هناك مفر من سرد الحروب الثمانية، سردا يوحى لنا بالعبرة فقط، ولكى نصل إلى الإضافات التى توضح كيف أننا نعيش الحرب العاشرة.

وسوف نلمح من هذا السرد كيف أن الأغراض الدنيوية كانت فيها أقوى من الأغراض الدينية، كما سوف نلمح أن هزائم العرب كانت مرهونة بخلافاتهم، وان انتصاراتهم كانت تتوقف على تضامنهم.

لقد بدأت فكرة أول حرب صليبية من التقاء رغبتين: رغبة "الكسيوس الأول" حاكم بيزنطة فى الاستعانة بجيوش غرب أوروبا ضد غزو الأتراك السلاجقة للأناضول وانتزاعهم أجزاء من بيزنطة.. ورغبة البابا أوربان الثانى فى روما، فى إعادة توحيد الكنيسة البيزنطية والكنيسة الرومانية تحت رئاسته. فوجد أن إرسال جيوش أوروبا تحت شعار تحرير الأراضى المقدسة، سيكون وسيلة سهلة لعبور جيوش أوروبا الكاثوليكية إلى بيزنطة وما بعدها، وبالتالى ضم الكنيستين مع الوقت بعد أن يتم "إنقاذ بيزنطة". فأوعز إلى ملوك وأمراء غرب أوروبا بتجييش الجيوش والاتجاه شرقا لهذا السبب.

١- وتحركت أول حملة صليبية، بكل الحماسة الدينية لدى الأهالى والجنود، وكانت بقيادة "بوهيموند" أحد ملوك فرنسا..

ولكن ما إن وصل "بوهيموند" إلى "إنطاكية" – وهى ليست أرضا مقدسة – حتى أقام ما سماه "أول دولة لاتينية" فى الشرق. وغضب بابا روما. لان هذا سيثير مخاوف بيزنطة قبل الأوان، ولكن بوهيموند لم يلق بالا إلى هذا الغضب، فالمهم هو وضع "مسمار" غربى فى المنطقة. وقد سقطت إنطاكية فى يوم ٥ يونيو آخر، سنة ١٠٩٨!!

وكانت المنطقة العربية الإسلامية تحكمها النزاعات بين الولايات والحكام. وقد تمزقت وحدة الدولة. وصار وجود الخليفة العباسى فى بغداد شكليا..

وكان ثمة صراع – وقتال – بين المسلمين السنة فى الشام والمسلمين الشيعة – الفاطميون – فى مصر. وكان الفاطميون قد انتزعوا القدس لمدة سنة، ووصلت

جيوش الحملة الصليبية إلى أسوار القدس والأمور على هذا النحو، وفى ١٥ يوليو ١٠٩٩ اقتحموا القدس، وقاموا بأكبر مذبحة رهيبة ضد المسلمين واليهود وبعض المسيحيين الشرقيين. ومرة أخرى أقاموا حول القدس – مثل إنطاكية – دولة لاتينية، ورفضوا أن يسلموها للكنيسة أو للحكومة الدينية، بل طبق الأمراء الغزاة فيها نفس نظام الإقطاع الذى كان يسود أوروبا.

وبنفس المنطق، وإزاء تفكك المسلمين العرب، وتعاظم مطامع الملوك والأمراء والتجار الأوروبيين، أسفرت الحرب الصليبية الأولى عن إقامة عدة دويلات لاتينية عواصمها إنطاكية – القدس – طرابلس.. شملت الشواطئ السورية واللبنانية والفلسطينية كما نعرفها الآن.

كانت إقامة هذه الدويلات – بمثابة إقامة أوروبا والغرب لدولة إسرائيل سنة ١٩٤٨: فأوروبا المسيحية هى التى أقامت إسرائيل اليهودية. ولكن الدين ليس هو القضية، إنما كانت القضية كما تعرف الآن سياسية استراتيجية اقتصادية: موقع متقدم للغرب، فى قلب عالمنا، يتحكمون من خلاله فى شئون المنطقة ذات الأهمية الفريدة فى العالم.

٢- ولكن العرب المسلمين، بعد أن استكانوا زمنا، ظهرت فيهم روح المقاومة من جديد، وبدأ نشاط عماد الدين زنكى وولده نور الدين من مملكة حلب يهدد ممالك اللاتين من الشرق، واستولوا على بعض أطرافها، فجاءت الحملة الصليبية الثانية بعد ما يقرب من سبعين سنة.. أرادت أن تحصن ممالكها بالاستيلاء على حلب ففشلت، وحاصرت دمشق حصارا طويلا، فلم تقدر على اقتحامها، ولكن ملك القدس انتهز الفرصة فهجم فى اتجاه مصر، واستولى على عسقلان وتوسع حتى آخر ما عرف بعد ذلك بفلسطين.

وقد ألهب هذا شعور المسلمين. وساد الإقناع بأنه بدون تحالف نور الدين والسنة فى حلب ودمشق من جهة، والفاطميين فى مصر من جهة أخرى، فانه لا يمكن التخلص من هذه الدويلات الدخيلة.

وكانت عبقرية نور الدين انه بدأ التقريب بين العراق وسوريا ومصر. وانه جعل أسد الدين شيركوه السنى ليكون وزيرا للحاكم الفاطمى فى مصر، فلما مات أسد الدين شيركوه، خلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى، واستمر صلاح الدين بعد

موت نور الدين ما يقرب من تسعة عشر عاما يؤكد هذه الوحدة، ويستعد للحرب التى لا مفر منها....

كان دهاء صلاح الدين السياسى لا يقل عن عظمته العسكرية التى اشتهر بها. فقد وحد الممالك الإسلامية قدر الإمكان. وقلب على الأوروبيين لعبة الإيقاع بين أعدائهم فبعد أن كانوا يستعينون بتفريق صفوف المسلمين والتحالف مع بعضهم ضد الآخر، لعب صلاح الدين نفس اللعبة ضدهم، وأوقع بينهم سياسيا، مدركا بذلك لحقائق المصالح التى تحركهم. فأوقع بين بيزنطة وروما. واستمال تجار الدول الإيطالية بالتجارة المربحة مع مصر.

وفى ٢ أكتوبر ١١٨٧، سقطت القدس فى يد صلاح الدين الأيوبى، ثم أسرع يكتسح معظم الدويلات اللاتينية. وكما تقول الكتب الغربية "هرب اللاتين الأغنياء وبقى الفقراء" أما اليهود والمسيحيون الأرثوذكس فقد عوملوا معاملة حسنة، وقبلوا بترحاب حكم المسلمين".

٣- وأثارت هذه الأحداث أوروبا واستغلت دعائيا لبدء ثالثة الحروب الصليبية، وأشدها، إذ جاءت جيوشهم سنة ١١٨٩، يقودها ريتشارد قلب الأسد، أشهر قادة الحروب الصليبية، لطول ما دار من سجال حربى وسياسى بينه وبين صلاح الدين الأيوبى. حتى كادت تقترن الحروب الصليبية كلها باسم الرجلين، رغم أنها دامت حربا وسلاما - عدة قرون.

جاء فى الواقع لأول مرة أهم ملوك أوروبا واشهر محاربيها: ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وأوجستين ملك فرنسا، وفردريك بربروسه ملك ألمانيا. وقد نجحوا فى استرداد عكا وحيفا وقيصرية ويافا. ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة عند أبواب القدس. فبقيت المدينة للمسلمين ولكن بقيت للأوروبيين سائر مملكة القدس.

لقد أسفرت الحرب الثالثة عن تقليص حجم الممالك اللاتينية، ولكنها أعطت هذه الممالك ما يقرب من مائة سنة أخرى من العمر، قبل أن تنقرض وتجلو تماما.

٤- ولأنها، كما ذكرنا لم تكن مجرد حروب دينية، ولان الصفة الدينية لهذه الحروب بدأت تشحب لتزداد الأسباب "الاستعمارية" - بالقاموس الحديث - يرونها ، فإننا نجد الحملات الصليبية التالية تتجه فى الشرق العربى الإسلامى وجهات أخرى.

وكانت مصر - بعد الدور الذى لعبه فيها صلاح الدين - قد صارت القوة الأساسية، وبالتالى اتجهت محاولات الغزو إليها.

فالحرب الصليبية الرابعة اشرف عليها الكسيوس حاكم بيزنطة لغزو مصر سنة ١٢٠٤ بحجة إخضاع الأرثوذكس فى مصر للبابا. ولكن الحرب كانت ممولة من مراكز المال والتجارة الكبرى فى ثغور ايطاليا وإنجلترا وفرنسا.

٥- وفى سنة ١٢١٨ شنت الحملة الصليبية على مصر أيضا، لحصار دمياط، بحجة الاستيلاء عليها، ثم المساومة عليها بتركها سبعة عشر شهرا. ثم توغلوا محاربين فى الدلتا عشرين شهرا أخرى، ثم انهزموا وانسحبوا من دمياط فى ١٢٢١، وعادت فلولهم إلى عكا.

٦- وبعد سنوات قليلة، انتهزوا فرصة شدة الخلافات بين ورثة صلاح الدين الأيوبى، والصراع بين الكامل فى مصر وابن عمه الناصر فى دمشق، فاستولى فردريك الثانى على القدس دون قتال!! وظلت فى أيديهم حتى استردها جيش مصرى فى فبراير ١٢٢٩. وبقيت فى يد المسلمين العرب منذ ذلك الوقت.

٧- ولم تخمد شهية أوروبا النامية للاستيلاء على هذا الشرق الغنى. فقاد لويس التاسع الحملة السابعة على مصر، واحتل دمياط فى ديسمبر ١٢٤٤، واندفع محاربا بقصد الوصول إلى القاهرة، ولكنه سقط أسيرا فى أيدى جيوش مصر، وسجن فى المنصورة فى ابريل ١٢٥٠، وبقى فى السجن حتى اشترى حريته وحرية قادته بمال كثير، وانسحب من مصر.

انسحب عائدا إلى احدى ممالك اللاتين فى فلسطين. وبقى أربع سنوات يحاول الإيقاع بين المسلمين العرب ليسترد القدس. وتحالف مع هولاكو حين بدأ خطر الزحف المغولى الرهيب يلقى بظله على المنطقة.

ووصل المغول إلى بغداد ودمروها سنة ١٢٥٨، ثم اكتسحوا مملكة حلب، ثم مملكة دمشق. حتى تقدمت جيوش مصر ومعها جيوش سائر العرب المسلمين ودارت معركة عين جالوت التاريخية، فى سبتمبر ١٢٦٠، وانتهى بهذه المعركة خطر المغول بأكمله. وزاد ضعف الممالك اللاتينية، فتقدمت جيوشنا المنتصرة فحررت حيفا وصفد وإنطاكية وغيرها.

٨- فلما تحركت الحملة الصليبية الثامنة والأخيرة من فرنسا، كانت قليلة الثقة،

فاترة القوى، فبعد أن أبحرت متجهة إلى الشرق، عادت فاتجهت لاحتلال منطقة أقرب.. وهى تونس!..

وفى الشرق مضى السلطان قلاوون يحرر ما بقى للصليبيين من ممالك أو ثغور.. صور وبيروت وطرطوس وصيدا.

وانتهت تلك الصفحة التى دامت قرونا، وسميت باسم الحروب الصليبية، وقد انقرضت ممالك اللاتين المصطنعة، وعادت البلاد إلى أصحابها. وان ظلت مرارة تلك المرحلة فى نفوسهم قرونا.. يؤلفون فيها ويعودون إليها. ويدرسونها فى مدارسهم، من وجهة نظرهم طبعا.

***

ولكن هل انتهت القضية، عند هذا التاريخ؟

.. كلا، فإننا نعيش صورة جديدة منها فى الحاضر.

ومن حقنا أن نضيف إلى الحروب الثمانية المسجلة فى كتب التاريخ، حربين آخرين، ربما تحت نفس العنوان.

فى فترة ما، ظهرت الإمبراطورية العثمانية، التى كانت آخر إمبراطورية ضمت تقريبا كل بلاد المسلمين. وكانت الإمبراطورية العثمانية بالذات غير ما سبقها من إمبراطوريات إسلامية، فقد قامت على الفتح والقهر، وكانت تنظر إلى البلاد الإسلامية نفسها نظرتها إلى "المستعمرات". كانت فى الداخل إمبراطورية مستبدة ظالمة مظلمة، لم تساهم فى الحضارة الإسلامية بشئ، ولكنها كانت ذات بأس عسكرى منظم قوى، فبعد أن فرغت أوروبا من إخراج مملكة الإسلام المتحضرة المزدهرة من أسبانيا غرباً، إذا بها تواجه، وبعد هذه الحروب الصليبية كلها، خطر الغزو الإسلامى أو التركى من الشرق، بعبور الأتراك من آسيا إلى أوروبا واحتلال البلقان بأكمله، والوصول إلى حدود إمبراطوريات روسيا والنمسا وغيرها.

ومر وقت طويل، والإمبراطورية العثمانية تشيخ، والعالم الإسلامى العربى يتدهور ويتحلل وتسدل عليه ستائر الظلم والإظلام. هذا بينما بدأت أوروبا عصر النهضة، وقضت على الإقطاع، وبدأ عصر الخروج إلى مستعمرات أخرى بعيدة،

وعصر الصناعة فى أعقابه يغذيه ويقويه..

صارت أوروبا اقوى قوة فى العالم، هى سيدة المال. وسيدة التجارة، وسيدة الصناعة. وسيدة البحار.

ولقد وصلت قوتها وحضارتها إلى الهند واستراليا شرقاً وإلى أقصى أطراف أمريكا وأمريكا الجنوبية غرباً وجنوباً.

ولكن الجوهرة الثمينة، الشرق العربى، لم تفارق خيالها. وحفر قناة السويس زاد من أهميتها. ومن هنا يمكن القول أن "الحرب الصليبية" التاسعة بدأت منذ انحلال الإمبراطورية التركية إذ بدأت إنجلترا وفرنسا وروسيا تدعى كل منها حقا فى حماية أقلية من أقليات العالم العربى، انتحالا لأسباب التسلل والتدخل، ثم صراع إنجلترا وفرنسا على مصر، وفوز إنجلترا بمصر وبقناة السويس باحتلالها مصر، الأمر الذى لم تقوَ عليه الحملات الصليبية كلها.. ثم الحرب العالمية الأولى، وخداع الإنجليز للثورة العربية، واتفاقية سايكس – بيكو التى قسموا بها العالم العربى سرا بينهم ووعد بلفور لليهود بوطن قومى فى فلسطين..

هذه السلسلة من الأحداث القريبة، والتى استغرقت فى مجموعها ما يقرب من قرن من الزمان، وتوجت بدخول لورد اللنبى القدس، ودخول الجنرال غورو دمشق، تكون فى مجموعها ما يمكن أن نسميه – استناداً إلى التاريخ الذى سردناه – الحرب الصليبية التاسعة. وهى أول حرب تحقق أغراضها كاملة منذ اندحرت آخر ممالك الصليبيين فى الشرق قبل ذلك بحوالى ستة قرون..

طبعا، كثير من الظروف تغيرت، والأفكار الدينية لم تعد هى الحافز فى أوروبا بل صارت المصالح الاقتصادية والسياسية هى الأساس السافر لكل شئ. ولكن عندما دخل الجنرال غورو، قائد الحملة الفرنسية فى الحرب العالمية الأولى، دمشق، ووقف أمام قبر صلاح الدين الأيوبى، لم ينس أن يقول كلمته الشهيرة: "ها قد عدنا.. يا صلاح الدين!"..

فالجنرال غورو، حين نطق لسانه بهذه الكلمة وهو يقف أمام قبر صلاح الدين، كان يعرف طبعا انه جاء غازياً لاستعمار الشرق، ولكن غلب عليه ما تعلمه فى المدرسة، وما وراءه من تراث، فخفق قلبه ونطق لسانه بما طاف بخاطره فى تلك اللحظة. وسواء قالها بالمعنى الدينى، أو بالمعنى العسكرى، أو بالمعنى

الحضارى، فلا شك أن العناصر الثلاثة كانت متداخلة وهو يقول هذه الكلمـــة، وإن تغلب فيها عنصر على آخر.

دام هذا النظام الذى أسفرت عنه الحرب التى أسميناها بالحرب التاسعة، دام هذا النظام من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٤٨..

كانت هناك حركات وانتفاضات. وشبت ثورات شتى فى هذا القطر العربـــى أو ذاك.. ولكن كل هذه التحديات والثورات والانتفاضات لم تغير كثيرا من وضـــع المستعمرين الإنجليز والفرنسيين وفى خضوع السلطات المحلية لحكمهم.

***

على أن الحرب العالمية الثانية غيرت الظروف الدولية تغييرا عميقا.

لقد ظهر الاتحاد السوفيتى والمعسكر الشرقى ممتدا إلى منتصـــف أوروبـــا بالضبط، ومهددا ما عرف باسم "الحضارة الغربية المسيحية" أو المعسكر الغربـــى، الذى انضمت إليه وتولت زعامته الولايات المتحدة..

وشبت حركات التحرر فى العالم، وقامت الثورات، وشعرت أوروبا بالنســـبة للشرق أن وجودها فيه مهدد بالزوال، وان المسألة مسألة وقت..

وكان هذا الشعور قديما، منذ احتلوا الشرق سنة ١٩١٩. ففى وثائق مـــؤتمر فرساى بعد الحرب العالمية الأولى مذكرة ينصح الإنجليز فيها أمريكا بالموافقة على فكرة إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين، لان وجود مثل هذا الوطن (على نمـــط الممالك اللاتينية القديمة) له صفة قابلة للدوام، وسوف يكون خير وسيلة لحماية قناة السويس لحساب الغرب.

فهى نفس فكرة إقامة دولة فى قلب الشرق تحرس مصالحهم ويمسكون منها بخناق العالم العربى.

نفس ما ترجمه وزير الطيران الأمريكى السابق سيمنجتون حـــين وصـــف إسرائيل بأنها بمثابة "حاملة طائرات غير قابلة للغرق".

لقد وجدوا فى ظهور الدعوة الصهيونية وسيلة مواتية، لأنهم صـــاروا فـــى عصر لم يعد ممكنا أن يقنعوا فيه شعوبهم بحمل الصليب والـــذهاب تحـــت اسـم

الحروب المقدسة. والقدس مفتوحة للحجاج إليها من كل مكان. والحروب الدينية لم تعد مقبولة. ولكن ها هو مجتمع أفرزته أوروبا، وان كانت قد اضطهدته أوروبـــا. ولديه حافز قوى للرجوع إلى مملكة القدس القديمة. فالفرصة سانحة لإقامة قاعـــدة غربية فى قلب الشرق.

لقد ذبحوا اليهود فى القدس ومنعوهم من الإقامة فيهـــا قبـــل قـــرون. وقـــد اضطهدوا اليهود فى بلادهم الأوروبية بشتى أنواع الاضطهاد، ولكنهم الآن صاروا يرون فى إقامة دولة يهودية دينية، هدفا أساسيا وساميا!!.

وقد تزايدت أهمية المنطقة بسوقها التجارية الضخمة، وبموقعها الاستراتيجى الخطير، خصوصا بعد ظهور الاتحاد السوفيتى فى الشرق، وفوق كل هذا طبعـــا، البترول، الذى لو انتقل من يد إلى يد – كما قال كيسنجر صراحة – لانقلبت كـــل موازين القوة فى العالم.

وربما كان من أكبر الأخطار، التى وقع فيها العقل العربى العام، بعد نكبـــة ١٩٤٨، إنهم كانوا يفكرون دائما فى الصراع العربى الإسرائيلى، بمنطق قصـــير الأجل. فى حين أننا لو كنا تأملنا الأمر فى إطاره التاريخى الطويل، ومن منظـــور الأهداف السياسة والاقتصادية لشتى القوى فى عالم اليوم.. لأدركنا أنه أحـــد تلـــك المواجهات الحضارية الطويلة التى تأخذ أشكالا شتى من الحرب ومن السلم ومـــن النضال العسكرى والسياسى ومن السباق فى ساحة التقدم والتفوق، ومن نجاح فـــى ضم شتات الأمة العربية تحت حد ادنى من التكافل والتكامل والتنسيق..

وإننى لا أسمح لنفسى بأن أقول أننى حين كتبت قبل حرب ١٩٦٧ – حوالى سنة ١٩٦٥ تقريبا – أنه لا يوجد حل سحرى للصراع ولا معركة واحـــدة تنهـــى المشكلة، لان الصراع ليس مع إسرائيل وحدها، ولكنه صراع حضـــارى طويـــل ستتخلله أحداث طويلة ومريرة، وامتحانات سوف تنجح أو ترسب فيهـــا.. هـــاجم الكثيرون قولى هذا، ولكن يخيل لى أن الاقتناع بأن المواجهة الحضارية طويلـــة، وان العالم العربى "مستهدف" –بفتح الدال – من قوى عالميـــة كثيـــرة، ولأســـباب معقدة، أقول إن هذا الاقتناع فيما أظن بدأ يتسع.

ولعل هذا الكلام يصدم الكثيرين.

ولكن الدواء "المنبه" فى هذه الأمور، خير من الدواء "المنوم" على أى حال!

الحركات الإسلامية والغرب

من أكبر المآسى التى عرفناها منذ الحرب العالميــة الثانيــة، أن الولايــات المتحدة القوية ذات الإمكانيات الهائلة، كانت دائمــا تفهــم العوامــل الاجتماعيــة والسياسية المؤثرة فى العالم الثالث، متأخرا.. أحيانا بعد فوات الأوان، ودائما بعــد ضياع وقت ثمين جداً وإهدار جيل أو جيلين على الأقل من الصراع العقيم.

وطبعا يأتى بعد ذلك من يسأل فى أمريكا: من المسئول عن ضياع الصــين؟ من المسئول عن ضياع إيران؟... الخ.

ورد هذا على خاطرى منذ فترة، وإن كان المثل خارج الموضــوع، عنــدما فوجئ العالم فى انتخابات زيمبابوى روديسيا، يفوز روبرت موجابى فوزا ســاحقا، وفجأة انقلب موجابى فى الصحف البريطانية "الشيطان" إلى "رجل الاستقرار"، حتى ايان سميث رحب بفوزه.

تذكرت أننى عرفت موجابى سنة ١٩٥٧ أو سنة ١٩٧٠ فى غانا، عندما عقد أول مؤتمر للأحزاب الأفريقية فى أول دولة تستقل فى أفريقيا السوداء. كان هنــاك موجــابى ونكومو، ونكروما، ولومومبا، وكان جومو كينياتا مسجونا فحل محله توم بويا.

لم يكونوا شيوعيين. ولا ماركسيين. بل وليست لهــم أى صــلة بالعــالم أو ببعضهم البعض. كانوا وطنيين يريدون زوال الاستعمار فى تعاون مفيد مع الدولة المستعمرة، ولم يكونوا قد حملوا السلاح بعد. باستثناء جومو كينياتا، الــذى كــان مسجونا كما قلت، وكانت الصحف الغربية تصور حركة المقاومة المسماة "ماوماو" فى كينيا على أنها حركة متوحشين. وقد رأينا كينياتا بعد ذلك غاية فى الاعتــدال، وكان هناك الشاويش الذى يحارب مع الإنجليز ضد ماوماو، ويكافأ بالترقيــة بعــد الترقية بعد الترقية على عنفه ضد الثوار، اسمه عيدى أمين.

هل لم يفهم الغرب حقا العوامل السياسية فى أفريقيا مثلا.. فطال العذاب عشرين عاما؟ أم أن القوى المسيطرة فى الغرب كانت ببساطة لا تحب أن تفهم، وتتصور أنها قادرة على البقاء بالقوة أطول فترة ممكنة؟

وأحيانا يحدث العكس!

فنرى الباحثين الأكاديميين فى الغرب، يركزون على تفاصيل صغيرة جدا، ربما تثبت تعمقهم فى البحث ولكنها لا تثبت قدرتهم على الحكم الصحيح، إذ ينسون فى خلال هذا البحث الميكروسكوبى العوامل الكبرى الأساسية فى منطقة ما.

وهذا النوع من التصور، يجعل الرأى العام الغربى يعتقد أن ما يجرى فى بلد ما سببه أن أهل هذا البلد أناس مختلفون عن البشر وأن ما يحدث عندهم لا يقاس عليه. وأنهم شواذ.

وآخر مثل على ذلك، ما حدث فى إيران، كانت ثورة إيران مفاجأة تامة أن عنفها، وجماهيريتها، ونوع قياداتها، وكان أول رد فعل تحليلى ما رأيناه من عكوف الباحثين على تحليل المذهب الشيعى الذى يدين به أغلبية الإيرانيين. وأنواع الشيعة. ومذاهب الشيعة.

هنا أيضا يمكن أن نقول إنه لا شك أن العوامل الاجتماعية لها صفاتها الخاصة فى كل قطر. أو فى كل كتلة حضارية مثل العالم الإسلامى، أو أفريقيا السوداء، أو جنوب شرق آسيا.

ولكن ما أعترض عليه هنا، هو: الإسراف فى تجسيم هذه "الخصوصية" لأن الإسراف والانحصار فيها خطأ مثل خطأ تجاهلها تماما.

إذن، فلكى يأتى حديثنا هذا متوازنا يجب أن نتعرض لأمرين.

الأول: العوامل الديناميكية التى يشترك فيها العالم العربى، والإسلامى، ومنطقة الخليج، مع ثلثى العالم كله تقريبا. وهى فى إيجاز قضية الفقر والتخلف.

والثانى: العوامل الخاصة بالمنطقة العربية الإسلامية.

هذا العنصر الأول المشترك جوهرى جدا وهام. لأنه العنصر المشترك فيما يسمى العالم الثالث كله. وأحيانا ما تكون الفروق بين المناطق مجرد خلاف فى طريقة التعبير المناسبة لكل بيئة.

وكلنا على علم بقضية العالم الثالث. ارتفاع نسبة الأمية. انخفاض مستوى الصحة العامة. بدائية وسائل الإنتاج اعتماد الاقتصاد على الخامات أساسا. قرب عهدها بالاستقلال والمسئولية عن نفسها وبالتالى عدم قيام مؤسسات دستورية ثابتة تحقق لها درجة من الاستقرار انعدام وجود طبقة وسطى كبيرة تكون هى أساس الاستقرار الاجتماعي واتساع الفجوة بين نخبة قليلة العدد وقاعدة فقيرة وغير متعلمة.

تلك بإيجاز هى ملامح العالم الثالث كله، مع فروق طفيفة. وهى بالتالى ملامح كل بلاد العالم الإسلامى أو أغلبيتها الساحقة.

ولابد أن نضيف إلى ملامح العالم الثالث التى سبق ذكرها عنصرا آخر، هو ما أدت إليه سهولة وسرعة وسائل الانتقال والاتصال والإعلام من قيام ما سماه مارشال ماكلوهان "القرية العالمية" أو ما أدى إليه هذا التقدم من حقيقة سماها يوجين بلاك بحق ثورة الآمال الكبيرة، فى كتابة الذى يحمل هذا الاسم والذى يعتبر فيه أن هذه الثورة هى أخطر الثورات، وهو حقيقة كبرى بالفعل. فالفرد فى أفقر قرية الآن يرى فى السينما وعلى شاشات التليفزيون أنواعا من الحياة الباهرة، وعالما مسحورا لم يكن يعرف بوجوده من قبل، ومتعا متاحة لملايين غيره من البشر. وقد لا يصل طموح هذا الفلاح إلى أن تكون له مثل هذه الحياة ولكنه بالتأكيد يشعر شعورا عارما أن من حقه أن ينال نصيبا منها، حتى ولو طرفا صغيرا من ذيلها. والشباب بالذات يرفضون ظروفهم التى تبدو لهم غير مؤدية على الإطلاق إلى نيل أيسر قسط من هذا.

بل أن مجرد الانتماء المعنوى أمر هام. وفى الريف المصرى تجد الفلاح فى جيبه عادة علبتى سجائر أمريكية باهظة الثمن، يقدم منها لأى زائر "أفندى" من القاهرة، وهو يعطيك السيجارة الأمريكية، ثم يخرج علبه سجائره هو ويأخذ منها، ولكنه يشعر أنه أثبت وجود خيط بينة وبين أبن المدينة الزائر.

الفقر المدقع يحبس ملايين الناس من جهة، وإعلانات السلع الاستهلاكية المثيرة تطارده من جهة أخرى. فيكون شعوره بمأساته أعمق وبالظلم الواقع عليه أفدح.

من احتكاك هذين العاملين تخرج شرارة الانفجار.

وهذا العنصر المشترك فى العالم الثالث، هو نفسه الموجود فى معظم العالم العربى الإسلامى.

وبالتالى فإن أهم عنصر استقرار هو فى إيجاد صيغة نظام اقتصادى جديـد. وعلاقة جديدة بين ما يسمونه دول الشمال ودول الجنوب.

فإذا انتقلنا من العام إلى الخاص، ومن العالم الثالث بوجه عـام إلـى العـالم الإسلامى بوجه خاص، فسوف نجد فى هذا العالم الإسلامى، بالإضافة إلى الظروف التى ذكرناها، ظروفا أخرى خاصة به، تجعل الموقف أصعب وأخطر وربما أعنف.

إن منطقة الخليج، التى لا يمكن فصلها عن العالم العربـى والإسـلامى، إذا أردنا تحليل مصادر التوتر فيها.. فان فيها بغير شك أسبابا أخـرى للتـوتر فـوق الأسباب التى لدى العالم الثالث كله.

المنطقة تعتبر من العالم الثالث، بمواصفاته السابقة. ولكن الظروف شاءت أن تتفجر فيها ثورة هائلة فى قيمتها المادة والاستراتيجية معا، وهى البتـرول، حتـى صارت صورة البترول فى العالم مقترنة بصورة العربى والمسلم.

إن هذا الواقع المفاجئ أضاف إلى توتر الفقر فى العالم الثالث توترا آخـر، وهو تجاور الفقر والغنى.

كان طبيعيا أن يسبق المال نفسه الآثار التى يمكن أن تترتب عليه.

فالمال فى صورة البذخ الشخصى، والسفر إلى الخارج، والشراء الفورى لما هو متاح من طائرات خاصة وسيارات وكل أنواع الرفاهية الموجودة فى العـام.. كان يصل أسرع من أشياء أخرى تستغرق وقتا أطول مثل شق الطـرق، وإقامـة البنية الأساسية، وبناء المساكن والمدارس والمستشفيات وإرسـال البعثـات إلـى الخارج الأمر الذى خلق خلخلة عنيفة فى الهيكل الاجتماعى التقليدى للمجتمع.

بعض الدول أحسنت التصرف فى هذا الثراء الجديد بشكل أو بآخر، وكـان هذا سهلا بحكم قلة عدد السكان فى هذه الأماكن الصحراوية النائية.. وبعض الدول لم يحالفها نفس التوفيق.

إن الإحصاءات الدولية تضع بعض دول البترول على رأس دول العالم من حيث متوسط دخل الفرد، ولكن هذا مضلل تماما فالفقر فى بعض مناطق دول البترول مازال أشد مما نراه فى بلاد فقيرة كمصر فطهران عاصمة الشاه السابق، ليست طهران البذخ

والثراء الذى كانت تنشره المجلات الغربية الفاخرة، ففي قلبها وضواحيها أماكن تقارن بأى عاصمة فقيرة فى العالم، فضلا عن سائر أطراف الدولة.

وكما أن ظهور الثورة بهذا الحجم الهائل خلق توترات فى داخل كل قطر بترولى على حدة، فإنه خلق توترات من نوع آخر بين البلاد العربية على الأقل. تمتد الآن إلى مناطق أخرى من العالم الإسلامى.

فالعربى بوجه عام مهما كانت خلافاته يشعر بنوع من الانتماء والمشاركة في المصير. وبالتالي فالعربي في بلد غير بترولى، لا يشعر بشئ إزاء ظهور البترول في بحر الشمال مثلا. ولكنه يشعر إزاء ظهوره في بلد عربي مسلم آخر بشعور مختلف. يشعر بأن له نوعا من الحق عليه، لاعتباره فكرة وحدة الإسلام والعروبة، بالمعنى التاريخي والحضارى وان لم يكن بالمعنى السياسي خصوصا وأنه يرى حكامه وزعماءه لا يكفون دون استثناء عن المناداة بالوحدة العربية. وهو يرى صراعاتهم على أنها صراعات حكام وليست تصادم مصالح بين الشعوب.

فالبترول بعد أن يصل إلى صاحبه يجب أن يصل شئ منه إلى أبناء عمومته. وهو أمر يخلق توترات أخرى فى المنطقة. بمعنى أنه لا يمكن الحديث عن فلسطين دون التفكير في ردود فعل في الخليج كما أنه لا يمكن الحديث عن الخليج دون ردود فعل في كل أنحاء العالم العربى والإسلامى.

الفارق الآخر القوى بين عالم الإسلام وبين معظم بلاد العالم الثالث. هو أن ضغوط العصر الحديث لم تأت هنا من فراغ حضارى ولكن فى مجتمع له تاريخ معقد طويل، فخور بدينه وبتراثه، رغم كل المحن التي مر بها.

خصوصية عالم الإسلام:

إن الإنسان يمكن أن يتصور نظريا أن عملية التحديث يمكن أن تمضى بشكل أسرع – لو توافرت لها الظروف – في مجتمع بدائي حقا، ليس لديه أى تركة ضخمة من ماضى أو دين أو تراث.

ولكن في العالم الإسلامى والعربى يدرك الناس تمام الإدراك أن أرضهم كانت مهدا للديانات الثلاث العظيمة. فإذا أضفنا إلى هذه الحقيقة مركزهم الجغرافي

المتميز، والحضارات القديمة التى قامت فى منطقتهم، وجدنا أن كل هذه العوامل مجتمعة جعلتهم محط الأنظار على مدى التاريخ، إما كمصدر إشعاع للآخرين خلال أيامهم المجيدة، وإما كهدف لأطماع الغير إبان قرون الانحطاط والتدهور.

وفى الوقت ذاته، نجد أن الإسلام، كديانة سائدة فى المنطقة، كان له دائما الأثر البالغ القوة على الشعوب عبر أربعة عشر قرنا فقد أعلن الإسلام عن نفسه كوريث لكل الأديان السالفة، وآخر هذه الأديان، ونبيه، خاتم الأنبياء والرسل، وكتاب المسلمين المقدس "القرآن" منزل من عند الله، وليس كتابات عن المسيح مثلا بعد قرن من وفاته. كل هذا أعطى المسلمين والعرب شعورا بأن الإسلام فريد فى نوعه.

ولأن الإسلام – عبر القرآن والرسول – لم يقف كسائر الأديان عند حدود شرح الفضائل والرذائل أو وصف العبادات بين الله والإنسان، ولكنه جاء بنظام كامل للحياة، وكيان كامل للدولة.. متحدثا عن نظام الحكم إلى قضايا الزواج والطلاق، فقد جعل هذا مهمة دعاة التحديث عسيرة جدا. ومع ذلك فالتحديث ذاته مطلب للجميع، ومن هنا فإن أهم صراع فى العالم الإسلامى هو الصراع بين دعاة التحديث، والرافضين له بحجة أن مثل هذه الدعوة تعد خروجا على الدين أو أنها تشكل خطرا يهدد بفقدان الهوية. ومع أن المسلم يرى أن الكلام الوارد فى القرآن هو كلام الله مباشرة، وأن هذا القرآن وضع قواعد وأحكاما لكل شئ إلا أن هذا لم يمنع من أن يختلف المسلمون اختلافات عنيفة بمجرد وفاة الرسول. وبعد خمس وعشرين سنة فقط من وفاة الرسول دارت أول معركة حربية كبرى وقف فيها على، أبن عم الرسول وأقرب أصحابه، فى صف، وعائشة زوجة الرسول المفضلة فى صف آخر ووضعت بذور أول وأكبر انشقاق فى الإسلام بين أهل الشيعة وأهل السنة. انشقاق قامت به دول وإمبراطوريات وانهارت به دول وإمبراطوريات، وتعددت المذاهب السياسية والفكرية والفلسفية تعدد هائلا، مع انتشار الإسلام خلال مائة سنة فقط من الهند والصين شرقا إلى الأندلس غربا.

وكانت آخر إمبراطورية، جمعت كل بلاد الإسلام تحت سلطتها هى الإمبراطورية العثمانية، وقد كانت سنية متطرفة وكانت إمبراطورية بكل معانى الإمبراطورية الاستعمارية فاضطهدت العرب اضطهادا شديدا واضطهدت الشيعة بالذات اضطهادا أشد.

هكذا دخل الإسلام القرن العشرين وبين أهله حسابات لم تصف بعد. ورغم أن أهميتها قلت كثيرا، إلا أنها تطل برأسها فى الوقت المناسب، حتى نجد دائما أناسا يحاربون معارك انتهت منذ ألف وأربعمائة سنة.

على أن القرون المتعاقبة، باعدت بين حقائق الحكم والسلطة والفكر وبين حقائق الإسلام خصوصا فترة الظلام العثمانى التى دامت أكثر من ثلاثة قرون.

وعندما بدأت النهضة الأوروبية تواجه العالم الإسلامى بحقائق جديدة من جهة، والظلام العثمانى يقيده فى الأغلال من جهة أخرى كان لابد أن ينشأ نوعان من رد الفعل.

رد فعل ينادى بالتحديث إلى أقصى الحدود كوسيلة وحيدة للحاق بالعصر.

ورد فعل ينادى بالعودة إلى الأصول والأشكال الأولى للإسلام.

وليس الخمينى هو أول من نادى بالعودة للأصول فى تاريخ الإسلام الحديث.. ولعله لو لم تكن ثورته فى أغنى بلاد العالم بالبترول، لما حظيت بكل هذا الاهتمام.

فهناك المهدى الكبير فى السودان، الذى ربما هزم عسكريا ولكن قتاله أسفر عن إيجاد كيان السودان الحديث، وقد كان هدفه تحرير السودان ومصر من حكم الأتراك والإنجليز معا.

وهناك المهدى السنوسى، الذى أثر إلا يحمل السيف ولكنه عن طريق نظام الزوايا جمع العدد القليل من السكان فى هذه الصحراء الليبية الشاسعة فى شعب واحد.

وهناك الحركة الوهابية التى نشأت فى شبه الجزيرة العربية، وكانت الأساس الفكرى لحركة الملك عبد العزيز آل سعود فى ضم أطراف المملكة العربية السعودية وحكمها حكما مركزيا موحدا بعد تمزق طويل.

وقد اقترن هذا بكلام كثير فى صحف الغرب، صحيح فى جوهره، عن صحوة إسلامية فى كل مكان.

وهذا صحيح، والبعض يرجع هذا، كما حدث فى حالة إيران، إلى أن الشاه حاول التحديث أسرع مما يجب، وهو تبرير غير صحيح. ويكفى أن نقول بصدده نقطتين.

أن التحديث لم يكن سريعا. ولكن المشكلة أنه كان أولا مشوها. كان أخذا بقيم الغرب بل والسطحى منها، دون شعور بقيم المجتمع الأصلية، واقترن بالظلم والفساد.

التحديث ليس تقليدا للآخرين:

ومن أهم الأسباب الدفينة لعنف هذا التيار، أن الإسلام دخل القرن العشرين مهزوما ومخدوعا، وقليل الثقة بالغرب.

فقد بدأت يقظة الشرق مع اتجاه أوروبا للاستعمار. محمد على الكبير فى مصر هزم الخلافة العثمانية، فلما وصل إلى أطراف اسطنبول، تحالفت عليه القوى الكبرى وقتذاك – إنجلترا وفرنسا والنمسا وروسيا القيصرية، وهزمته إذ كان يناسبه أكثر دوام وضع الإمبراطورية العثمانية المريض، أكثر من قوة شابه تنفخ فيها الروح.

وعندما قامت الثورة العربية منطقة من الحجار، شجعها الإنجليز مقابل وعد لهم بالاستقلال ولكن كانت إنجلترا وفرنسا وفى نفس الوقت توقعان معاهدة سرية لتقسيم العالم العربى ينهما.

وبعد الحرب العالمية الثانية أقيمت بالقوة دولة إسرائيل على أشلاء شعب فلسطين الذى طرد من أرضه بكل الوسائل الوحشية.

وبذلك بلغ التحدى مداه، وبلغت الإهانة أقصى حدودها.

ومن هنا فالقول بأن سبب أحداث إيران هو سرعة التحديث، خطأ إنما السبب هو أن المسلم الإيرانى رأى من التحديث جوانبه السوداء رأى القهر، والظلم الاجتماعى، والحكم الاستبدادى، ورأى التطور السريع يتجه نحو تقليد أعمى للغرب، وتذهب خيراته إلى قلة قليلة بغير حق.

وقد أسمى أحد المؤلفين (الدكتور جلال أمين) هذا الأسلوب، فى إيران وغيرها، Them Modernization of Poverty أى "تحديث الفقر".

ولعل الأصح أن نقول إن مشكلة التحديث فى العالم، هى أن البعض اعتبر التحديث هو التقليد الحرفى للغرب، إلا فى حرياته واحترام حقوق الإنسان فيه.

فالاتجاه إلى التصنيع بشكل غير مدروس والتمركز فى المدن دون وجود وجوه رزق كافية فيها، أدى إلى إهمال الزراعية والريف والصناعات الصغيرة.

الأصح أن نقول أن العالم الثالث عليه أن يجد أسلوبا مناسبا له للتحديث لأن تقليد الغرب لا نتيجة له، إلا اللهث المستمر وراءه والبقاء دائما فى المؤخرة.

فإذا أخذنا فى اعتبارنا، كل العوامل التى سبق ذكرها كمؤثرات فى العالم العربى والإسلامى، فمعنى ذلك أنها تنطبق بالتالى على منطقة الخليج. وإن كان هناك مجال لتسجيل بعض خصوصيات الوضع فى منطقة الخليج، وفى علاقة هذه المنطقة بالغرب أو بالولايات المتحدة بشكل خاص.

هنا نجد مصادر محددة واضحة للتوتر يمكن تركيزها كما يلى:

١- اعتماد الغرب المطلق على بترول الخليج وتزايد مطالب الغرب من هذا البترول، دون بذل أى جهد جدى من ناحية الغرب فى تقليل الاستهلاك، أو فى التنقيب فى أماكن أخرى أو فى البحث عن مصادر بديلة للطاقة.

هذا الاعتماد الساحق يجعل الغرب متوترا إزاء منطقة الخليج باستمرار، وهذا التوتر والانزعاج الغربى يزعج أهل الخليج أيضا، فهم يخافون أن يقدم الغرب على حركة طائشة. ولا يسمعون منه إلا تبرعا بالدافع عنهم. وهم يكرهون أن يروا أنفسهم محاصرين بأساطيل القوى الكبرى والمنطقة مرشحة لأن تكون محل صراع دولى.

٢- ظهور رأى عام شامل فى منطقة الخليج لا يوافق على هذه العلاقة غير الصحية بالغرب وهم يرون أنها علاقة غير صحية من زاويتين:

- ضغط الغرب المستمر على المنطقة لتستخرج أكبر كمية من البترول تلبية لحاجات العالم الصناعى، لا تلبية لحاجات دول البترول أنه يعتقدون أن لديهم ثروة ناضبة ويفضلون الاحتفاظ بها أطول مدة فى باطن الأرض وألا ينتجوا إلا بقدر ما يحتاجون لمشروعاتهم. ولكن الغرب يرغمهم إرغاما على استنزاف البترول تمديدا لرفاهيته على حساب فقرهم الطويل.

- هذا الرأى العام نفسه لا يوافق على أساليب الغرب فى استرداد ما يدفعه ثمنا للبترول كما يحدث مثلا عن طريق صفقات سلاح هائلة يعلم الكل جيدا أنها لن تستعمل وأنها مجرد تصدير حديد ميت مقابل البترول. أو مشاريع باهظة التكاليف قليلة الجدوى.

هذا الرأى المزدوج فى علاقة الغرب غير الصحية بالخليج، ستجدونه عند السعودى المتخرج فى جامعة جورج تاون أو عند البدوى الذى لم يترك "أبو طبى" على السواء.

٣- أن الغرب وخصوصا الولايات المتحدة الأمريكية، ليس مستعدا لدفع أى ثمن سياسى فى مقابل ما يرى أهل البترول العربى أنه ظلم اقتصادي. والثمن السياسى بات معروفا واضحا، وهو القضية الفلسطينية والمطلوب هنا هو إعطاء الشعب الفلسطينى حق تقرير مصيره فوق أرضه، وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة المتوالية. فهو يطلب الإنصاف ويطلب عدم الاعتراف بشرعية الغزو بالقوة.

٤- إن الأبنية السياسية فى المنطقة ليست قوية متماسكة بعد، ففى داخل دولة الإمارات المتحدة مثلا ست إمارات، كل إمارة لها علم وأمير وقبيلة. وفى الخليج كله لا مبرر لعدم إقامة كيانات أكبر، أو روابط أكبر كتوحيد العملة أو خلق سوق خليجية مشتركة.

٥- فى ظل هذه الظروف كلها لابد أن تظهر تيارات أكثر تطرفا يمينا ويسارا وحركات إسلامية أكثر تطرفا، استجابة لحلم غامض بالتخلص من تركة القرون الحديثة وإقامة عالم عربى إسلامى قوى جديد وهو تيار سيكون سلبيا إزاء روسيا ولكنه لن يكون إلا سلبيا إزاء الغرب. حيث يقترن الغرب فى ذهنه بجوانب الفساد والاستغلال فى التحديث وبالعلاقة الاقتصادية غير الصحيحة فى البترول وصفقات السلاح ووجوه صرف المال، وبالظلم السياسى فى رضاء أمريكا باحتلال إسرائيل لأراضيه وتشجيعها عليه.

الأخلاق والسياسة
ومعركة حقوق الإنسان

السياسة والأخلاق؟...

ألم يحسم هذا السؤال منذ أقدم العصور؟...

هل هناك من نازع – أو ينازع – في أن الأخلاق في السياسة ، هي "المصلحة"؟

ألم يحدثنا "ابن المقفع" عن هذه الأمور، سواء برموز كتابة "كليلة ودمنـــة" أو بصراحة عباراته فى "الأدب الكبير والأدب الصغير" قبل قرون وقرون؟....

.. ألم يأت بعد ذلك "ميكافيلي" في كتابه "الأمير" لكي يجعل الدس، والمخاتلة أو القسوة والتحايل، كلها في ميدان السياسة "فضائل" يجب أن يتحلى بها الحاكم، إذا أراد حقاً أن يكون حاكماً؟..

ألم يعرف القاموس السياسي الحديث، وما زال يعرف، تعبير Raison D'etat، وأقرب ترجمة له سبب يتصل بمصلحة الدولة العليا يقبل فى تفسير أى عمل يقـــدم عليه "رجل الدولة" ويكون "غير أخلاقي" بالمعنى السائد لكلمة أخلاق؟.

ثم.. إلا يزال الاغتيال، والإنقلاات، والشراء بالمال، من الأساليب التي تجري ممارستها أمام أعيننا إلى الآن، في عالم اليوم، مبررة بالأهداف السياسية التي يراد تحقيقها؟..... طبعاً، لا شك أنه قد دخل "بعض التحسن" علـــى علاقـــة الأخـــلاق بالسياسة، عبر آلاف السنين من التقدم الإنساني.. بحكم تغير معنى "المصلحة".

.. كانت "المصلحة" التي من أجلها تصبح التضحية بالأخلاق مسألة طبيعية، مقبولة، هي مصلحة "الحاكم" بالمعنى الفردى.

ثم تطورت الأمور فأصبحت "المصلحة" فى هذا المجال تعنى مصلحة "الدولة" أى الإطار الممثلة فيه الجماعة الإنسانية.. ثم تطورت الأمور مرة أخرى فصارت "المصلحة" المقبولة في هذا المجال هي مصلحة "الشعب".

ولم تكن كل "نقلة" في هذا المجال تؤدي إلى اختفاء ما كان قبلها تماماً. كلا. فنحن اليوم مثلاً نعيش في عالم واحد، ولكن الشعوب أو المجتمعات الإنسانية، تعيش في قرون مختلفة، بل ومتباعدة جداً، من حيث نظم الحكم، والقيم السائدة، وحقوق المواطن.. إلى آخره. وبالتالي "فالمصلحة" – بمعنى انصرافها إلى مصلحة الفرد، أو الدولة، أو الشعب، تعيش بتفسيراتها الثلاثة في عالم واحد، وفي أقطار متجاورة.. إستطاع العلم الحديث أن يختصر الزمن بينها جغرافياً، فلا يبعد قطر عن قطر أكثر من ساعات بالطائرة، ولكنه بحساب القيم السائدة تفصل بين القطرين عدة قرون!.

***

ولكن، ما هي مناسبة الحديث عن الأخلاق والسياسة؟...

وهل هي مجرد محاولة لأعمال الفكر في بحث نظري؟...

كلا!...

ولكن الولايات المتحدة الأمريكية – أقوى دولة في العالم وأكثرها تأثيرا في حياة عالم اليوم بخيرها وشرها – وصل إلى مقعد الرئاسة فيها، فجأة وعلى غير توقع، سياسي مجهول، هو جيمي كارتر، جاء على موجة فحواها إنه أخلاقي أكثر مما هو سياسي، أو هو سياسي غير "سياسي". بل ولم يتردد أحياناً خلال معركته الانتخابية من التلميح إلى أنه يتصرف بناء على رسالة نزلت عليه من السماء، وأن هناك علاقة خاصة بينه وبين الرب!

وبعد أن تولى جيمي كارتر الرئاسة بالفعل، أراد أن يثبت وبسرعة، أن ما كان يقوله خلال الانتخابات لم يكن دعايةِ فقط. فلم يلبث أن قام بعدة تحركات وتصرفات وتصريحات، تركت ردود فعل متباينة...

استقبل في البيت الأبيض "بوكوفسكي" أحد المتمردين الروس، بعكس ما فعل جيرالد فورد حين رفض مقابلة "سولجينتسين" حتى لا يسيء إلى سياسة التهدئة بين روسيا وأمريكا...

ثم أرسل خطاباً شخصياً منه إلى "زخاروف" العالم الذري السوفيتي وزعيم المتمردين في الاتحاد السوفيتي، بما يعني تأييده في نضاله ضد السلطة السوفيتية وقوانينها...

وقد رد بريجينيف الرجل الأول في روسيا على ذلك رداً عنيفاً في خطاب علني أعلن فيه أن روسيا لن تقبل أي نوع من التدخل في شئونها الداخلية. وأنه ليس من حق دولة أن تعلم دولة أخرى كيف تدير أمورها الداخلية.

وحين ذهب سيروس فانس وزير خارجية أمريكا الجديد في أول رحلة له إلى موسكو، واجهه بريجينيف بضرورة تسوية هذه القضية أولاً. ولعلهم تعمدوا أن تتحطم مهمته الأولى تماماً في موسكو، حتى يقضوا على الفكرة التي رددها كارتر من أن الروس لن يضحوا بفوائد الوفاق ونزع السلاح، من أجل تصريحاته!

وحتى لا يقال عن كارتر – وقد قيل طبعاً – أن الأمر ليس أمر مباديء وأخلاقيات إنسانية بقدر ما هو سلاح جديد من أسلحة الحرب الباردة، تحدث عن بعض البلاد "المحسوبة" على أمريكا. وأعلنت حكومته أن مساعداتها الاقتصادية والعسكرية سوف تدخل في اعتبارها من الآن نوع النظام الداخلي ودرجة القمع والعدوان على حقوق الإنسان في أي قطر. الأمر الذي جعل بلاداً مثل البرازيل والأرجنتين ترفض أي مساعدة من أمريكا. طالما هي مقرونة بأحكام ليست أمريكا هي الجهة التي تصدرها.

وذهب كارتر إلى الأمم المتحدة ليلقي خطاباً تقليدياً، إعتاد أن يلقيه كل رئيس أمريكي جديد. وفي هذا الخطاب أعلن عن مبدأ بالغ الأهمية. قال ما خلاصته: أن كل الدول الأعضاء في الأمم المتحدة قد وقعت على وثيقة إعلان حقوق الإنسان. وإنه من تلك اللحظة لا يعتبر انتهاك دولة ما لهذه الوثيقة في بلادها أمراً داخلياً خاصاً بها. بل أنه أمر يهم العالم كله.

***

مبدأ، فيما أعتقد، صحيح تماماً...

وحجته، فيما أرى، يجب أن تكون مقبولة في عالم اليوم. وإلا، فما معنى المؤسسات الدولية، والمواثيق الدولية، والكلمات الواردة فيها، والخاصة بحقوق الإنسان!

وذلك طبعاً بشرط أن لا يكون "حقاً يراد به باطل"، كما يحدث كثيراً، في عالم السياسة.

وبالتالي فإن الأسئلة – ونحن أمام وقائع حياة ولسنا في مجال بحث نظري – تبقى كثيرة. وقد جاءت من العالم كله. ومن داخل أمريكا ذاتها. حول كارتر. ودوافعه..

هل هو ساذج؟

هل هو صادق؟

هل يستهدف مكاسب داخلية سياسية فحسب؟

هل يستطيع أن يمضي إلى آخر الشوط؟

ثم.. هل هذه السياسة، التي سماها الكاتب الأمريكي الأول جيمس رستون، ساخراً، بإسم "سياسة الفم المفتوح"، هي السياسة المثلى لتحقيق هذا الغرض، إذا كان هذا الغرض جدياً؟..

طبعاً. هناك سوابق في أمريكا وغير أمريكا للساسة المثاليين. كان "وودرو ويلسون" الرئيس الأمريكي الذي دخل ببلاده الحرب العالمية الأولى مثالياً، حين أعتقد أنها الحرب التي ستكون آخر الحروب. وحين دعا إلى إنشاء "عصبة الأمم". وحين وجد أن السياسة هي السياسة، قرر عدم دخول أمريكا في عصبة الأمم.

وكان فرانكلين روزفلت – أعظم رؤساء أمريكا – مثالياً أيضا.. ومن الأسئلة التي ستبقى مثلاً معلقة: لو كان إنجاز صنع القنبلة الذرية قد تم في عهده، هل كان يلقيها على هيروشيما، قاتلاً مائة ألف، كما فعل ترومان؟.

دفاع ترومان – الأخلاقي – أنه بقتل مائة ألف نسمة، أوقف حرباً لو استمرت لقتل فيها مليون...

ولكن، ألم يكن ممكناً، مثلاً، مجرد إخطار اليابان بالسلاح الرهيب الجديد وإنذارها باستخدامه، لكي تستسلم كما فعلت؟ وهل وارداً أن يسلك روزفلت هذا الطريق، لو أنه لم يمت قبل إنجاز القنبلة الذرية بقليل؟.

على أي حال. لقد مات روزفلت وهو مصمم على تأييد تصفية المستعمرات القديمة، ولكن بقي بعده تشرشل وغيره واستغرقت تصفية الاستعمار ربع قرن زيادة، ومات وهو يعمل لسياسة الوفاق بين الشرق والغرب، ولكن الحرب الباردة انطلقت بعده. ومات وهو يرفض إقامة دولة إسرائيل في فلسطين لأنه كان أقوى من أي فئة في بلاده، وكان مدركاً لمستقبل المنطقة العربية وخطورتها، ولكن ترومان كسياسي صغير آثر الرضوخ للقوى الانتخابية الداخلية، ولو خلق بذلك إحدى أعقد مشكلات العالم ومآسيه.

.. ولعل هذا الاستطراد قد أخرجنا قليلاً عن مجرى للحديث.

***

طبعاً، قضية احترام حقوق الإنسان، ليست قضية سهلة، بل إنها أعقد القضايا على الإطلاق. ولربما تحل معظم مشاكل البشرية – إذا أمكن ذلك – قبل أن تحل هذه القضية. وقبل أن يحظى كل إنسان، في كل بلد، وتحت كل نظام، باحترام حقوقه.

لقد نزلت الأديان كلها. وجوهر رسالتها احترام حقوق الإنسان.

وقد زعمت الثورات والمذاهب والأيدولوجيات كلها، أنها إنما تريد احترام حقوق الإنسان.

ومع ذلك، فلو أردنا تلخيص تاريخ البشرية كله، لوجدنا أن السمة الغالبة فيه، هي عدم احترام حقوق الإنسان...

وأبسط الأسباب الداعية لذلك، تصور كل مجتمع إنساني لما يرى أنه احترام لحقوق الإنسان. ولما يرى أنه حقوق الإنسان.

ثقافة الغرب وأوروبا السياسية كلها، تقول أن أثينا كانت مهد الديمقراطية، وأنها ما تزال النموذج الفذ الذي لا يتكرر.

ولكن أثينا – بساستها وفلاسفتها – لم يجدوا في تقسيم الشعب إلى أحرار وعبيد، وبالتالي قصر حقوق الإنسان على الأحرار دون العبيد، لم يجدوا في ذلك أي تعارض مع ديمقراطية أثينا.

والجاهلية، قاومت دعوة الإسلام أعنف مقاومة، بسبب ما يدعو إليه الإسلام، وبدا لهم أنه أمر بالغ الغرابة والشذوذ، وهو محاربة الرق. لطول ما أعتاد المجتمع هذا الوضع... فالمجتمع نفسه، حتى بحكمائه وعقلائه. قد يرى فكرة حقوق الإنسان في صورة نراها اليوم غريبة وبالغة الغرابة...

وقد احتاج الأمر إلى دهور طويلة، ورسالات من السماء. وثورات على الأرض، حتى تطور مفهوم حقوق الإنسان.. وأيضاً ليس لدى الجميع..ثم أن هناك عنصراً آخر، داس حقوق الإنسان عبر التاريخ بأقدامه، وهو صراع الحياة العنيف...

كان في البدء صراع أفراد.. ثم صار صراع قبائل.. ثم صار صراع شعوب

وأمم.. حتى صار الصراع دولياً.. فالحروب عالمية.. والمذاهب المتصارعة ترى أن مجالها العالم كله.. والأزمات المالية أو الاقتصادية أو حول السلع الأساسية، أزمات عالمية...

صراع لا يعرف الرحمة....

وتحت هذه العناوين الواسعة بالطبع، تتدرج مئات الأنواع من الصراع، مما يعرفه الجميع...

وما يهمنا من هذا التاريخ هنا، هو مرة أخرى كيف أن أقصى المظالم كانت ترتكب باسم "حقوق الإنسان" وأحياناً باقتناع من المرتكبين أنفسهم...

كان الشعب يستعمر شعوباً أخرى، ويمتص ثرواتها. وكان الشعب الحاكم يرى في رجله الذي يحقق له هذا بطلاً. كان بطلاً بالنسبة له. فهو يوفر له مستوى عال من المعيشة، على حساب شعوب أخرى. وكان هذا مقبولاً "أخلاقيا " لدى الشعوب المستفيدة... وكان المعترضون على هذا هم الشواذ...

كان الساسة ورجال الدولة يعرفون ما يفعلون... فحين كان نابليون يحلم باحتلال مصر، ثم بالقفز إلى الهند التي يحكمها الإنجليز، قال لخلصائه: "سنفاجئهم، لصوص يهاجمون لصوصاً أقل منهم جرأة!" ويفوزون بالجائزة...

وكان هناك من المفكرين من يبررون هذا ويفلسفونه. فاستعمار أوروبا لآسيا وأفريقيا كلها، عاش أجيالاً يحمل اسم "عبء الرجل الأبيض". وكان هذا مقبولاً أخلاقياً. فالإنسان هو الرجل الأبيض. أما استغلال الأسود والأسمر فكان أمراً مقبولاً.

ومعظم تماثيل "الأبطال" و "العظماء" التي تملأ ميادين أوروبا مثلاً هي تماثيل غزاة، أو طغاة، أو مستعمرين.. ولكنهم عند شعوبهم أبطال... وكان المعترضون قليلون..

كانت إنجلترا، وهي أكبر إمبراطورية، تسمى وما تزال "أم الديمقراطية في العالم" ولكن برناردشو كان يقول: أن كلمة الديمقراطية يتغير معناها بمجرد أن تترك الجزر البريطانية وتعبر المحيط!.

وهذا صحيح. فالديمقراطية للإنجليز. تغذيها وتجعلها ممكنة الموارد المستنزفة من شعوب أخرى. ولكن كان هذا مقبولاً أخلاقياً على الأقل لدى "الشعوب الراقية"!...

كانت إنجلترا تفخر بثورتها التي أرست قواعد الديمقراطية. وفرنسا تفخر بثورتها التي حققت شعارات الحرية والإخاء والمساواة. ولكن ثورة من هذا النوع، في أي مستعمرة تابعة لهما، كان لابد من قمعها فوراً، وبكل عنف.

وكان لهذا المنطق كله صحافته، وثقافته، وكتابه، وفلاسفته.

أما المسحوقون، فلم يكن لهم شيء من هذا. لم يكن لهم صوت يسمع. ولا فكر يقرع الآذان، لأنه لم يكن لهم مدافع ولا بوارج ولا طائرات...

وقد تغير الكثير من هذا بحركات التحرر في العالم التي أدت إلى استقلال كل شعب تقريباً...

وصار هناك برلمان عالمي اسمه الأمم المتحدة، يفترض أن لكل شعب فيه له صوت كأي شعب آخر، مهما كان لونه أو عدده، أو قوته..

ولكن هذا بالطبع ما زال بعيداً عن الواقع بكثير. وإن كان المستضعفون في الأرض يكسبون كل يوم أرضاً جديدة.

وكان طبيعياً بعد حقوق الشعوب، أن تبدأ وتتسع معركة حقوق الأفراد، حقوق الإنسان.

***

وحين نلقي نظرة على العالم. نجد أن كل شعب يحاول أن يخوض في بلده، معركته الخاصة، من أجل كسب حقه في حقوق الإنسان... وأن كان هذا الصراع ليس داخلياً دائماً. فالقوى الخارجية ذات التأثير، ما زالت تتحالف مع القوى المحلية المتخلفة، لإطالة أجل استبدادها، إذا كان هذا يناسب تلك القوى الخارجية لسبب أو لآخر.

وقد مر زمن، قريب، ساد فيه الصراع المذهبي واختلفت المذاهب بالتالي خلافاً حاداً حول تعريف حقوق الإنسان، أو على الأقل على أولويات حقوق الإنسان.

ومذاهب تقول: الحرية فحسب. و بعد ذلك فليتصارع الناس ليأخذ كل ما يستطيع.

ومذاهب تقول: لقمة العيش أولاً. وحقوق الإنسان الاجتماعية... التحرر من الجوع ومن البطالة ومن عدم المساواة.. هي حقوق الإنسان الأساسية.

ولكن التيار السائد، والذي يتحول مع الزمن في تقديري إلى موجة عارمة في كل مكان وتحت كل نظام هو: الخبز مع الحرية، العدل مع الكرامة، وبغير ذلك

يظل حق الإنسان ناقصاً.

وفي هلسنكي، منذ ما يقرب من سنة، اجتمع أقطاب المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي. وفي محاولة معقدة لتكريس الأمر الواقع الذي أسفرت عنه الحرب العالمية الثانية من تقسيم لأوروبا وتثبيت الأوضاع الدولية بينهما، وقعا على معاهدة شملت بنوداً سياسية كثيرة، ومن بينها نصوص عن حقوق الإنسان، كأساس لسياسة الوفاق.

وفي بلجراد، بعد شهر، يجتمعون مرة أخرى لمراجعة ما تم في شأن التزام كل طرف في هذه المعاهدة.

***

وفجأة، شن كارتر حملته دفاعاً عن "المعترضين" في الاتحاد السوفيتي، وهاجم في الوقت نفسه جوهر النظام السوفيتي...

وقد بدأ الأمر... أثناء حملته الانتخابية للفوز بالرئاسة..

وتفسير هذه الظاهرة قد يكمن في أمريكا نفسها...

ففي خلال الجيل الذي سبق وصول كارتر إلى الحكم، تعرضت أمريكا – أقوى دول العالم – لامتحانات صعبة، خرج منها الشعب الأمريكي، مثخنا بالجراح...

لقد اغتيل رئيس للجمهورية (جون كنيدي). وخرج خليفته من الرئاسة (ليندون جونسون) تحت ضغط نقمة عارمة من الشعب بسبب حرب فيتنام. وطرد رئيس ثالث (نيكسون) بتهم اعتداء على حقوق الإنسان في أمريكا وتجسس على الأفراد وإخفاء جرائم. وخرج نائب رئيس (أجنيو) بتهمة رشوة صريحة. واغتيل مرشح للرئاسة على وشك الانتصار، (روبرت كنيدي). واغتيل زعيم حركة تحرير السود (مارتن لوثر كنج).

وصاحب هذا كله حرب فيتنام. حين استخدمت أمريكا قوتها العسكرية الهائلة في محاولة سحق شعب صغير فقير في فيتنام دون جدوى. ومرة أخرى نجد في رواسب بعض النفوس أن ضرب "الصفر" وتدميرهم، أو "إعادتهم إلى العصر الحجري" كما قال قائد طيران أمريكي، أمر مباح لأنهم "صفر" فلم يكن متصوراً أن فظائع حرب فيتنام يمكن أن تقع في بلد أوروبي مثلاً.

وصاحب هذا كله كشف أدوار رهيبة للمخابرات الأمريكية في تنفيذ انقلابات، وإسقاط حكومات، واغتيال زعماء... ثم جاءت موجة الفضائح المالية. وسيل اعترافات الشركات الكبرى برشوة أكبر الشخصيات من اليابان شرقاً إلى هولندا غرباً...

وهذا كله وقع وارتكب في أكبر "مجتمع مفتوح" وأصيب الضمير الأمريكي بجرح دام عميق وصارت كلمة السياسة كلمة قذرة، وحقوق الإنسان نكتة. وأدرك كارتر الموجة، فخرج من المجهول، رافعاً راية الفضيلة. وسخر الساسة منه، لكن الرأي العام أعطاه مقعد الرئاسة.

وكانت أحد تعهداته التي أرضى بها المواطن العادي، هي الطهارة واحترام الإنسان، وحقوقه، وحمل نفس الرسالة إلى ما وراء الحدود..

وفي بلاد المعسكر الشرقي جماعات من الرافضين، أو المطالبين بحريات أكثر، بعد أن حققت تلك المجتمعات التقدم المادي المطلوب، وصارت تجد أن من حقها أن تحظى بالقسم الآخر من حقوق الإنسان وهو الحرية، فالتقط كارتر ورقة تأييدهم، كسلاح يبرر دعوته "التبشيرية" ويقلب معركة الدعاية ضد المعسكر الآخر، ويعطي الأمريكي من جديد شعوراً برسالة عالمية هي الدفاع عن حقوق الإنسان ولو في أماكن بعيدة.

***

ومهما كان الأمر فيما يتعلق بدوافع كارتر، أو بأساليبه، أو بردود فعل المعسكر الآخر.

فالقضية في ذاتها – مجردة من اعتبارات الصراع الدولي – عادلة. وقد تتحول إلى قضية العصر. والامتحان الحقيقي سيكون حين يتبين إذا كانت مجرد سلاح جديد في الحرب الباردة، أو إذا كانت الدعوة سوف تعم، فلم تثور أمريكا لمنع مواطن في روسيا من السفر وتسكت عن اختفاء آلاف في تشيلي أو في غيرها!.

ولم يرفع كارتر راية حق تقرير المصير، ويسكت على طرد إسرائيل للفلسطينيين من ديارهم واحتلال أرضهم بالقوة!.

وهل حقوق الإنسان مطلب يرفع شعاره حيث يلائمه هذا، وينكسه حيث لا يلائمه احترام حقوق الإنسان.

وإذا كان لابد أن تشغلنا أمور أنفسنا كما تشغلنا أمور الإنسانية. فإن المواطن

العربي في كل مكان من أنحاء الوطن الكبير، لديه الكثير مما ينتقده في حياته. ولديه الكثير من أسباب الشكوى في كثير من مجالات فقدان حقوق الإنسان.

ولكن هنا أيضاً. وصلت الشعوب العربية إلي مرحلة من النضج، صار لابد معها أن يكون تأكيد حقوق الإنسان فيها أمراً أساسياً، ولا مجال للتساهل فيه.

إن انعدام هذه الحقوق في أماكن، وضعفها في أماكن، هو عله العلل. وأساس كل داء. وسبب كل بلاء في ظروفنا العربية الراهنة.

ولابد أن يتحمل كل من تسمح له ظروفه ومكانته وثقافته جانباً من مسئولية تأكيد هذا المعنى. ونشره فيما حوله.

إن التعذيب الجسدي، أو السجن بدون قضاء، أو منع إبداء الرأي إذا كان سليما، أو رفض فكرة تبلور إرادة الشعب بأي صورة من الصور، أن هذه كلها أشياء لابد أن تزول.

إن زوالها أهم في معركة التقدم من استيراد أحدث الآلات وإقامة أحدث المباني، فقد كان التقدم دائماً رهناً بالإنسان، وشعوره بكرامته، وبحريته الفعلية. فهو إن عجز عن استخدام فكره وعن ممارسة كرامته، فقد عجز عن ممارسة ما يجعل الإنسان إنساناً.

إن حقوق الإنسان التي رأت النور يوماً مع مشرق الإسلام في هذه الأرض، لابد أن يعود لها بريقها من جديد مهما كانت الفلسفات والادعاءات.

وبغير الاحترام الكامل الخالي من أي تحفظ لحقوق الإنسان العربي لن نخترق الحلقة المفرغة من التخلف ومن المآسي ومن شتى أنواع الإحباط التي تكاد تزهق روح الإنسان العربي. مهما حاولت بعض الماديات من تغطية ذلك لبعض الوقت.

إن معركة حقوق الإنسان على المستوى العالمي ستكون معركة آخر هذا القرن وأول القرن القادم.

وعلينا أن نكون من المناضلين فيها...

لأنفسنا أولا.

وبعد ذلك لغيرنا...

الوحدة عندنا وعندهم

الخبر الذى لم تهتم الصحافة العربية بإبرازه، وأحيانا ولا حتى ينشره، فضلا عن التعليق عليه.. كان قادما من بروكسيل، عاصمة السوق الأوروبية المشتركة. وكان يقول أن دول السوق التسع، بعد مباحثات مضنية معقدة دامت سنوات، قد توصلت أخيرا إلى قرار بأن يتم تكون أول برلمان أوروبى منتخب عن طريق الانتخاب المباشر وأنه قد تم الاتفاق على أن تجرى أول انتخابات أوروبية عامة مباشرة فى موعد قريب.

وكانت المشكلة التى اعترضت القرار طوال سنوات، هى الوصول إلى توزيع لعدد المقاعد فيه درجة من العدالة، بين الدول الكثيرة والسكان كألمانيا وفرنسا، وبين الدول القليلة السكان مثل الدانمرك. فى حين أن كل دولة مهما كان حجمها لها إرادتها المستقلة كدولة. وإيجاد برلمان موحد منتخب انتخابا مباشرا، مهما كانت اختصاصاته قليلة فى البداية، فيه درجة من تنازل كل دولة عن جزء من إرادتها الوطنية، تخضع فيه الإرادة مجموعة أكبر، هى مجموعة دول السوق الأوروبية المشتركة.

وكانت هناك دول تطالب بمقاعد أكثر، كإنجلترا، لكى تضمن تمثيل أقل اسكتلندا وويلز وغيرها من أجزاء إنجلترا ذات الأصول المختلفة نسبيا، ودولة مثل ايطاليا تطالب بمقاعد أكثر لكى تمثل أحزابها الكثيرة العدد. وهكذا، وأخيرا توصلوا إلى أن يكون المجلس النيابى الأوروبى المنتخب انتخابا مباشرا من ٤١٠ أعضاء: ٨١ مقعدا لكل من إنجلترا وفرنسا وايطاليا وألمانيا الغربية ثم ٢٥ مقعدا لهولندا، و ٢٤ مقعدا لبلجيكا، و١٦ مقعدا للدانمرك، و١٥ مقعد لأيرلندا، و ٦ مقاعد لدوقية لوكسمبورج.

وإذا كان هذا سيكون بمثابة برلمان لأوروبا، فسيكون رؤساء حكومات الدول التسع بمثابة مجلس وزراء لأوروبا.

وإذا كنت قد سردت كل هذه التفاصيل، فلم أسردها لذاتها، ولكن لكى أوضح الطريقة التى يتوصل بها الأوروبيون إلى حل مشكلة الوحدة بينهم، أخطر مشكلة يمكن أن تواجه مجتمعا ما، فى صبر وأناة، وبالمناقشة والمثابرة والدأب، سنة بعد سنة، منذ سنة ١٩٦٠، أى منذ ستة عشر عاما، ولكنهم رغم كل الخلافات، يتوصلون إلى حلها، طالما أنهم قد اقتنعوا بأن الوحدة هدف ضرورى لمستقبلهم، وبالتالى فإنهم يرتبون عملهم ليسير فى اتجاه ما توصلوا إليه من اقتناع، مهما كانت الظروف.

إن هذا القرار الذى توصلت إليه دول السوق الأوروبية المشتركة قرار تاريخى، لقد سبقته قرارات وخطوات هامة وطويلة، خصوصا فى المجالات الاقتصادية، من إلغاء الرسوم الجمركية، إلى توحيد بعض السياسات الاقتصادية، إلى اندماج بعض شركات الإنتاج التى تعمل فى مجال واحد، إلى محاولة الوصول إلى درجة من التنسيق فى بعض المواقف السياسية وإن ظل هذا من أصعب الأمور عليهم إلى الآن، بحكم تنوع مصالحهم الخارجية من جهة وبحكم وطأة النفوذ الأمريكى عليهم من جهة أخرى.

ولكن هذا القرار الجديد، قرار تكوين برلمان موحد يتم انتخابه على مستوى الدول التسع بالاقتراع العام المباشر، يعتبر من أهم وأخطر ما اتخذوه من قرارات إلى الآن. ذلك أن هذا، كما ذكرت سابقا، خطوة فى طريق التنازل عن جزء من "السيادة الوطنية" لسيادة "قوية" أعلى...

طبعا: واضح أن هذا الحديث كله، القصد منه أن يسوقنا إلى المقارنة بين حال الأوروبيين فى مجال السعى إلى الوحدة، وبين حالنا نحن العرب.

وقد أريق مداد كثير لإثبات وتوضيح أن ما يربطنا نحن العرب أقوى وأعمق بكثير مما يربط بين شعوب هذه الدول الأوروبية التسع. فلن أضيف إلى القول فى هذا المجال جديد، إلا لمجرد التسجيل فقط.

لقد بنيت "فكرة" الوحدة الأوروبية على أساس من المصلحة الاقتصادية فى الدرجة الأولى والمصلحة السياسية فى الدرجة الثانية. هذه الدول الأوروبية التى

قضت القرون فى حروب مدمرة بين بعضها البعض، أحيانا على أرضها ذاتها، وأحيانا صراعا فى قارات أخرى على المستعمرات، وجرت العالم كله معها مرتين إلى "حربين عالميتين" هذه الدول وجدت نفسها بعد الحرب العالمية الثانية، وقد تضاءلت بين عملاقين جديدين، شابين، هما الاتحاد السوفيتى شرقا والولايات المتحدة الأمريكية غربا صحيح أنها - دول أوروبا - استردت صحتها وعافيتها الاقتصادية إلى حد كبير. ولكن أين لها، وهى منقسمة أن تتنافس فى معركة المستقبل روسيا وأمريكا؟ ثم الصين الآتية بعد قريب؟ أى دولة منها، بمفردها، ألديها الأعداد البشرية الضخمة التى لدى العمالقة الجدد؟ ومن أين لها الثروات الطبيعية الهائلة المتوافرة لدى العمالقة الجدد، خصوصا بعد أن خسرت - أوروبا - مستعمراتها؟ وأين لها الميزانيات الضخمة والأعداد الكبيرة من الفنيين التى تسابق فى ميادين هائلة للتكنولوجيا المتقدمة والتى تصنع الصواريخ العابرة للقارات والقنابل النووية بالآلاف، فضلا عن السلع التجارية المألوفة؟.

من هذا المنطق، الأمنى، العسكرى الصناعى ولدت فكرة الوحدة الأوروبية بمعناها الحديث، غير معناها فى العصور الوسطى، وبدأ الخطو إليها بإقامة السوق الأوروبية المشتركة، ثم التدرج بها خطوات، فبهذا قد يوجد يوما كيان سياسى اقتصادى تعداده الحالى ٢٥٠ مليونا، يحفظ لها مكانها بين العمالقة الجدد.

وليس هذا على أى حال بالمنطق البسيط، فالحاجة هى أقوى الحوافز، والتطور الاقتصادى السياسى من العوامل الحاسمة فى التحولات التاريخية الكبرى.

وفى حالتنا نحن العرب، فإن عنصر "الحاجة" هذا نفسه الذى كان العنصر الأساسى فى قيام الوحدة العربية، موجود فى حالتنا، وإن كان عنصر "الحاجة" فى حالتنا ليس العنصر الأساسى ولا الوحيد، كما هو الحال فى أوروبا.

ألا يستشعر العرب أنهم فى عالم اليوم المتغير المضطرب، عالم اليوم الذى تنهار فيه كيانات وتقوم فيه كيانات جديدة، وتتغير موازين القوى، وتتشابك فيه المصالح الدولية وينهض فيه عالم بأكمله كان "مخصوما" من حسابات القوى الدولية، وهو العالم الثالث. إلا يشعر العرب فى عالم هذا شأنه، أنهم من الناحية "الأمنية" فى حاجة إلى التقارب والتمسك والتناسق، ولا نقول الوحدة؟

فى هذا العالم الذى يقفز فيه العلم والتكنولوجيا وبالتالى الاقتصاد و"نوعية" الحياة قفزات هائلة ك يوم بل كل ساعة.. فى عالم هذا شأنه إلا يشعر العرب بحاجة "اقتصادية" إلى السير جديا وحثيثا نحو درجات من التكامل الاقتصادى والتكامل الصناعى الإنتاجى، والتنسيق والتكامل فى مجالات البحث والعلم؟ إلا يشعر العرب أن المال بغير بشر لا ينتج الكثير، والبشر بغير مال لا ينتج الكثير، وان الكفاءات العلمية هى أغلى عملة فى عالم اليوم، وأن تجميعها، وتوجيهها إلى قنوات البحث ذات الصلة بظروف العالم العربى هى الوسائل التى لا مفر منها إذا أردنا أن تكون أمة عربية، لها قدرة على المنافسة الاقتصادية والإنتاجية، وليست مجرد أرض غنية مؤقتا بالخامات، وأنه بدون هذا لن يكون لنا خلال سنوات قليلة فرصة الرقى والحياة فى المستوى اللائق؟.

إن عنصر "الحاجة".. الحاجة إلى "الأمن" إزاء عناصر التهديد الخارجى والحاجة إلى التقدم والقدرة على المنافسة وتحسين قيمة الحياة عنصر "الحاجة" هذا العنصر الغريزى "قبل أن يكون سياسيا ولا فلسفيا.. هذا العنصر الذى هو الدافع للوحدة فى أوروبا.. إننى أراه موجودا فى حالتنا نحن العرب بدرجة أقوى وأشد إلى حد كبير. وإذا كنت أركز عليه فلأنه العنصر البديهى، العملى والواقعى جدا، والذى لا يحتاج إلى مناقشة أو تدليل أو دخول فى نظريات وفلسفات يمكن الخلاف عليها..

فما بالنا، إذا كان هذا العنصر الغريزى، ليس هو العنصر الوحيد فى دالتنا نحن العرب.

نحن العرب نتكلم لغة واحدة ودول السوق الأوروبية المشتركة تتكلم سبع لغات، ونحن العرب تراثنا واحد، فلو سألت فردا عربيا فى أى مكان عن شاعره المفضل مثلا فسيقول لك المتنبى أو أبو العلاء أو أحمد شوقى.. بصرف النظر عن كون هذا الفرد مغربيا يطل على المحيط أو كويتيا يطل على الخليج. فى حين أنك لو سألت الأوروبى لاختلف الأمر قطعا.. فالإنجليزى سيقول لك أن شاعره هو شكسبير والألمانى سيقول لك "جوته" والفرنسى سيقول لك "فيكتور هيجو" وهكذا...

وإلى جانب وحدة اللغة والتراث توجد عشرات من وشائج الوحدة المعروفة التى لا تتوافر فى مكان آخر وبوجه عام فالوحدة فى أوروبا "فكرة" عملية طارئة،

فى حين أن الوحدة العربية حقيقة عاشت قرونا ولربما تقطعت أوصالها سياسيا فى مراحل لاحقه ولكن ظلت الحقيقة على مستوى الشعوب قائمة وجذورها عميقة.

ولكن الأوروبيين بدأوا مسيرتهم سنة ١٩٦٠ وقطعوا فيها أشواطا طويلة.. والجامعة العربية قامت سنة ١٩٤٥، ولم تقطع بعد معشار الشوط الذى قطعه الأوروبيون دون ضجة ولا مضاربات.

ربما لأن الأوروبيين يتناولون أمورهم بأسلوب عقلانى مطلق ليس للعاطفة فيه مكان. وهذا ليس نفيا لقيمة العاطفة، فالعاطفة عنصر حافز ودافع قوى بالتأكيد. ولكن الاعتماد عليه وحده دون درجة كافية من العقلانية، يبدو أنه لا يوصل أى شئ لأن العاطفة بطبيعتها متقلبة، سريعة التأثر، يتراوح عليها المد والجزر، والحساب العقلى ليس كذلك.

أو ربما لأن الأوروبيين لهم علينا ميزة أن المستوى الحضارى بين دولهم التسع مستوى متقارب، ونظمهم السياسية والاقتصادية متماثلة أو شديدة التشابه، وقيمهم الاجتماعية وأنماط سلوكهم واحدة. وهذه أمور تسهل التكامل والتوحيد كثيرا وهى أمور يجب أن نعترف أنها ليست متوافرة لدينا.

ولكننا فى نفس الوقت نعرف من تجارب كثيرة أن عدم توافر هذه الظروف ليس بالعقبة التى لا يمكن تجاوزها..

ولكن المشكلة أن كل مشروعاتنا فى مجالات الاقتصاد وتسهيل الاتصال والانتقال وتنسيق الخطط وتكامل المشروعات، نحطمها دائما على صخرة الخلافات السياسية، وبين نظم الحكم لا بين الشعوب، فلا تمضى هذه المشروعات إلا وتتوقف. ولا تتصل هذه الشرايين فى الجسد الواحد إلا وتتقطع..

ولو فصلنا بين الخلاف السياسى وبين المجالات الأخرى، التى تزيد فى تلاحم جسد الأمة العربية لتغيرت أمور كثيرة..

ولكن... ماذا أقول؟؟...

إننا نعيش ما هو أسوأ، نعيش فى مرحلة حروب أهلية عربية!!

فهل ما نزال فى المرحلة التى مرت فيها أوروبا بهذه الحروب؟

أى نعيش القرون الوسطى؟!

عالم من سياحة.. وبترول.. وفضول!

منذ عشرات قليلة من السنين، كانت "السياحة"، ميزة لا تــدركها إلا القلــة، وكانت كلمة " السائح " مقصورة على صاحب الثروة الواسعة.

وحتى هؤلاء كانت الحركة بينهم بسيطة.

كان الملك أو رئيس الدولة يقضى عشرات السنين متوجاً ربما لا يبرح بلــده أو لا يبرحها إلا مرة، إذ كانت الرحلة الملكية حدثاً هاماً يســتعد لـــه، وإجــراءات طويلة معقدة.

وكان السفر للسياحة له ناس قليلون مشهورون به. أذكر فى مصر مــثلا أن موسم السياحة كان يعد ناجحا إذا جاء "أغاخان" و "البيجوم" زوجتــه.. وعشــرات مثلهم.. وامتلأت الغرف القليلة فى فندق "كاتاراكت" فــى أســوان و "ونتربــالاس" الأقصر، وكان "وصول سائح" من هذا النوع خبراً تنشره الصحف فــى صــفحاتها الأولى، ونقرأه ونحن صغار وكأننا نتابع أخبار نوع نادر من البشر، يقضى الصيف فى مكان والشتاء فى مكان!.

وأيضا كانت صورة السائح فى ذهننا ونحن صغار هى صورة رجل عجوز أو امرأة طاعنة فى السن لأنهم هم فى العادة أصحاب القدرة المالية، وأصــحاب الفــراغ وقلة العمل، لان السياحة نفسها كانت مقترنة فى ذهننا بالمال الموروث دون عمل...

وعندما اكتشف الإنجليز مثلا شاطئا دافئا على البحر الأبيض المتوسط هــو مدينة "نيس" على الريفييرا الفرنسية، يهربون إليه أحيانا من برودة بلادهم وضبابها، كان يعتبر هذا فى فرنسا نفسها أنه "من غرائب الإنجليز "وسمى كــورنيش نــيس باسم" شارع الإنجليز "AVENUE DES ANGLAIS" حتى الآن.. رغم انه صــار شارع العرب.. وجلا عنه الإنجليز منذ زمن!.

وبعد الحرب العالمية الثانية، نشر الأمريكان كلمة السياحة بتدفقهم الهائل على أوروبا أيامها الدولار هو الملك. وسائر العالم فقير بائس.. وحتى وقتها كان الشائع أن هؤلاء الأمريكان القادمين من خلف المحيط وكأنهم من كوكب آخر، كانوا ظاهرة فريدة، لناس اكتشفوا الكرة الأرضية ويريدون معرفة أصولهم التى هاجروا منها.

كانت الفنادق قليلة حتى فى أكبر العواصم، وفاخرة جداً، وكانت حجرة الفندق فى حجم شقة واسعة من أيام ما قبل المبانى الجاهزة التركيب والعمال الكوريين! وكان السفر أساسا بالبواخر.. والرحلة تستغرق فى البحر لا أقل من أسبوع ومع نهاية الحرب العالمية كان التقدم الهائل قد جعل الطيران من أوروبا إلى أمريكا يستغرق ستا وثلاثين ساعة فقط (أربع ساعات تقريبا بالطائرة الكونكورد الآن) وكانت لندن منذ عشرين عاما فقط خالية من المطاعم إلى بيوت الشاى التابعة لشركة "الليونز" ومطاعم السمك والبطاطس المقلى FISH AND CHIPS رغم أنها كانت عاصمة الدنيا.

وكان هناك أدب من أعظم الآداب الإنسانية وهو "أدب الرحلة" سواء قبل قرون، عندما كان رجال مثل "ابن بطوطة" يرحلون إلى آخر بلاد الله، متجشمين الأهوال، لا يعرفون إذا كانت ستكتب لهم العودة أم لا، ليكتبوا عن العالم الذى لا يعرفه الناس، والبلاد التى تركب الأفيال ولكنهم كانوا عبر التاريخ قلة نادرة..

واستمر هذا حتى العصور الحديثة. من كتب الفرنسى "ليوتى" عن الشرق أو المصرى رفاعة الطهطاوى عن باريس...

وحتى الأربعينات من هذا القرن العشرين "كسب بعض أعظم الكتاب شهرتهم الأولى من أدب الرحلة.. سواء ما كتبه أندريه مالرو عن الصين وكمبوديا أو ارنست همنجواي عن مصارعة الثيران فى أسبانيا أو مقهى "الكلوازيري" فى باريس....

ولكن السفر انقلب انقلاباً تاماً فى العشرين سنة الأخيرة. لم يعد السفر للمليونير ولا الأديب أو التاجر و المستكشف، بل كاد يصبح "حقاً جماهيرياً" من "حقوق الإنسان" يتطلع إليه كل فرد وعرف العالم سياحة جديدة تماماً...

ماذا حدث؟....

أشياء كثيرة نذكر بعضها لا بترتيب الأهمية ولكن بترتيب تداعى الخواطر...

لماذا بدأت السياحة؟

الثورة الصناعية التى حشرت الناس بالملايين فى المدن الصاخبة. والرغبة بعد "التشبع بحياة المدن" التى لا ترحم، ورد الفعل إزاء "العمل الشاق الممل الرتيب" فى المكاتب والمصانع وتحول الناس إلى أرقام والى تروس صغيرة فى آلات هائلة.. جعلهم ساعة الأجازة يركنون إلى الفرار.. إلى الطبيعة، إلى تحكم الإنسان فى نفسه ومزاجه ولو لأسابيع كل سنة..

اكتشفوا شواطئ البحار وقمم الجبال وقيمة الخضرة وأنفاس الغابات.. وأذكر دائماً فى هذا المجال كلمة لزوجة رئيس وزراء إنجلترا الأسبق "هارولد ويلسون"، وهى أديبة شاعرة لها عدة دواوين، عندما سألها صحفى عن شعورها حين تركت بيتها خارج لندن وسكنت لأول مرة فى قلب لندن، وفى مقر رئيس الوزراء "رقم ١٠ داوننج ستريت" فقالت: فى قلب المدينة، أشعر أن كل نسمة أتنفسها قد تنفسها قبلى عشرات!".

ثم جاءت زيادة السرعة، واختصار المسافات وانخفاض النفقات (وسنعود إلى أسبابها بعد قليل).. كان عبور الأطلسى يستغرق أسبوعا فى أسرع السفن.. وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، ومع ظهور الطيران وانتشاره، كانت نفس الرحلة بالطائرة من باريس إلى نيويورك تستغرق ستا وثلاثين ساعة (الآن تقطعها الطائرة الكونكورد فى أقل من أربع ساعات. والإعلانات تقول: افطر فى أوروبا مع عائلتك وتغد فى أمريكا مع أصدقائك!).

ثم انكسر أهم حاجز وهو التكاليف، تنافست شركات السفر بالبحر والبر والجو. ومنذ سنة مثلا جاء رجل أعمال إنجليزى اسمه -لاكر- فألغى من الطائرة كل التفاصيل: المضيفة الجميلة والطعام الفاخر والحجز المسبق، مقابل "مجرد نقل المسافر إلى مقصده، بأقل من نصف التكاليف!". وأعطته ملكة إنجلترا لقب "سير" مكافأة له على هذا الانقلاب...

هذا كله أوصل السياحة إلى متناول يد الطبقة المتوسطة فى العالم، والطبقة العاملة فى البلاد المتقدمة، حيث امتلأت الطائرات ومجموعات شركات السياحة بالبروليتاريا، وتدفق الشباب ذكوراً وإناثاً فى نهم شديد على السياحة والسفر.

فضول الإنسان الغريزى، هذا الفضول الذى هو أحد مميزات الإنسان على الحيوان، هو احد أهم محركات التقدم من قديم الأزل. أن الفضول لمعرفة الأفكار والفلسفات.. هو نفس الفضول لمعرفة الأجرام السماوية، وأسرار الفلك منذ آلاف السنين.. هو نفس الفضول الذى يطلق الأقمار الصناعية بتكاليف خرافية لمعرفة القمر والمريخ.. الفضول الذى كان يشبه لدى الناس عالم فلك أو كاتباً رحالة.. صار مع هذا التطور فى العالم فضولاً يجب أن يرتاد كل إنسان آفاقه بنفسه.. أفلام السينما وحكايات الصحف وشاشات التليفزيون التى ترينا كل أرجاء المعمورة زادت الرغبة فى المعرفة والمعايشة، ولم تطفئها.. وصارت القيمة الثقافية لزيارة بلد ومعرفة مجتمع، كالقيمة الثقافية لقراءة أهم كتاب أو عشرات من الكتب.. ولعلى استطردت..

ولكننا ونحن مجتمعات نامية.. وربما كانت تطلعاتنا حتى الآن أكثر تواضعاً.. فإننى أريد أن أغرز معنى هاماً هو حاضر بعض الناس ومستقبل لباقتهم.. وهو أن السياحة صارت ضرورة وتزداد ضرورة.. وأن الإنسان الحديث إنسان مسافر.. إما للدراسة، أو لزيارة المتاحف، أو للجلوس على مقهى فى بلد غريب...

وأقل الناس حيلة فى أمريكا وأوروبا مثلا يسافرون بالسيارات.. أو الدراجات.. أو سيرا على الأقدام.. وينامون فى الفنادق الرخيصة.. أو الخيام التى يحملونها... أو فى العراء المهم أن يتحرك، أن يعبر حدودا ما، أن ينسى – لشهر – مكابدة أحد عشر شهرا...

والصيرورة إلى عالم متحرك مستمرة وفى ازدياد.. حتى يعرف المسئولون عنا، والرواد فينا وقادة الطريق... أن هذا مستقبل لابد من الاستعداد له.. بل والعمل من اجله..

طبعا لا يمكن لمتأمل عربى، إلا أن يذكر سبباً هاماً حرك الكثير من هذه الأسباب، وجعل كل هذه الوسائل متاحة.. اكتشاف وقود محرك رخيص.. هو البترول..

وهو السبب الذى أشرت منذ قليل إلى اننى أؤجله إلى آخر الأسباب...

فغنى عن الإشارة، أن كل هذه العجلات التى تتحرك.. من الدراجة إلى السيارة إلى الحافلة إلى الطائرة.. والمحركات التى تدور فى جوف البواخر.. إلى الآلات التى تنتج فى المصانع كل هذه الوسائل.. كل هذا.. كله.. يدور بطاقة

محركة.. وكانت الطاقة المحركة إما باهظة التكاليف.. وإما نادرة – وإما غير ممكن إطلاقا استخدامها فى مجالات هامة (هل كانت ستطير طائرة بالفحم مثلا؟)... حتى عرف البترول فاختزل كل هذا.. وسهله.. وتجاوزه.. ثم تدفق بكميات هائلة، وحتى الآن بأسعار هى أرخص من أى وقود آخر.. فكان، بعد العقل البشرى صاحب الفضل الأول فى خلق هذا العالم الجديد. فى دفع حدود الإنسان وتوسيع آفاقه آلاف المرات. وأنا أضعه بعد العقل البشرى لان عالم الإنسان، إذا تحدثنا عن التطور، أداته الأولى الحاسمة هى العقل. وإذا كنا نقول "الإنسان بأصغريه: قلبه ولسانه "ومجموعهما هو التعبير عن العقل.. فإننا نستطيع أن نقول أن العالم.. رغم كل جيوشه وصواريخه وناقلات النصف مليون طن، يصدق عليه تماماً، ودائما "إن العالم بأصغريه: قلبه ولسانه".

وأنا لا أتحدث هنا عن البترول، رغم كل الإغراءات، حديث سياسة أو حديث اقتصاد. والدنيا من حولنا لا حديث لها إلا عن "البترول سياسة واقتصاد". إنما أتحدث عنه من جانب حضارى، إنسانى، أثر ويؤثر فى فكر الإنسان، وأفق الإنسان وتكوين الإنسان، ونسيج كل خلية حية فى الإنسان.

ناحية قلما تحدث عنها أو اهتم بها أحد، ولعلها تكون مجالا لحديث مستقل...

وبعد ذلك يستكثر الإنسان "المتقدم" علينا.. ثمن البترول!..

والإنسان فى الرحلة قد يكون آلة تصوير صماء.. ولكنه لا يكون إنساناً من النوع الذى نريد، إلا إذا وجد نفسه – تلقائياً ودون قصد يتذكر ناسه، وبلاده، ويقارن ويتمنى الأمنيات فهذا وحده هو حقا "الإنسان المسافر".

وأنا أتحدث عن انقلاب السياحة.. فأتذكر بلادنا العربية...

كما يرى الإنسان منا الصاروخ، فيتمناه لبلاده. والرخاء، فيتمناه لمجتمعه.. وحرية العقل والفكر والضمير، فيتمناها لشعبه وقومه.. ويرى نفس الإنسان السفر وهو موضوعنا فى هذه الصفحات فيتمناه لبلاده...

لا شك أن شعوبنا العربية أيضا تمر فى هذا المجال بانقلاب واسع. "مرض الحنين إلى السفر"، كما اسميه، مستخدماً عنوان مسرحية فرنسية قديمة، مرض صحى يعالج أعراضا أخرى كثيرة وإذا كان يجتاح شعوبنا..من أقدر الناس إلى

زهور الشباب التى تكتظ بها حقولنا وبرارينا.. فهذه علامة صحية. ولكن تقصير المسئولين فينا فى هذا المجال، كبير.. وهو تقصير نحو أنفسنا...

أتطلع إلى خريطة وطننا العربى.. فأجد فيها كل ما تتوق إليه النفس الراغبة فى المعرفة.. والتغيير... والترفيه.. وكل ما يشبع أى نوع من أنواع الفضول...

الجبال الشامخة والغابات السامقة الأشجار، والجليد فى جبال الأطلس والجزائر وشمال العراق ولبنان وما فوق شواطئ سوريا!..

الشواطئ البالغة الجمال؟.. مصر وليبيا وتونس...

صيد البحر؟ فى البحر الأحمر والخليج....

صيد البر؟ فى الصحارى وفى غابات السودان!..

الدفء فى الشتاء؟.. فى جنوب مصر وفى الخليج طراوة الصيف؟ فى كل الساحل العربى من سوريا إلى الساحل المغربى على المحيط الأطلسى...

آثار إسلامية وعربية؟.... قاهرة الألف مأذنة والمسجد الأموى والكاظمية والأعظمية والفن العربى الإسلامى الرفيع فى تونس والمغرب.

آثار حضارات أقدم؟.. وادى ملوك الفراعنة فى طيبة.. بابل القريبة من بغداد.. تدمر وبالميرا فى بادية الشام، ومسارح الرومان فى اسبراطة وغيرها...

سياحة دينية؟ صحية ؟ ثقافية؟.. ترفيهية؟ إن السياحة الآن سياحات.

ماذا بقى وليس موجوداً عندنا؟ بكثرة وغزارة.. وتنوع.. وجمال؟.

إننى لا أدعو إلى "الاكتفاء الذاتى" فى السياحة ولا إلى أن لا نعرف سوى أنفسنا فهى معرفة ناقصة.. ولكن أليست معرفة هامة؟... بل أليست معرفة أنفسنا هى أول خطوة على طريق المعرفة كله...

إننا لسنا فى حاجة إلى اختراع البخار وقد صرنا فى عصر الذرة. فلنفعل ما فعلوا..

لقد انتبهت كل الدول إلى أهمية السياحة الداخلية. ثقافياً وحضارياً بل واقتصادياً..

فجزء كبير من مال السياحة فى تلك البلاد، ينفق داخلها ينميها يجملها، يوسع دائرة رخائها، ويربطها ببعضها البعض.

والسياحة الداخلية عندى ليست داخل القطر، بل داخل الوطن العربى..

والمفتاح هو أن نعاملها على هذا الأساس بالأفعال لا بالأقوال. فقد صارت السياحة فى أمم شتى كأمم السوق الأوروبية المشتركة سياحة داخلية.. لو اعتبر الطيران العربى طيرانا داخلياً لهبطت التكاليف إلى النصف..

لو سهلت تأشيرات الدخول السياحية لتضاعف السائحون..

لو فصلنا تماما بين سياسات الحكومات - وأحيانا أمزجتها - وبين تنقلات وعلاقات الأمة الكبرى.. لزالت المخاوف..

لو رصدنا أموالا نشجع بها رحلات الطلبة والشبان والشابات إلى "الخارج" ورتبنا رحلات بسيطة التكاليف وبسيطة المظاهر فى "الداخل" بين أرجاء الوطن الواحد.. لزالت معلومات خاطئة، وصفت نفوس مضللة، وحق علينا القول الكريم: "وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا!".

لو وضعت الدول العربية استراتيجية لشبكة طرق ومواصلات عربية، ينفق عليها من المال الوفير غير المستثمر، من الأيدى العاملة المعطلة، لتبدلت شرايين الحياة فى الجسد العربى تبديلا.

أين الطريق البرى من بورسعيد إلى طنجة؟.

أين خط السكة الحديدى الغابر من دمشق إلى الحجاز؟.

أيعقل أن لا يكون بين مصر والسودان إلا طرق القوافل التى انفتحت من مئات السنين دون إضافة واحدة؟.

هل وضع خطة استراتيجية لشبكة مواصلات عربية مسألة صعبة، كوضع استراتيجية موحدة لحل قضية فلسطين؟.

نحن نطلب الأساسيات والبديهيات، ولا نعثر عليها...

أين وأين وأين... وألف أين؟.

والى متى لا نجد ما نكتبه إلا أن نقول: أين؟!.

وجه جديد للعالم صنعه البترول!

كان حديث الشهر الماضى عنوانه "عالم من سياحة وبترول.. وفضول"...

ولعلنى أعطيت بعض جوانب الحديث حقها، وذكرت أن عنصراً هاماً لم تتسع الصفحات لأن يستوفى حقه، وهو البترول....

وكما ذكرت، فيما أحسب، فأننى لا أتحدث عن مشكلة البترول من زواياها المعروفة: لا مشكلة الطاقة، ولا أسعار البترول، ولا الصراع بين دول "الأوبك" والدول المستهلكة.. ولا الصراع السياسى الذى يستتبعه هذا الوضع الاقتصادى.. إلى آخره.

ولكننى أحاول أن أتأمل، فى سلسلة من الاستطرادات، الآثار الاجتماعية التى ساهم بها البترول فى هذا العالم كما نعرفه.. وحتى الآثار التى ساهم بها فى تشكيل نفسية الفرد نفسه.

وبغير كثير من المبالغة، كانت هناك اكتشافات قليلة غيرت وجه حياة الإنسان على الأرض. اختراع الورق خلق أول صلة مدونة بين الناس. اختراع الطباعة مثلا جعل المدونات فى متناول عدد أكبر وخلق شيئا اسمه التعليم والقراءة على نطاق واسع. اختراع البارود نقل الحروب من لقاءات عدد من الفرسان فى ساحة وغى بعيدة، إلى الحروب التى تشترك فيها وتقاسى منها الشعوب كلها، إذا أرادت طبعاً أن تكسب حربا.

من هذا المستوى اكتشاف البترول.

فالبترول هو الذى وضع العالم على طريق الحركة الهائلة والإنتاج الوفير.

صحيح أن اكتشاف البخار ثم الكهرباء كانا خطوة على الطريق. وصحيح أن اكتشاف الصحافة والإذاعة نقل صورة العالم إلى الإنسان حيثما كان.

ولكن لو وقف الأمر عند هذا لما حدث ما حدث. ولما رأينا العالم الذى نعرف.

كان البخار سيقف عند حدود، وكذلك الكهرباء. فالفحم – الذى كان مصدر تلك الطاقة – يمكن أن يدير مصنعاً أو يسير سفينة. ولكنه ما كان ممكناً أن تطير به طائرة ولا تسير به سيارة ولا تحارب به دبابة. وما كان ممكناً أن ينتشر استخدام الطاقة هذا الانتشار.

فالنقلة الإنسانية، في مدى انتشارها، من عالم الفحم إلى عالم البترول، أشبه بالنقلة التى تمت من عالم الكتابة إلى عالم الطباعة. فصار ممكناً أن يطبع من المخطوط ملايين النسخ. وصار ممكناً أن تصدر ملايين الصحف كل أربع وعشرين ساعة..

أولاً: لرخص تكاليف البترول. ثانياً لسهولة استخدامه فى ملايين الوحدات الصغيرة – الطائرات والسيارات مثلاً – هذا إذا قصرنا أثره على عنصر "الحركة" وحده فى الإنسان، لا على عناصر تأثيره فى شتى نواحى الإنتاج.. من الأنسجة إلى المطاط إلى بروتين الطعام..

صحيح أن العقل الأوروبى كان هو القائد للتقدم العلمى فى القرون الأخيرة. وصحيح أن اكتشاف البارود أو الطباعة أو البخار، كان أثر "العقل الإنسانى فيها" أهم من أثره فى اكتشاف "خام" البترول.

ولكن الغريب أن مادة التطور العلمى – سواء فى مؤلفات المؤرخين أو فى مقررات المدارس – حينما تتعرض للخطوات – أو المنعطفات الحاسمة – فى طريق الثورة العلمية الصناعية تذكر ظهور البخار، ثم اللاسلكى، إلى آخره... ولكنها لا تذكر بنفس الدرجة من الأهمية: اكتشاف البترول.

مع أنهم، فى النهاية، أى الأوروبيين، هم الذين اكتشفوه.

ولكن هذا الإهمال – أو الإغضاء – ربما كان مصدره أن معظم الاكتشافات السابقة يمكن إنتاجها فى أى مكان من العالم، ماعدا كل ما هو عائد إلى البترول، فهو مخزون أساساً فى مناطق محددة فى العالم. فهو مصدر الطاقة الوحيد الذى تتحكم فيه عوامل الجغرافيا السياسية إلى حد بعيد. وفى حين ظهر الفحم مثلا فى

بلاد الصناعة – إنجلترا وألمانيا مثلا – ظهر البترول فى "المستعمرات" التى لم يشأ الغرب وقتها أن يعلم أبناءه أن شريان حياته الحديثة مربوط بتلك البلاد. وأن ما يأتي الغرب من هذه البلاد أهم كثيراً من الشاى، والتوابل، والعطور، والحرير الفاخر المصنوع بالإيدى.

إن الجوانب الإنسانية كثيراً ما يجرى إغفالها عند تعداد العوامل المؤثرة فى الأحداث.. وهذا هو أحد أكبر جوانب النقص فى الفكر البشرى، وأحد أهم أسباب الصراعات...

لقد صار البترول عنصراً حاسماً فى حياة العالم منذ الحرب العالمية الأولى. ومنذ قال "لويد جورج" رئيس وزراء إنجلترا قبل خمسين سنة "لقد سبح الحلفاء إلى النصر على بحر من النفط". ولكن المرء يلاحظ – فى حدود ما يعرف – أن الأجيال الغربية لم تتعلم قط فى برامجها ومدارسها ولا فى وسائل إعلامها، أى شئ عن قيمة البترول. وبالتالى لم تتعلم تلك الأجيال أن حضارتها مرتبطة فى تطورها بأماكن بعيدة فى القارات الآخرى "التى ظلت بالنسبة له" مستعمرات"، سواء بالمعنى المادى أو بالمعنى المعنوى والنفسى..

لم يتعلم العقل الأوروبى العام أن تقدمه مربوط بدرجة حيوية – لا كمالية – بقارات آخرى وشعوب آخرى. وحتى حين انسحبت جيوشه وأسلحته، ظل يحس "نفسيا" أن باقى العالم مستعمر، تابع له.. وأن سلعة كالبترول متاحة – بديهيا، وبلا مقابل تقريباً – كماء المحيطات التى ليس لها مالك. وبالتالى تأخرت الذهنية الأوروبية والأمريكية كثيراً فى إدراك ضرورة قيام علاقة جديدة، أكثر احتراماً وتوازناً، مع "الآخرين"... الذين هم بالنسبة لهم: بقية البشر!.

ولذلك، عندما "فوجئ" الرأى العام الغربى بحكاية "أزمة الطاقة" رأينا ردود الفعل العجيبة الغريبة، وكأن الأمر مفاجأة. وأستطاع الحكام الغربيون وأصحاب المصالح الغربية – سياسية واقتصادية – أن يستخدموا ذلك المزيج من الرعب والمفاجأة والذهول ويوظفوه لمصالحهم السياسية. ويسندوا به تهديداتهم العسكرية.

فالعالم الغربى "نفسيا وذهنيا" ما زال فى حاجة إلى.أن يتعلم أن سائر الكرة الأرضية ليست مستعمرة له، ولا هى مكرسة لخدمته. وأن علاقته بالغير هى علاقة "حاجة متبادلة" وليست علاقة "قوى يتصدق على ضعيف".

وقد جرفنى موج الحديث إلى بعض شواطئ السياسة، رغم أننى أحاول هنـــا أن أسبح بعيداً عنها... لأنها شواطئ مطروقة كل يوم وكل ساعة...

إنما أريد أن أتحدث عن الأثر الحضارى للبترول.. ولكثرة الآثار وتشـــعبها الرحيب لابد من اختيار خيط واحد. وليكن: الانتقال والحركة...

إن الكل متفق على أن أهم تطور فى حياة العالم خلال نصف القرن الآخير، هو أن العالم صار "صغيراً". أو صار "قرية كبيرة" كما يقول "مارشال ماكلوهان". وقد صار العالم صغيراً بفعل أشياء كثيرة: البريد والبرق والتليفـــون واللاســـلكى والصحف والإذاعة والتليفزيون...

ولكن أهم ما جعله "صغيراً"، بكل ما لذلك من نتائج، هو سرعة وسهولة النقل والإنتقال..

نقل الأفكار، ونقل الجيوش، ونقل الأفراد، ونقل السلع والبضائع...

النقل السيئ والنقل المفيد...

النقل السيئ، الذى صار ممكناً معه إلقاء آلاف القنابل على أقصـــى الـــبلاد، وخلف خطوط القتال بمئات الآميال (دعك من الصواريخ) وبالتالى لم تعد الحروب مقصورة على الجنود، بل شاملة لأبعد البشر عن الصراع. فلم تعد هنـــاك "قريـــة آمنة"! وكان هذا مستحيلاً بدون البترول بالذات..

والنقل البرئ...

فبعد أن كان الرسول يسافر من بلد إلى بلد فى شهور ليبلغ رسالة.. صـــار عاديا أن يجتمع ممثلو مائة وخمسين دولة – العالم كله – فى الأمم المتحدة طـــوال السنة وفى أى وقت من السنة فالطائرات النفاثة – ووقودها البترول – اختصـــرت الشهور إلى ساعات.

ولسنا فى حاجة إلى تفصيل أى مثل من هذين المثلين فقط. فآثارهمـــا علـــى العالم معروفة وملموسة وظاهرة كل يوم. لولا أن الإنسان ينسى. وسرعان ما يألف الجديد الغريب ويعتبره عادياً وبديهياً ومفروغاً منه!.

ولكن، لندخل إلى طريق أضيق، وننسى الطائرة، ونكتفى بالسيارة.. ومرة أخرى: السيارة كأداة ما كان لها أن تقوم وتوجد، دون اكتشاف البترول. وما كان لها أن تنتشر دون رخص سعر البترول – حتى الآن!.

ولنأخذ مجتمعا واحداً، هو المجتمع الأمريكى، لنرى كيف أعادت "السيارة" تشكيله حتى على المستوى الفردى...

وسنأخذ المجتمع الأمريكى نموذجاً، لا لأنه حالة فريدة، ولكن أولاً لأنه سبق غيره فى هذا المضمار. ولأن ما يحدث فيه، يتكرر فى كل مكان من العالم تقريباً وإن اختلفت الصور والدرجات.

ولأن أمريكا بحكم اتساعها تكاد تكون قارة كاملة..

فى المشهد العام، لأول وهلة، نجد أن السيارة أعادت توزيع السكان تماماً، وفى اتجاهين متعاكسين فى نفس الوقت:

فالسيارة هى التى خلقت المدن الكبيرة: أى التركزات السكانية الكثيفة. مدن العشرة ملايين ساكن أو أقل أو أكثر، مثل نيويورك ولوس أنجلوس ولندن وباريس وطوكيو.. الخ، من الواضح أنه كان مستحيلا ظهور "المدن الكبرى" بهذا الحجم فى العالم كله، بخيرها وشرها دون وجود السيارة. ونحن نعرف أن ظهور هذه المدن الكبيرة، وتزايدها، حتى يومنا هذا، خلق من القيم والعادات الجديدة، وأوجد من المزايا ومن الشرور على السواء، ما يعكف المفكرون على دراسته وما وضعت من أجله آلاف الكتب.

وفى عكس هذا الاتجاه، جعلت السيارة قيام التجمعات السكانية الصغيرة ممكناً فى أى بقعة من الأرض. فكما قامت مئات المدن الكبرى، انتشرت آلاف القرى. لأن ساكن القرية فى أبعد أماكن أمريكا التى كانت مهجورة، صار يمكنه أن يعيش وأن يصل إليه كل شئ على مدار السنة. من طعام وشراب وثياب وأى أدوات موجودة فى المدينة. بل أن ولايات صحراوية تماماً – مثل أريزونا – صارت ولاية مأهولة مسكونة، بل وفيها أفخم أماكن الترفيه واللهو والفنادق (لاس فيجاس مثلاً).. قامت هنا فى قلب الصحراء تماماً، لأن السيارة وضعتها على الخريطة لأول مرة.

ذلك أن وجود السيارة بأعداد كبيرة – من الشاحنات الكبرى، إلى الحاويات المبردة، إلى السيارات الفردية – خلق صناعة ربما كانت أكبر صناعة فى العالم، وغير خريطة الجغرافيا، وهى: الطرق.. بكل أنواعها! وبكثرة كان مستحيلاً أن تقوم بدلها خطوط السكك الحديدية مثلاً.

أنظروا إلى الطرق الكبرى فى بلادنا وفى العالم كله. الشاحنات المحملة بالخضر والفاكهة واللحوم تقطع الطرق من غرب أوروبا إلى الخليج وفى أمريكا من المحيط إلى المحيط. متفرعة إلى كل مدينة وكل قرية. لأنها يمكن مدها فى السهول والصحارى، وفوق الجبال، وفى الأنفاق.. فلم يعد هناك مكان معزول. ولم يعد هناك حاجز طبيعى يحول دون تدفق الحياة وتثبيت جذورها فى أى أرض. وكان لهذا أيضا الكثير من الآثار الاقتصادية والاجتماعية والسياسية...

خلقت الحياة فى أشد المناطق برودة.. بالتدفئة، وأشد المناطق حرارة بالتبريد..

السيارة خلقت المدن الكبرى.. وخلقت الضواحى.. وفتحت أراضى جديدة للسكن والإقامة.. وللزراعة والإنتاج.. وضاعفت حجم التجارة والتبادل حتى فى داخل القطر الواحد... ومئات ملايين الأفدنة فى العالم ما كان يمكن زراعتها إلا بطرق تشق إليها، وسيارات تجرى عليها، وجرارات وموتورات تزرع وتحصد وتروى...

وكل هذا فى النهاية بمادة أساسية تجرى فى هذه الشرايين والأوردة، هى: البترول...

وعندما نتأمل "ثورة الطرق" التى نتجت عن استخدام السيارة وتزايد الإقبال عليها، نجد أنها من أهم الأشياء التى غيرت معالم الحياة. وأوجدت أشكالاً جديدة للحياة، لم تعد الطرق هى تلك المسالك الضيقة غير الممهدة. وفى التاريخ نجد أن "يوليوس قيصر" كان أول من انتبه إلى شق الطرق – بمنطق ذلك الوقت – ولكن لأسباب حربية، حتى يسهل مرور عجلاته الحربية إلى حيث تتجه أهدافه فى الغزو. ولكى تكون أبعد مناطق الإمبراطورية فى متناول يده، يقمع أى تمرد بعيد فى أسرع وقت.. وتنبه لها هتلر، فى ألمانيا التى تنافس أمريكا فى سرعة إنتاج السيارات بكثرة وبأرخص التكاليف. فأوجد الـ "اوتوبان" أو الأوتوستراد "أو" الهاى

وأى "حسب اللغة. وهى الطرق الكبرى، التى تتجاوز زحام المدن، وتمهد بـأدوات ومواد صلبة قوية، وتسمح للسيارات بالاندفاع فوقها بأقصى سرعة.

وتنبهت لها أمريكا، ليس لأسباب حربية فقط. ولكن لأسباب تتصل بتطـور الحياة وتوسيع الرخاء كما ذكرنا من قبل. وهذه الطرق الكبرى أوجـدت بـدورها أشياء جديدة أوجدت محطات البنزين. أوجدت "الموتيلات" أو الفنـادق الصـغيرة. والمطاعم السريعة. وأعيد بناء فروع للبنوك تسحب منها المال وأنت فى السـيارة. ومطاعم تأخذ منها ما تريد وأنت فى السيارة. وحتى سينما السيارات وغيرها ممـا يسهل السفر بالسيارة فى بلد يصل حجمه إلى حجم قارة مستقلة.

وبسهولة الحركة والانتقال – بسبب السيارة – قل ارتباط الفرد بالمكان. فقبل ذلك، كان الإنسان يعيش مع أسرته منتمياً إلى بلدة أو إلى ولاية بعينهـا. وتتـوالى الأجيال من بعده فى نفس المكان. ولكن السيارة جعلت الوطن. بالمعنى المحلـى – هو حيث يوجد الرزق، وفرصة الحياة الأحسن. فالبيت الأمريكى أكثر البيوت تنقلاً. حتى أطلق البعض على الشعب الأمريكى صفة أنه "أمة على عجل"!.

وشئ من هذا يتسرب بالتدريج إلى سائر أنحاء العالم، تبعا لدرجـة التقـدم ونسبة عدد السيارات إلى السكان. وكمية الطرق المتوفرة.

وقد يمكن الانعطاف إلى حديث أدبى قصير...

فكما أن "القطار فى الأدب الروسى" صار موضوعا للبحث الأدبى فى فتـرة ما، بسبب طول المسافات الهائل. وأن الناس يعيشون فى القطار أحياناً أياماً طويلة متوالية، تسمح بتصور مئات من الصور الدرامية. كذلك فإن قارئ الأدب الأمريكى لا يمكن إلا أن يجد أثر "السيارة" فى الفن الأمريكى.

وأضرب المثل بقصة واحدة فى الأدب الأمريكى. هامة لأن مؤلفها هو "جان كيروان" أول أديب عبر مرحلة القلق فى الروح الأمريكية فى الستينات وما بعدها. ولأنها أهم أعماله (وقد مات شابا من فترة قصيرة) والرواية أسمها "على الطريـق on the road" والأسم وحده يكفى للدلالة على الموضوع. وفى إيجاز شـديد، فـإن بطل القصة صعلوك شاب حائر ضائع مضيع لمن حوله. ولكن روحه كأنها ليست فى صدره بل فى موتور السيارة التى يملكها أحياناً، ويستعيرها أحياناً، ويسـرقها

أحياناً آخرى. إنه يطوف بأمريكا من المحيط إلى المحيط. على متن سيارة. وليس موضوعنا هنا هو القصة، فقط أشير هنا إلى شعور القارئ بأن السيارة هى البطل الآخر فى القصة. هى المرض والشفاء. هى المشكلة وهى الحل.

وأذكر أننى عندما فرغت من قراءة تلك الرواية، قفزت إلى ذهنى مقارنة بين السيارة اليوم وبين الجواد بالنسبة لفارس الأمس.

إنها – كالجواد – أداة الحركة. ولكنها أكثر من ذلك. أنها علامة "الفروسية" وحافز "السرعة والانطلاق". ورمز الجسارة.. إلى جانب إنها رمز المكانة الاجتماعية..

وليتأمل القارئ أفلام "الكاوبوى" الأمريكية دور الجياد فيها. ثم ليتأمل أفلام المغامرة الأمريكية الحديثة، فسوف يجد السيارة تلعب نفس الدور: المطارات المثيرة، والسرعة الجنونية والسيارة المندفعة أداة للجريمة. والسيارة الناعمة أداة للحب!.

نصف الأفلام الأمريكية نجد أن السيارة فيها تلعب دوراً أساسياً بشكل أو بآخر...

ولعلى استطردت..

ولكننى أعود لأقول: إنها جولة حرة وراء جانب من جوانب البترول.وتأثيره فى حياة العالم.

فبغير وجود البترول. وبأسعار رخيصة (حتى الآن) لكانت الدنيا غير الدنيا التى نعرفها اليوم.

ومثل هذا الجانب البسيط، يوجد ألف جانب آخر.

محاولات "صد"
الغزو الحضاري!

صحيح هناك غزو حضارى تتعرض الأمة العربية له. ولكن الحديث عن "صد" هذا الغزو أمر غير وارد فى وغير ممكن. وإنما المطلوب شئ آخر تماما.

لست أدرى بالضبط أى "غزو حضارى" تحدث عنه وزراء الثقافة العرب، فى أول اجتماع لهم فى الأردن، وتنادوا للحديث عنه، وللبحث - بالتأكيد - فى وسائل التصدى له، ودرء مخاطره، عن الأمة العربية..

... لست أدرى بالضبط، لأن الصحف ووسائل الإعلام مع الأسف لم تعطنا صورة كاملة عنه.

وبالتالى، فمع الترحيب الشديد بأن نفكر لأول مرة فى إيجاد تنسيق ثقافى بين البلاد العربية، فإننى لا أريد أن أظلم وزراء الثقافة بأن أنسب إليهم، ربما ما لم يقولوه أو يفكروا فيه. ولكن لأن الأمر مهم جداً على أى حال، فهو يحتاج إلى هذه الوقفة، ويحتاج إلى كل الفكر العربى فى بحثه، وليس إلى وزراء الثقافة العرب وحدهم...

وأغلب الظن أنهم بحثوا موضوع "الغزو الحضارى" من زاويته الثقافية أو الفكرية فحسب. ولعل هذا هو اختصاصهم. ولكن "الغزو الحضارى" أوسع من ذلك بكثير جداً. وقبل أن نسميه "غزواً"، ونتأثر بالمعنى المباشر للكلمة، ونشرع فوراً فى إقامة المتاريس من حولنا لصد هذا "الغزو"، علينا أن نفهم بالضبط... حتى نعرف كيف يمكننا ليس "صده"، والصد وحده أمر سلبى، ولكن كيف يمكننا "مواجهته" و"التعامل معه".

فى البدء يجب أن نتذكر أن الغزو الحضارى - وفى صورة مخففة التأثير الحضارى - أمر عرفته الإنسانية خلال عصورها جميعاً. الجماعة الإنسانية

المتقدمة تؤثر على الجماعات الأقل منها تقدماً بصورة أو بأخرى. إن لم يكن فـي الفكر والثقافة ففى القانون وطرق الحكم. أو فى عادات الملبس والمأكل. أو فى أى أسلوب من أساليب الحياة، بل وحتى عندما تنتصر أمة ما، بالقوة العسكرية، علـى أمة أعرق منها تقدماً، تتأثر الأمة المنتصرة بالأمة المهزومة عسكرياً، ولـو فـي أشياء أخرى بالغة الأهمية.

لقد حطمت الإمبراطورية الرومانية، مثلاً، حضارة الإغريق، ولكـن تـأثر روما بحضارة الإغريق، كان عميقاً لدرجة أن حضارة روما صارت إلى حد كبير امتداداً لحضارة اليونان القديمة.

ولو نظرنا إلى قصة نزول الإسلام ثم انتشاره السريع المذهل، لوجدنا ظاهرة متشابهة ومختلفة. فقد خرج أهل الجزيرة العربية غيـر مـزودين بـأى شـئ إلا بإيمانهم، وطلبهم للجهاد والاستشهاد فى سبيل الله، والمبادئ الإنسانية التى جاء بها الإسلام. وبهذا وحده هزموا وحطموا إمبراطوريات عريقـة، مثـل إمبراطوريـة الفرس وإمبراطورية بيزنطة، ثم لم تلبث الحضارة الإسلامية أن تأثرت بالكثير من أنماط حياة الذين هزمتهم. فى الثياب. فى الطعام. فى أساليب تنظيم الدولـة وإدارة الحكم. أثرت وتأثرت. وكان عصر قوتها الكبرى أيام الخليفة المأمون هو أعظـم عصور الترجمة فى الفلسفة والعلوم والآداب عن الحضارات الأخرى. كانـت قـد صارت من القوة الحضارية ومن الثقة بنفسها بحيث لم تخش هذه الترجمـة، بـل أقبلت عليها فى نهم شديد، لأنها كانت قادرة على استيعابها، وليس الاستسلام لها أو الخضوع أمامها. فالحضارة الإسلامية لم تصبح امتدادا لحضارات فارس وبيزنطة كما حدث لروما مع اليونان القديمة. ولكنها كانت حضارة جديدة تماماً، كانت هـى صاحبة التأثير الأكبر، ومصدر "الغزو الحضارى"، وإن كانت قد تأثرت ودرسـت واستوعبت ما سبقها من حضارات.

ولكننا الآن – فى هذا المجال – أمام وضع يختلف تماماً عن كل ما سبقه فى مجال الغزو الحضارى.

وضع جديد تماماً، يختلف فى أمرين أساسيين:

الأمر الأول: أن ساحة التأثر أو التعرض للغزو الحضارى هذه المـرة هـى العالم بأكمله. الكرة الأرضية كلها. بسبب ما نعرفه من تقـدم وسـائل الاتصـال والانتقال. حتى صار العالم كما قال "مارشال ما كلوهان": قرية كبيرة واحدة.

الأمر الثانى: أن الحضارة الأوروبية (وأمريكا وروسيا على السواء استمرار لها)، وهى الحضارة الغازية، لا تقدم للعالم ديناً سماوياً، ولا رسالة روحية سامية، ولكنها تقدم حضارة وقيماً مادية فى الدرجة الأولى، مهما صـاحبها مـن أفكـار وفلسفات ونظم، ما زالت محل نزاع، لتنظيم هذه الحضارة المادية.

حين خرج المسلم من صحرائه إلى الدنيا الواسعة لم يكن يحمل إلا القرآن وسيفه!.

الآن تهجم الحضارة الحديثة بأسلحتها، وأفكارها - حسب جهـة الغـزو - وأنماط حياتها وطعامها وعلاقاتها. تهجم بطائرات لابد أن نركبها وبضائع لابد أن نشتريها. وأفلام لابد أن نراها على شاشات السينما والتليفزيون. تصـل بهجومهـا حتى حجرة نوم الفرد فى أبعد مكان، تطل بإغراءاتها عليه من شاشـة التلفزيـون الملون، فتؤثر فيه من حيث لا يشعر، في كل نواحي حياته، توحى له بما يأكل وما يشرب وما يحب، وما يكره، وترسم له طموحاته وتحدد له أحلامه التى يجـب أن يسعى إليها، وتشرح علاقاته بزوجاته وبناته وأولاده.

فالهجوم الحضارى المعاصر، هجوم ساحق ماحق، تهب رياحـه مـن كـل اتجاه، وتتسرب ذرات ترابه من خلال أكثر النوافذ والأبواب إغلاقاً وإحكاماً تحمله إلى أنحاء الدنيا الكتب والصحف والسفن والطائرات.. وتحمله أمواج الأثير، التى لا يمكن منعها ولا الحيلولة دون أن يلتقطهـا أى إنسـان، فـى أى مكـان، بجهـاز "ترانزيستور" صغير، لا يتجاوز حجم الكف الواحدة.

وهناك من يتصورون أن "صد هذا الغزو الحضارى" ممكن. وهنـاك مـن ينادون بذلك، مكتفين فى حديثهم هذا عادةً بالعموميات، والعبارات الإنشـائية، دون أن يقولوا لنا: كيف؟.

ولو نظرنا إلى الواقع، ولم ندفن رءوسنا فى الرمال، فإننا نجد أن "صد" هذا الغزو الحضارى، والاحتماء منه، مستحيل.. لأنه كما قلت يدخل من ألـف بـاب وباب، ويتسلل مع الريح، ويطير على أمواج الأثير..

لقد "احتمت" دولة اليمن، مثلاً، فى فترة من الفترات من هذه الحضارة بالعزلة الكاملة. ويروى المؤرخ الفيلسوف الراحل أرنولد توينبى فى أحد كتبه، أنه ناقش، قبل ثلاثين سنة، أحد حكام اليمن فى ذلك الوقت عن هذا الموقف، فقال له: أنه لا يريد من حضارة الغرب شيئا يعدى بلاده.. "لا الويسكى ولا البرلمانات"!.. فهو رأى الحضارة الحديثة بكل حسناتها وشرورها، ووجد أنه لابد من المنع الشامل.. وكانت النتيجة ما نعرف.

واليوم.. لا يوجد أحد فى منجاة عن "الغزو الحضارى" إلا بعض قبائل العرايا فى وسط أفريقيا، وقبائل "البابوا" فى جزر جنوب شرق آسيا، وحتى هؤلاء، اكتشف العالم وجودهم. وثارت مناقشة منذ سنوات، طريفة وأليمة، بين من رأوا ضرورة تمدينهم بالتدريج، ومن رأوا الإبقاء عليهم كما هم، نموذجاً حياً مستمراً لإنسان العصور الأولى.. أى كالاحتفاظ بأنواع بعض الحيوانات وحمايتها من الانقراض!.

بعد ذلك، لنأخذ نموذج أى بلد، كائناً ما كان، على الكرة الأرضية يريد أن يحيا بشكل أو بآخر.

إنه بالتأكيد سوف يحتاج – مهما ضيق على نفسه – إلى أشياء أساسية من العالم الصناعى المتقدم. طائرات مدنية. سيارات. معدات لرصف طرقه. درجة من التصنيع والآلات. مطبعة وورق وجريدة.. مواد بناء.. أجهزة راديو تلتقط أنباء العالم كله.. إلى آخر السلسلة حسب درجة رخاء كل بلد..

ومع هذا كله سوف يرى الناس ويسمعون وسوف تقوم مدن. والمدن – حتى لو سكنها أهلها فقط – غير الريف والبادية بمعنى أنها تغير أنماط الحياة. الأسرة الكبيرة مثلاً تتحول إلى أسر صغيرة بحكم المساكن الحديثة الضيقة. عادات الأكل والملبس تتغير. المدارس تفتح. تعرض الأبناء لمؤثرات غير البيت، بل وغير المدرسة، يحدث أثره فى عقلياتهم وطريقة تفكيرهم ونوع تطلعاتهم. ولكن مع هذا كله يأتى الأجانب كخبراء لا مفر منهم، ولا مفر من تأثيرهم فيمن يحتكون بهم، والدولة ذاتها لابد أن ترسل أبناءها إلى الخارج لكى يتعلموا إدارة هذه الأمور فى شتى مناحى الحياة.. وبالتالى يتعرضون لكل الغبار الذرى المتساقط من جو الحضارات السائدة فى البلاد التى يذهبون إليها. ويعودون إلى بلادهم مشبعين بدرجات متفاوتة بهذا الغبار، ناشرين له من حولهم.

هذا تصوير بسيط ومتواضع لحظ أقل البلاد شأناً وأبعدها موقعاً، من وجوه التعرض للغزو الحضارى المعاصر. وقد ذكرت بعض الأولويات التى لا مفر منها. ولم أذكر ما يحدث فعلاً من أضعاف أضعاف ذلك. فأين المفر من هذا الغزو؟ وكيف يمكن "صده" بمعنى إحكام الأبواب والنوافذ دونه؟ وما بالنا إذا كنا نحن العرب بالذات لسنا شعباً بدائياً، ولا نقع على هامش الدنيا، بل أننا أمة تتوسط العالم جغرافياً وإستراتيجياً، ووثيقة الصلة بمصالح عالمية كبرى، ولها أكثر من ماض وأكثر من تراث. ولها سابق عهد بأنوار الحضارة والمعرفة والاحتكاك بالعالم والنصر والهزيمة والاحتكاك بالحضارات الأخرى وتحديها؟.

أين المفر؟.

وهل يمكن – كما يظن البعض – أن الحضارة الغازية، يمكن "تعقيمها" عند الحدود، كالشخص الذى يجب أن يحمل شهادة تطعيم ضد الكوليرا، بحيث تدخل الحضارة دون "أمراضها"...؟.

هناك طبعاً أشياء يمكن إيقافها عند الحدود بهذا المعنى. ولكن هناك ما يعتبر جزءاً لا يتجزأ منها بحيث لا يمكن معالجتها بأى مصل كان. كأثر الانتقال إلى المدن الكبرى فى تكوين العلاقات الأسرية، أو كأثر برامج الإذاعة الملتقطة عبر موجات الأثير.

إذن، فما العمل؟...

إن الانغلاق مستحيل، لأن معناه أن ندير ظهورنا للحياة، ونعتزلها تماماً. ثم إنه حتى لو أردناه فهو غير ممكن لأننا إذا اعتزلنا الحياة فإن ديناميكية الحياة المعاصرة لا تعتزلنا وليست مستعدة لذلك. وأسباب عملها مع غزونا حضارياً كثيرة. فهى إما – عقائدياً – تريد أن تنشر بيننا مذاهبها، وإما – تجارياً – تريد أن تبيع فى أسواقنا بضائعها. وإما – اقتصادية – فهى تستورد أو تشترى أو تحصل على ما لدينا من خامات تريدها.

إذن، فما العمل؟...

يجب في البداية أن نستبعد من لغة القول عندنا عبارة "صد الغزو" الحضاري، لما توحي به من معنى سلبي، انغلاقي، وغير ممكن تحقيقه وإنما من الأنسب أن نستخدم في هذا العنوان "مواجهة التحدي الحضاري والتعامل معه".

وليس الأمر طبعاً تغيير جملة بجملة، أو عنوان بعنوان. وأهمية العنوان ليست إلا في أن يعطينا – نفسياً وذهنياً ووجدانياً – المؤشر الصحيح، إلى الاتجاه الصحيح.

مواجهة التحدي الحضاري والتعامل معه معناه:

* أن نفتح عقولنا تماماً للتحديات الحضارية بكل صورها. يجب أن نقرأ كل شئ، ونسمع كل شئ، ونناقش كل شئ. ويجب – في الجانب المادي – أن نتعلم وندرس كل فروع المعرفة الحديثة، واستخداماتها التطبيقية، العملية، ابتداء من السلاح العسكري وانتهاء إلى السلع التي تسهل حياة المواطن في العصر الحديث.

في الجانب المادي، لا يكفي أن نكون "مشترين" فقط. إنما يجب أن نتقن الفنون والعلوم المتصلة بجوانب الحضارة المادية، وهو الجانب الطاغي، حتى نطوعها لإرادتنا، ونشارك في التحكم فيها. وإننا لنرى أمامنا كيف أقبلت إسرائيل مثلاً على جانب العلوم الإلكترونية، علوم المستقبل بالذات. فركزت عليها، حتى استطاعت أن تكون منتجة لأجهزة التحكم والتصويب المطلوبة الآن في كل قطاع.. وبالتالي استطاعت أن تصنع الطائرة الحربية، والصواريخ الصغيرة، والزوارق البحرية، وبعض أنواع الطوربيد. وعلى نطاق أوسع، رأينا كيف عكفت اليابان على دراسة كل علوم الحضارة، ثم لم تلبث تفوقت، وسبقت.

وفي الجانب الفكري، لا يجوز أن يكون هناك أمام مراكز البحث والجامعات والمعاهد جدار، ولا أن يكون هناك ممنوع.

وإذا اتفقنا على هذا المبدأ الأولي العام، فإنه بعد ذلك يظل لنا دائماً حق الانتقاء، في كافة المجالات، فقد تضطر دولة إزاء ظروفها الاقتصادية أن تحظر استيراد سلع كمالية معينة مثلاً.. ولكن السلع هي نتاج العلم وليست العلم ذاته.. وحظر استيراد السلعة أو تحديده لا يعني حظر استيراد العلم نفسه أو تحديده.

* ولكن إذا فتحنا صدرنا وفكرنا للحضارة الحديثة، فمن أين يأتى عنصر المقاومة لما هو ضار منها أو غير مناسب لنا، ومن أين تأتى الحصانة؟.

هذا يقودنا إلى الركن الثانى اللازم والضرورى من أركان "مواجهة التحدى الحضارى والتعامل معه".

هذا الركن الثانى قد تفتقده بلاد نامية غيرنا، ليس لها تراث، ولكن فى حالتنا بالذات، فإن لنا فى أرضنا جذوراً ضاربة إلى أعماق بعيدة جداً، من الدين، والتراث، والتاريخ، والعادات والتقاليد.

إن عملية إحياء هذه الجذور، هى هذا الركن الثانى. هى سلاحنا الحقيقى فى مواجهة "تحديات الحضارة". السلاح الأعمق والأقوى من سلاح الانغلاق بجدرانه الواهية التى لا تمنع شيئاً.

هذه الجذور الضاربة إلى أعماق بعيدة فى أرضنا، قد طال بها الجفاف. لم تشرق عليها الشمس ولم يرو عطشها الماء منذ أزمان وأزمان.

لا شئ يجعل هذا كله يورق من جديد، إلا تعريضه لضوء البحث والمناقشة والاجتهاد. فيتجدد شباب الشجرة الورافة كلها. تسقط منها الأوراق الميتة التى علقت بجوهر تراثنا فى عصور الاضمحلال والظلام. وتزهر الغصون والأوراق الأصيلة، المليئة بالحياة.

هذا الإحياء المستنير المتفتح الواعى، هو الذى سيجعل الحصانة من بعض أمراض الحضارة كامناً فى كل نفس، وجزءاً من تكوين مجتمعنا الذهنى والنفسى. حصانة لا تقاس إليها أبداً حصانة مصطنعة من الأبواب والنوافذ المغلقة، ودفن الرؤوس فى الرمال، فى عصر تتسرب فيه ذرات الحضارة - كما قلنا - على موجات غير مرئية من الأثير.

ولكى ننتقل من مجال التعميم إلى مجال التخصيص والتحديد. خصوصاً وأن الحديث قد بدأ باجتماع وزراء الثقافة العرب، وفى رعاية المنظمة العربية للثقافة والفنون والعلوم، فإن هناك مثلين محددين، أرى أنه من الضرورى أن يرى كلاهما النور، وهما يعبران - كمجرد نماذج - عما أقصد إليه...

فى مجال الإحاطة بكل عناصر المعرفة الحديثة، ماذا نجد؟

نجد أنه ليس لدينا إلا دور للنشر، قامت أساساً كعمل تجارى، وهذا حقها. فهى تختار الكتب التى تتوقع رواجها. والتى لا تكلفها كثيراً، فتقبل عليها تترجمها وتطرحها فى الأسواق. وهناك حكومات تنافس دور النشر الفردية فى هذا الأسلوب.

ولكن المطلوب فى مجال الترجمة، أمر آخر تماماً، لو يتم فإنه لن يقل قيمة عن فتح عشر جامعات ضخمة بأكملها.

إن الشاب فى إنجلترا – مثلاً – يشب فيجد كل أمهات الكتب، كتب النصوص الأساسية، موجودة ميسرة له فى لغته حتى ولو كانت مكتوبة فى أصلها بالألمانية أو الفرنسية أو الروسية.. ولغات أخرى كثيرة، إنه سيجد فكتور هيجو بالإنجليزية مثل شكسبير تماماً، وفلسفة شوبنهاور وكانت الألمانية بالإنجليزية، مثل فرانسيس بيكون. ودستويفسكى الروسى فى لغة شارلز ديكنز. ولا أستطيع أن أضرب أمثلة بكتب سائر العلوم. المهم أنه لا يجد أن اللغة عقبة فى طريق توغله فى العلم الذى يختار وفى سن مبكرة. هذا يجده الطالب والباحث الأمريكى والإنجليزى والفرنسى والألمانى والروسى. ومنذ سنوات كانت اليابان قد أرسلت شاباً إلى القاهرة يقضى سنوات لتعلم اللغة العربية بهدف أساسى هو: ترجمة "ابن خلدون" إلى اللغة اليابانية.

فى بلادنا العربية لا نجد هذا. لا يحيط بهذا إلا أحد اثنين. أما ذلك الذى تفوق وأرسلته بلده إلى بعثة فى الخارج، وهو نوع نادر فى عدده. أو ذلك الشديد الإصرار، الذى يقضى سنوات لإتقان لغة أجنبية واحدة ليعرف كنوزها وفكرها، عن طريق مباشر.

وقد ناديت كثيراً بأن هناك ألف كتاب أساسى – مثلاً – فى شتى العلوم والفنون، يجب أن يجدها الشاب العربى فى لغته. وترجمة هذه الكتب تكلف كثيراً. نعم. ولكنها حتى على المستوى التجارى ستكسب. لأنها هى الكتب التى ستقرؤها الأجيال مئات السنين. وهى مع ذلك تكلف أقل من مبانى كلية جامعية واحدة! ولكن أثرها – كما قلت – يفوق إقامة عشر جامعات جديدة!.

ولو فعلت وزارات الثقافة أو التربية العربية – مجتمعة – هذا الجهد، لحققت قفزة هائلة فى استيعاب شبابنا لجوهر الحضارة، فى سن مبكرة، سن التشبع وما قبل الإبداع وقبل بلوغهم سن التعب والعقم.

انتقاء الترجمة حالياً – مما يغرق الأسواق – يتم إما لأغـراض تجاريـة، أو سياسية، أو غيرها. لأن هذا الجهد المطلوب، نقل الحضارة الحديثة إلى اللغة العربية مرة واحدة وإلى الأبد، يحتاج إلى جهد آخر، ودافع آخر، وأسلوب آخر فى الانتقاء...

وبالمقابل، فى باب إحياء التراث...

مرة أخرى، نجد أحيانا بعض جهود مشكورة. لكننا نجد على الأغلب أن نشر التراث أخذ طابع التجارة. أو طابع عدم التمييز. فكل كتاب مرت عليـه السـنون وعلاه التراب، فهو تراث، يعاد تحقيقه ونشره على الناس.

فى حين أن هذه عملية يجب أن تتم من خلال انتقاء شديد، يفرق بين السـمين والغث، بين فكر عصور النهضة وبين فكر عصور التخلف، فتاوى عهـود العـدل وفتاوى عهود الزلفى والملق والانتفاع، فإلى جانب الواجب الأصلى وهـو أن نفهـم ديننا وتراثنا على وجهه الصحيح، فإننا نريده غذاء نفسياً وعقلياً قوياً، يواجه به شبابنا رياح "الغزو الحضارى" يستوعبونها ويستخدمونها، فلا تجرفهم ولا تستخدمهم...

يبقى الركن الثالث الذى لا يتجزأ فى ضرورته، عن الركنين السابقين معاً.. وهو، ضرورة البحث عن إجابة ما، لسؤال هام، وهو: أى صيغة حضارية تريـد الوصـول إليها، ونراها مناسبة لنا، ونساهم بها فى الحضارة الحديثة الإنسانية بوجه عام؟..

سؤال ليس من السهل الإجابة عليه، وبالتالى لا نتوقع أن يجيب عليه اجتماع وزراء، أو مؤتمر مفكرين، ولكن الإجابة قد تأتى إذا طرحنا أولاً السـؤال علـى الذهن العربى العام، وإذا نجحنا فى أن نجعله يشغل بال كل القيادات فـى بلادنـا. بالمعنى الواسع للقيادات.. أى القيادات السياسية والفكرية والعلمية والفنية..

وهو سؤال حاولنا أن نطرحه فى مجلة "العربى" فى أعداد كثيرة.. من زوايا مختلفة.. اقتصادية أو اجتماعية.. ولابد أن نمضى فى طرحه والإلحاح عليه، وفتح باب المناقشة فيه.

فمن ناحية، لا شك أن للحضارة الحديثـة أمراضـها، التـى ظهـرت فـى المجتمعات المتقدمة والتى يبحث فيها أصحابها أنفسهم ويبحثون لها عن علاج، فقيام المدن الضخمة المزدحمة، خلق ظروف الحياة غير الصحية، ونشر أنواعا جديـدة من العنف والجريمة، وقيام الصناعات بلا تخطيط جنى على البيئة ولوثها.. وترك

وسائل الإعلام لعنصر الربح أفسح المجال للإباحية ولأشكال عديدة من الانحـلال. فمن واجبنا إذن أن لا نبدأ كما بدأوا وننتهى تماماً إلى ما انتهوا إليه. إنما علينا أن نفيد من الدروس.

ومن ناحية أخرى. فإن عدداً كبيراً من العلماء يطرحون سؤالاً هاماً: هل التنمية المادية كما حدثت فى الغرب هى المعنى الوحيد "للتقدم". وهل على دول العالم الثالث أن تسلك نفس الطريق، وتخضع نفسها لنفس الضرورات، حتى تصبح متقدمة، أم أن هناك ترجمات أخرى لمعنى التقدم وأنماطاً أخرى للحياة؟

مناقشة لن أتوسع فيها هنا. فالمقصود فقط مجرد الإشارة إليها، فى مجال الحديث عن كيفية "مواجهة التحديات الحضارية" بأكثر من سلبية تعبير "صد الغزو الحضارى" الذى يوحى بسياسة انغلاق، وبنفسية الحياة فى مدينة محاصرة، فى حماية أسوار عالية، وهى حتى بهذه السلبية لن تقوى على صد أى غزو حضارى...

وبالمناسبة، منذ سنوات بعيدة، كنت فى رحلة إلى اليابان..

والتقيت هناك بشاب صحفى فلسطينى اسمه الأستاذ عمر طه. كانت قد أرسلته جريدة "الأنوار" اللبنانية إلى طوكيو، فى مهمة صحفية. ولكن الحياة هناك راقت له. وقال لى أنه قرر البقاء فى اليابان. وتزوج فتاة يابانية. وكان لى خلال إقامتى نعم الرفيق، بحكم معرفته – المبدئية فى ذلك الوقت – بالبلد، ولغتها، وعاداتها....

ومرت سنوات طويلة..

ومنذ بضعة شهور تلقيت منه رسالة من اليابان، مكتوبة على آلة كاتبة باللغة العربية، ومعها كتاب إعلامى بالغ الأناقة عن اليابان، مطبوع باللغة العربية أيضا...

وفى الرسالة يذكرنا بلقائنا القديم فى طوكيو، ثم يقول: "... لقد أمضيت حتى الآن عشرين سنة فى اليابان بالتمام والكمال. وأعمل حالياً رئيساً لتحرير دار نشر وطباعة باللغة العربية هى الوحيدة فى اليابان. والكتاب المرفق واحد من مطبوعاتنا. وقد تستغرب إذا ما علمت أن منضدى الحروف لدينا لا يعرفون شيئاً من لغتنا. ومع ذلك ليس هناك ما يعتبره مستحيلاً فى دنيا العلم والطباعة بالعقل الإلكترونى. فقد حولنا الساعة إلى أحرف عربية، وكذلك فعلنا بالنسبة للحاسبة الصغيرة والكبيرة. وأخيراً وليس آخراً بالمبرقة الأولى باللغة العربية.. وإذا أتيت فسوف تعجبك أمور أهم وأكثر مدعاة للدراسة والتقييم. بل أن السكرتيرة التى تطبع

هذه الرسالة لا تعرف لغتنا العربية!. ثم أن الآلة الكاتبة العربية هذه من صنع ياباني، فتأمل!. والله الموفق، مع أطيب التمنيات ومزيد من النجاح".

مطابع باللغة العربية يعمل عليها عمال يابانيون لا يعرفون اللغة!.

آلة كاتبة عربية تعمل عليها سكرتيرة يابانية لا تعرف اللغة. وهذا وذاك فى طباعة أنيقة ليس فيها غلطة واحدة؟.

أولا: كيف يكون ذلك؟! إننى أعترف أن معلوماتى – أو فلأقل خيالى – العلمى المحدود لم يفهم من هذه السطور شيئاً. وقد وجدت أن خيالى هذا يستوعب هبوط مركبة فضائية على المريخ ولا يستوعب قيام عمال يابانيين بطباعة كتب بلغة عربية لا يعرفونها!. وأننى لأتمنى على الأستاذ عمر طه أن يرسل لى وللقراء مزيداً من الشرح للعملية. أو فليفعل ذلك أحد مهندسى الطباعة عندنا الذين أعتقد أن فيهم بالتأكيد من يعرف شيئاً عن ذلك!.

ثانياً: ماذا أبقى العلم الحديث للإنسان؟ إذا كانت مراكز العلم والتكنولوجيا المتقدمة فى العالم، قد سيطرت – وتزداد سيطرة – على سكان هذا العالم فى ثيابهم وطعامهم، والإذاعات التى يسمعون، والأفلام التى يرون، وسيطرت على ما يركبونه من سيارات أو طائرات، وما يستخدمونه من أجهزة اتصال، أو سلاح، وحتى إنتاج المواد الغذائية، فى أى أرض، وفى أى طقس.. فقد كان باقياً لكل شعب من خصوصياته شئ أساسى على الأقل، هو: لغته القومية!.

فالكتاب العربى مثلاً لابد أن يطبع فى بلد عربى، أو إذا طبع فى بلد أجنبى فبأيد عربية، أو أيد درس أصحابها اللغة العربية. المهم، أن أصحاب أى لغة تظل لهم ميزة على غيرهم ولو فى هذا المجال..

ولكن، ها هو العلم يقتحم حتى هذه الخصوصية ويطوعها له. أى صار ممكناً **أن نجد بلداً أجنبيا يتفوق علينا ويسبقنا فى طباعة مؤلفاتنا، وأفكارنا، وتراثنا، ويصدرها إلينا، دون أن يكون فى حاجة إلى أن يعرف شيئاً عن لغتنا!**

أليس هذا وحدة كافياً لأن يشعرنا "بصدمة حضارية" عنيفة؟ أليس كافيا لأن يشعرنا بالعصر الذى نعيش فيه؟ وبتفاهة ما نضيع فيه وقتنا، ومواهبنا، وأموالنا؟.

دفاع عن بعض القيم القديمة في عالم يسوده العنف والخوف!

* أحيانا يحتاج الأمر إلى الدفاع عن بعض القيم القديمة.

وربما كان اسم "القيم القديمة" اسما غير دقيق. وربما كان من الأصح أن نسميها "القيم الثابتة".

ذلك أن هناك قيما اجتماعية يطويها النسيان، أو يقهرها التطور، بعد أن تكون الظروف التي أنشأتها قد تغيرت، وإلا ما كان هناك تغير ولا تطور ولا تقدم....

فالعصبية للقبيلة مثلا قيمة كانت تعد فضيلة وقت أن كانت المجتمعات وحدتها الكبرى هي القبيلة. ولأن هذه العصبية للقبيلة كانت ضرورية لحفظ حياة القبيلة. ولكن حين يزول هذا الوضع تصبح هذه العصبية عيبا في المجتمع وعقبة في طريق نموه، حين تحل الدول والمدن الكبيرة وأنواع العمل الجديدة محل ما كان سائدا من قبل.

والتباهي بالأصل وحفظ الأنساب أيضا، كان فضيلة، وكان ضرورة معا، قبل أن تحل قيمة العمل محل قيمة الأصل. وقبل أن تحل السجلات والأضابير محل حفظ الأنساب في الذاكرة وبالتواتر.

والذين يدافعون عن كل قيمة اجتماعية قديمة، لمجرد أنها قديمة، ولمجرد أن هذا ما وجدنا آباءنا عليه، يتخذون موقفا متزمتا غير منطقي وغير قابل حتى للتطبيق، لأن الحياة دائما في تغير وتطور وتجديد.

كذلك فان الذين يلتقطون كل بدعة جديدة، ويتعلقون بأذيالها، أو يركبون موجتها، لمجرد أن يقال عنهم أنهم عصريون، هم بدورهم يتخذون موقفا خاطئا وغير منطقي. ذلك أن الحياة بكل تعقيداتها والخضم الهائل الذين لا قرار ولا ثبات

له، كثيرا ما تقذف إلى سطحها بالزبد الذي لا يلبث أن يذهب جفاء. وكثيرا ما تكون بعض الفلسفات، أو العادات، أو القيم، التي تشيع في مرحلة ما، مجرد مرض من أمراض التطور. لأن كل حضارة لها أمراضها، وكل تطور له مشاكله.

الموقف السليم هنا ليس رفض التطور، اتقاء لمرض أو داء قد يصاحبه... وليس في الاحتفاء بالمرض، وعدم إدراك أنه عرض.

إنما الموقف السليم هو أن نمضي في ركب التطور، ونتقبل مخاطره، ولكن بعقول واضحة، تعامل التطور على انه تطور، وتتبين الداء، وتعامله على انه مرض، يجب مقاومته، أو التقليل من مخاطرة قدر الإمكان.

فتحرر المرأة مثلا، وتعليمها، ونزولها ساحة العمل إذا شاعت.. مسألة حسمها التطور، وكان لابد أن ينتج عن هذا اهتزازات اجتماعية معينة، ومشاكل تأتي معها، ولكن الحل ليس في النكوص إلى الوراء. ولا هو في الاستسلام للجوانب السلمية. إنما هو في محاولة القبض على زمام التطور، بحيث يكون ايجابيا وصحيا قدر الإمكان.

أسوق هذا الكلام متأثرا برحلات سريعة قمت بها خلال الصيف المنقضي إلى عدد من البلدان والدول الصناعية والمتقدمة، وعائدا بالذاكرة إلى رحلات سابقة قديمة إلى هذه البلاد ذاتها، أو مثلها...

فمنذ سنة ١٩٦٠ تقريبا، تعرضت الدول المتقدمة لهجمات عنيفة من جهات شتى وعلى مستويات مختلفة، حتى وصلت إلى الحالة التي نراها سائدة الآن بشكل مرعب... من انتشار العنف، وطغيان الجريمة، ومن إباحية تكاد لا تعرف حدودا. ويراها بعض الناس جزءا من التقدم والحضارة، لمجرد وجودها في عواصم العالم الكبرى، غير مدركين أن هذه أعراض لأمراض، وأنها فترات عرفتها حضارات كثيرة. بعضها قضت عليه هذه الأمراض، وبعضها تمكن من مقاومتها والتغلب عليها وتجاوزها.

وضرورة هذا الحديث، هي إننا سائرون بشكل أو بآخر للأخذ بكثير من أشكال التطور التي سبقتنا إليها مجتمعات أخرى. وأن بعض شبابنا يقبل على هذه الأعراض على أنها عصرية لا على أنها أمراض.

في أمريكا مثلا تزايدت جرائم العنف حتى كادت المدن الكبرى تخلو من سكانها فقد هرب السكان الأغنياء أو القادرون بوجه عام من قلب المدن الكبرى، إلى ضواحيها البعيدة. وادى هذا إلى ثورة سكانية. فبعد أن كانت المدينة الكبيرة هي مطمح الساكن، أو رمز القادر، صارت سكنى الضواحي هي هذا الرمز، وحين نقرأ عن إفلاس أقوى مدينة في العالم مثل نيويورك. فالسبب هو أن أهم دافعي الضرائب هجروها.

وكانت معظم التحليلات تقول أن ظاهرة العنف هي ظاهرة أمريكية بحتة. فقد ولدت أمريكا بالعنف على أساس إفناء شعب آخر هو الهنود الحمر، طبقا لقانون الغابة الأول وهو أن البقاء للأقوى، ثم استبعاد شعب ثان وهو الزنوج عبر قرون طويلة. وان حياتها الاقتصادية التي نشأت بلا قيود كان حظ الإنسان فيها يتحدد بسرعة إطلاق مسدسه. واتخذت المنافسة التجارية والاقتصادية نفس الطبيعة. وكما تضخمت المؤسسات هناك تضخمت الجريمة، فظهر ما صار يسمى بالجريمة المنظمة، ابتداء من عصابات المافيا الشهيرة، إلى حلقات الإجرام التي تشترك فيها أحيانا أسماء كبيرة.

ثم إن هذا العنف انتقل إلى ميدان السياسة بشكل مخيف. ففي حياة جيل واحد قتل رئيس أمريكي هو جون كنيدي. وقتل مرشح للرئاسة هو روبرت كنيه. وأصيب مرشح آخر للرئاسة بالشلل بسبب إطلاق النار عليه هو جون ولاس. وقتل زعيم حركة الزنوج وهو مارتن لوثر كنج. وأُخرج رئيس جمهورية هو ريتشارد ليكسون لأنه حاول التستر على جريمة. ودخل السجن وزير العدل في عهده لاشتراكه في نفس الجريمة مع أبرز رجال الرئيس في البيت الأبيض.

وقيل في تفسير هذه المرحلة الدامية في حياة أمريكا أن سببها هو حرب فيتنام. حين تخطى منطق التدمير الأمريكي للبلد الصغير الفقير، منطق الحرب المألوف بين أكفاء، ولأسباب واضحة. تبرر للإنسان أن يموت في سبيل بلده، بينما كان الأمريكي العادي لا يجد مبررا لأن يموت في غابات فيتنام، ولا يجد كذلك مبرر لاستخدام أقوى أداة حربية في العالم لتدمير شعب فقير، بسيط، يلبس أبسط الثياب ويأكل أقل الطعام ولكن له إرادة من فولاذ.

ولكن الكثير جدا من هذه المظاهر انتقل إلى أوربا.. سواء في مجالات العنف العادي أو العنف السياسي والاجتماعي...

فقد رأينا في فرنسا مثلا انفجارا عنيفا هائلا سنة ١٩٦٨، في أوج مجد ديجول، وباتت البلاد على شفا حرب أهلية لبضعه أيام.

ثم بدأت فرنسا تعرف جرائم القتل في الشوارع للشخصيات السياسية. ثم تتكشف الأمور عن فضائح مالية في الدوائر العليا...

وعرفت فرنسا الجريمة المنظمة. التي تتصدى بأرقى وسائل العلم لعمليات كبيرة، كسرقة بنوك بأكملها.

كذلك رأينا في ألمانيا النشاط العنيف لجماعة "بادر – ماينهوف". وظهور حركات فوضوية أكثر مما كان يبدو على السطح، سلاحها الخطف والسلاح وإلقاء القنابل.

وايطاليا صارت من أهم مسارح العنف في العالم. جرائم القتل الغامضة. خطف الأغنياء طلبا للفدية الضخمة. النسف والإضراب والمواجهات الحادة مع السلطة.

وإلقاء القنابل في شوارع لندن صار أمرا عاديا.

والأنواع الفردية الشاذة من العنف صارت تشغل الصحف كل يوم. فالرجل الذي سمي نفسه "ابن سام". وقتل ثمان فتيات في بضعه شهور بنفس الطريقة، حكم على مدينة نيويورك كلها بالرعب شهورا طويلة.

هذه القضية، قضية انتشار العنف والجريمة في شتى البيئات والمستويات، وعصابات الشباب التي تستخدم العنف ابتداء من معارك الشوارع ضد بعضها البعض إلى هجماتها بالقنابل أو الرصاص، وكل مظاهر إفساد الحياة العامة على أصحابها.. في الحدائق، أو دور السينما... هذه القضية بدأت تحدث رد فعل معاكس، وتبحث عن تفسيرات شتى..

مثلا، اتهم ناس كثيرون رجلا واحدا هو "دكتور سبوك". ودكتور سبوك طبيب أطفال أمريكي عجوز، أصدر في شبابه كتابا عن طرق العناية بالطفل وتنشئته. وترجم الكتاب إلى أكثر من ثلاثين لغة. وقيل انه خلال العشرين سنة الماضية كان أكثر الكتب توزيعا في العالم كله، بعد الكتب المقدسة. وكان كتابا ثوريا، اعتبرته كل أم دليلا لها. وفلسفته العامة تقوم على حرية الطفل وعدم استخدام الحدود والقيود معه، حتى سن الشباب..

وقيل أن هذا الجيل الساخط الثائر المدمر هو تربية دكتور سبوك وطالب المربون والأهل بالعودة إلى الأسلوب القديم من ضرورة الحزم مع الأبناء والبنات في سن الطفولة والصبا. والعودة إلى عقوبة الضرب وغيرها في المدارس. حتى ينشأ الشاب وهو يعرف أن هناك المقبول وغير المقبول. والجائز وغير الجائز.

وقد تنصل دكتور سبوك من هذه التهمة. وبرغم انه، في شيخوخته، ظل ثائرا، وقاد مظاهرات ضد حرب فيتنام في أمريكا. وحوكم أمام القضاء وحكم عليه وهو على وشك السبعين، إلا أنه تبرأ من الجيل الذي قيل أنه رباه. وعدل عن بعض آراءه وتمسك بغيرها.

وقد اتخذت من دكتور سبوك رمزا على الجانب التربوي للقضية.

وشئ من هذا فعله الفيلسوف الألماني الأصل، الأمريكي الجنسية حاليا، هربرت ماركوز، حين وجد أن اضطرابات الشباب وعنفها غير المفهوم، تنسب إلى كتبه وتعاليمه.

ولأن فرنسا "الديكارتية" هي بلد الفلسفة والتحليل... فقد شكل رئيسها فاليري جيسكار ديستان لجنة واسعة، تضم كل الاتجاهات والتخصصات، لدراسة ظاهرة العنف.

وقضت اللجنة ستة عشر شهرا تدرس وتبحث، ثم خرجت بتقرير من سبعمائة صفحة.

على أن أهم ما في التقرير انه أرجع انتشار ظاهرة العنف، حتى في العلاقة الإنسانية، إلى التوتر النفسي الذي يخلقه أمران:

الأول: هو تضخم حجم المدن الكبيرة وازدحامها.

والثاني: هو المجتمع الاستهلاكي الفاحش الذي يتزايد كل يوم... وفي إنجلترا، تلقي معظم التحليلات عند نقطة أساسية، هي: أن الطبقة المتوسطة في المجتمع، التي هي قوام الاستقرار والقيم الثابتة فيه، قد استسلمت لهجمات فئات أخرى اجتماعية أكثر عدا، وأكثر صخبا، فكان ما نراه الآن من عنف، ومن إباحية وانحلال...

ورغم أن هذه الأسباب الثلاثة، ليست في رأينا هي كل شيء، إلا أنها هامة وصحيحة، ولابد من الوقوف عندها قليلا....

مأساة المدن الكبيرة

إن تعريف المدينة منذ القدم هو أنها المكان الذي يسكنه الناس، لأن مكان كسب رزقهم يقع فيه..

وعندما كانت الزراعة هي الغالبة، كانت الناس تسكن القرى الصغيرة المتباعدة، حيث يعرف الناس بعضهم البعض، الأمر الذي يعتبر في حد ذاته وازعا كافيا للفرد، لما يلحق باسمه واسم أسرته من جراء أي تصرف غير مقبول. وكانت المدن للتجارة، ولمقر الحكم والسلطة.

ولكن مع ظهور الصناعة، وتضخمها، وتجمع مئات الآلاف في مراكز الإنتاج، بدأ ظهور المدن الكبيرة وتفاقم عدد السكان فصار عدد سكان طوكيو مثلا ١٢ مليون وفي حدود الثمانية ملايين ساكن توجد لندن وباريس والقاهرة. وفوق تكدس السلطة، وتضخم البيروقراطية، وبريق حياة المدن، صارت ظاهرة الزحف على المدن الكبرى ظاهرة عالمية.

وفي المدن الكبرى لابد أن يوجد من الناس أنواع وأخلاط. ولابد أن يجر التزاحم على الرزق إلى التدافع بالمناكب. ولابد من تجاور الغنى والفقر تجاورا مباشرا ويتجاور العلم والجهل بنفس الطريقة. ولابد أن تلهث الخدمات وراء تزايد البشر فلا تكفي حاجة الجميع. وتضيع هوية الفرد في هذه الغابة البشرية.

ولذلك اقترحت اللجنة الفرنسية مثلا أنه يجب أن يراعى في المستقبل أن لا يزيد عدد سكان أي مدينة عن مائتي ألف نسمة. وهو رقم اقترحه قبل ذلك كثير من علماء الاجتماع أو التخطيط. صحيح أن مثل هذا الوضع ليس الأكثر وفرا من الناحية الاقتصادية وتكاليف الخدمات وغيرها. ولكن القائلين بهذا الرأي يرون أن الثمن الاقتصادي لا يقارن أبدا بالحياة الصحية والنفسية والسعيدة للإنسان. وانه حتى العائد الاقتصادي بالنسبة للمجتمع كله، أكبر على المدى البعيد، لو أخذ التخطيط للمستقبل بهذا الاتجاه.

ورقم ٢٠٠,٠٠٠ يمكن أن يرتفع إلى نصف مليون، بل إلى مليون. ولكن المؤكد أن أي زيادة فوق ذلك سوف تجلب معها كل شرور المدن الكبيرة، أو الحياة الحديثة، سمها كيفما تشاء.

المجتمع الاستهلاكي

وجد الإنسان ليسعد. وجزء من سعادته ونجاحه أن يستهلك. ولكن استهلاك الإنسان ظل آلاف السنين متشابها. في الطعام. في الثياب. في أساليب الترفيه. فالإنسان حيوان مستهلك، ومختار ومجدد لما يستهلك.

ولكن ما يسمى الآن بالمجتمع الاستهلاكي أو بمجتمع الوفرة، يقصد به شيء آخر تماما. انه تلك الأدوات الإنتاجية الضخمة، التي تمطر الفرد كل يوم بآلاف السلع الجديدة، إنها الفرق بين ما يجده المرء في دكان البقال الصغيرة، وما يجده في "السوبر ماركت" من آلاف الأصناف والأنواع، بكميات هائلة، وبطريقة جذابة في العرض تصعب مقاومتها.

وأذكر ذكر "السوبر ماركت" في مجال الاستهلاك، فلأنه المكان الذي تشتري منه ما تريد، وما لا تريد أيضا.. بفعل تأثير مشهد العرض. والتكدس، والإقبال والوفرة.

والمجتمع الاستهلاكي يقوم على هذه العناصر كلها. انه مجتمع الشراء والاستغناء. كل سلعة تحتل محلها بعد قليل سلعة أحداث، ترغمك على إلقاء ما لديك وشراء هذا الجديد. ونظرة إلى التليفزيون في المجتمعات الاستهلاكية تؤكد هذا المعنى فالشاشة بكل إغراءات فنون العرض. تقترح عليك عشرات الأصناف من كل نوع. من السيارة إلى معجون الأسنان.

والقاعدة المعروفة هي أن ظهور سلعة جديدة يشعرك بنقص جديد. لم يكن في بدل ما مثلا، تليفزيون، ثم ظهر التليفزيون، وصار طبعا عند بعض الناس، وبالتالي فالآخرون يشعرون بحاجة جديدة، بان شيئا جديدا ينقصهم وهو التليفزيون. ثم يظهر التليفزيون الملون، فيتكرر الشعور بحاجة جديدة، إلى إلقاء الجهاز القديم وشراء جهاز جديد.

هكذا يلهث الإنسان دائما لملاحقة مجتمع قائم على هذا المنطق. وهذا يجعل الفرد أو رب الأسرة دائما تحت ضغط مستمر، عليه أن يعمل أكثر. أو يكسب أكثر، أو يفعل أي شيء أكثر، لكي لا تخذله موارده في هذا السباق الرهيب المحيط به.

ثم أن وجوه الاستهلاك هذه صارت بحكم وجود وسائل الإعلام الحديثة، مقروءة ومرئية ومتحركة أمام الجميع. ووجوه تمتع القادرين معروضة على الناس جميعا..

وجاء هذا كله في عصر انتشار الديمقراطية الهائل. ولا أقصد هنا الديمقراطية كنظام سياسي للحكم بتفسيراته المختلفة. ولكن اقصدها بمعنى انتشار الشعور العام لدى كل الناس بالمساواة، وبحقهم في نيل قسط معقول مما تقدمه الحياة. وقد أصبحت الحياة تقدم إغراءات لا آخر لها.

وتولد هذه الأمور كلها ضغوطا على الشباب أكثر من سواهم. وليس الكل سواء في الموارد. ولكن الكل سواء في التطلع. فهو إما أن يحاول أن يحصل على ما يراه بطريق منحرف. وإما أن يعادي هذا الذي يراه لأنه غير قادر على الاستمتاع به.

من هنا جاز القول حقا أن المجتمع الاستهلاكي سبب من أسباب انتشار العنف في الدرجة الأولى لأنه خلق قيما أخرى صار الفرد فيها يقاس مقداره بما يملك من سيارة أو يرتدي من ثياب أو يجاري من موضات وتقاليع. وفي الدرجة الثانية، لأنه حيث يتكدس هذا كله في المدينة الكبيرة، ويتكدس الناس في نفس المدينة بنجاحهم وفشلهم وشراهتهم أو تعجلهم أو نقمتهم.

البعض يرتكب العنف ليكدر على هؤلاء الآخرين صفو حياتهم. والبعض يرتكب الجريمة ليحصل على أى مال سريع يحصل بواسطته على ما يريد ويطفئ به بعض شهوات نفسه التى يثيرها كل شئ، والبعض يفلسف الأمر، فتتكون الجماعات السرية التى لا ترى سبيلا لها وسط هذا الخصم الهائل إلا العنف.

قيم الطبقة المتوسطة

وقد لا يقبل القراء مني أن أقول لهم أنني شخصيا أعترف بوجود شيء اسمه قيم الطبقة المتوسطة. وأنها مهما كانت عيوبها فهي بوجه عام العمود الفقري لكل مجتمع مستقر مهما كان نظامه أو كانت ظروفه.

فالشرائح العليا من المجتمع في البلاد التي نتحدث عنها أو غيرها، تجد من الترف والراحة والرفاهية ما يفكك تحفظها وما يعطيها إحساسا باللامبالاة، تضعف معه كثير من القيم.

والشرائح المسحوقة كثيرا ما تصل إلى نفس النتيجة من باب آخر تمام. باب اليأس من تحسن حالتها. وبالتالي عدم الاستعداد نفسيا لبذل الجهد أو وضع القيد أو رسم الهدف الذي يستحق العناء.

أما الطبقة المتوسطة – تلك الطبقة الغامضة المبهمة. التي فيها يحتدم الطموح وخوف الفشل. ورغبة التقدم وعدم التراجع. والتي بالتالي تتغير يوميا بمن يصعدون منها ويحلقون فوقها ومن يسقطون من شباكها ويتخلفون عنها.

هذه الطبقة عادة هي أكثر الفئات رغبة في التعلم. وفي العمل. وفي الاحتفاظ بحسن السمعة. حتى ولو التظاهر بالسلوك الحسن...

هذه القيم، هوجمت بالفعل هجوما شديدا ساحقا في العشرين سنة الماضية من شتى الاتجاهات.

بدأت دعواتها صحيحة ولكن كثيرا منها انتهى إلى انحراف، لست تأثير الشعور العام برغبة التغيير في العالم... ونتيجة للمجتمع الاستهلاكي الذي يتحول كل شيء بين يديه إلى تجاره.

السينما والتليفزيون تحولت من أعمال فن وأدب إلى تجارة إرضاء، ظلت تنحدر حتى وصلت أحيانا إلى أفلام الفسق الكامل.

حرية المرأة ومساواتها بالرجل انتهت إلى مجالات العرى ودكاكين الجنس.

الجريمة ذاتها صارت تقدم في صورة جذابة في شتى وسائل الإعلام طلبا للجمهور الأكبر...

وأطلق أبناء الطبقة المتوسطة ذاتهم شعورهم فصفقوا لهم. وناموا في الشوارع فصفقوا لهم. وهربوا من بيوتهم فصفقوا لهم. وظهروا على خشبة المسرح وشاشة السينما عراة تماما فصفقوا لهم. ومن وجد منهم أن هذا العالم صار شاذا أو مجنونا، احترفوا العنف السياسي الفردي، أولئك الذين لا صبر لهم على العمل المنظم الطويل الآن لتغيير المجتمع تغييرا حقيقيا.

ووجد هذا كله من الكتاب والفنيين من اعتبروا المرض تطورا وعالما جديدا. ولم يكونوا في الواقع إلا تجارا يكسبون عن طريق الربح السريع، بأسلوب هو جريمة وان كان لا يعد هناك جريمة.

فلست أصدق – مثلا – أن كاتبا وناقدا إنجليزيا جادا ومتميزا مثل "كينيث تينان"، يقدم وينتج مسرحية "أوه كلكتا!" التي وقف فيها كل الممثلين عراه لأول مرة، ولا أصدق دوافعه الفكرية والفنية التي ساقها لبدء هذه الموجة التي جلبت له الملايين. إنها دوافع تجارية لا فكرية. جاءت في طقسها العام المناسب.

على أننا برغم كل شيء، لا نستطيع أن نضع الشباب وحده في قفص الاتهام، بل أن الشباب بحكم التطور لابد أن يكون أكثر ذكاء وكفاءة وقدرة من الجيل الذي سبقه.

ولكن أي عالم صنعه له الجيل الذي سبقه.في تلك البلاد التي نتحدث عنها؟

ترك له عالما من القيم المادية والاستهلاكية المحضة. عالما من الحروب القذرة. عالما صارت فيه كلمة السياسة سيئة السمعة.

هذا الشاب عاش أواخر الحروب الاستعمارية القديمة ورأى عقمها وعدم عدالتها ولا جدواها. فهو ليس ابن العصر الفيكتوري الذي كانت المساهمة فيه في الاستعمار وراء البحار شرفا ومجدا. انكشف هذا حتى في بلاده وصار أمرا ممجوجا.

وقد سممت حرب فيتنام وحدها – وهي حرب ذات صفات خاصة – جو العالم ما يقرب من عشرين عاما. رأى شباب أمريكا زملاءهم يموتون في بلاد بعيدة دون ثمن ولا نهاية. ورأوا قوتهم الساحقة تنوء بكلكلها على شعب أشبه بالنمل إذا قيس إلى أمريكا. ولكنه يقاوم حافيا عاريا تقريبا أقوى قوة عسكرية في التاريخ وسمع الشباب الأمريكي بعض جنرالاته يقولون عن القصف الجوي المركز "سنعيدهم إلى العصر الحجري".

ورأى الشباب الأمريكي ومعه شباب الدول الصناعية المتقدمة سلسلة تجديد شباب أمريكي في مجال من المجالات. اغتيالات مشبوهة، لكل من حاول اغتيال جون كنيدي رئيس الدولة. ثم اغتيال المتهم بقتله لي هارفي أوزوالد على شاشة التليفزيون. ثم اغتيال مارتن لوثر كنج زعيم حركة مساواة السود بالبيض.

ثم اغتيال روبرت كنيدي. وأياً كانت الحقيقة، فليس مألوفا أن يظل الشك يساور المواطن الأمريكي في حقيقة هذه الاغتيالات وفي أنه قد يكون وراءها قوى أكبر بل

وأجهزة رسمية. ذلك أن هذا الشك المستمر حتى الآن سواء كان مبررا أو غير مبرر، فهو ينطوي على دلالة نفسية خطيرة لدى الرأي العام. والشباب منهم بالذات.

ثم إن تلك السنوات كانت سنوات الكشف عن نشاطات المخابرات الأمريكية وغيرها في هذا العالم المتقدم. ابتداء من اعتراف كنيدي بأن محاولة غزو كوبا من خليج الخنازير كانت أمريكية، الأمر الذي تلاه سلسلة اعترافات وكشف أسرار مذهلة. ضرب بيت سوكارنو بالقنابل. محاولات دس السم لكاسترو. اغتيال لومومبا.

الانقلابات المطبوخة الدموية والتي كان آخرها في تشيلي.

وأخيرا كانت تلك السنوات سنوات الكشف عن الفساد في الأماكن العالمية. ابتداء من ووترجيت التي كشفت عن فكرة استخدام العلم الحديث في مطاردة وإدانة وتزوير التهم لأي مواطن، وانتهاء إلى الرشوة. رشوة نائب رئيس الجمهورية في مكتبه وإدانته بذلك. رشوة رئيس وزراء دولة كاليابان وزوج ملكة دولة مثل هولندا. وأحزاب بأسرها في أوروبا.

لقد انتشرت في فترة ما أفلام جيمس بوند والجريمة الراقية. ولكن الحقائق جاءت ففاقت الخيال. فإذا كان جانب العنف تأثر أصحابه بأسباب سبق ذكرها، فلا شك أن جر الإجرام والعنف على هذا المستوى أثار آلافا من ذوي الضمائر. لقد وجدوا أن هذا العالم غير عادل. وان القيم المعلن عنها غير حقيقية وكان طبيعيا أن يكون ردا الفعل عند الكثيرين منهم هو العنف. والعمل بسذاجة على تدمير هذا المجتمع أو تهديده وإقلاق مضجعه.

أسوق هذا الحديث، عن بلاد العالم الصناعي المتقدم، بلاد المدن المتضخمة والقيم المتضائلة والاستهلاك الوفير والتناحر المادي. أسوقه لأن معظم العالم النامي يسير في اتجاه هذا النمط. وبالتالي فقد يكون من الخير أن نتنبه لبعض شروره من الآن...

حضارات تزدهر ثم تهوى
.. وكيف نحدد خطواتنا؟

هذا الموضوع، كان دائماً – ولا يزال – يحيرني كثيراً.. ويثير اهتمامي في محاولة فهمه والبحث عن أسبابه..

وقد يبدو الموضوع، للوهلة الأولى، فلسفياً مجرداً، ولكنه ليس كذلك. وهو إذا كان قد أرهق كثيرين من المفكرين، فما ذلك إلا لأنه موضوع حيوي خطير يتصل بفهم الإنسان لحياته، وماضيه وحاضره ومستقبله، وهل هناك أهم من هذه الأسئلة في تأثيرها على كل مجتمع؟

الموضوع ببساطه، هو أننا عندما نستعرض تاريخ الإنسانية، ونتأمل الحضارات التي أقامها الإنسان – بدرجات متفاوتة – في مختلف أنحاء الدنيا، نستطيع أن نفهم ببساطة ظاهرة نشوء الحضارات وقيامها وثباتها لسنوات طويلة...

أي أن النمو والتقدم في حياة أي مجتمع، أمر طبيعي، ومفهوم...

ولكن السؤال اللغز هو: لماذا يحدث العكس؟ ما الذي يجعل مجتمعاً يصل بمقاييس عصره، إلى قمة الحضارة، ثم يبدأ بعد ذلك في الهبوط والاضمحلال؟ – أي ما الذي يجعل الحضارات تذبل ويجف فيها ماء الحياة بعد ازدهار؟ ما الذي يجعل نظاماً متكاملاً للحكم، وسطوة واسعة للدولة، وازدهاراً كبيراً للعلوم والفنون والقيم السائدة.. ما الذي يجعل هذا كله ينهار. ويتهاوى، فتحل الفوضى محل النظام والجهل بعد العلم، وقيم التخلف والتأخر محل قيم التقدم والاستنارة والعمل والعرفان؟.

ظاهرة قيام الحضارات لا تثير الدهشة...

ولكن ظاهرة انهيارها وانحلالها هي الأمر الذي يبدو غريباً.

وأهمية دراسة هذه الظاهرة واضحة. فمنها نأخذ العبرة في النظر والتصرف في كثير من أمور حياتنا. وهي نظرة شاملة لابد أن نتأملها من حين لآخر، في عصر مزدحم مضطرب يغرقنا يومياً في التفاصيل المتلاحقة.

طبعا، هناك حضارات نشأت ثم لم يكتب لها النمو الثاني، فلم تلبث أن اندثرت بسرعة.. كحضارة الازتين في أمريكا الجنوبية، وبعض الحضارات في أفريقيا.. لظروف كثيرة لم تساعد على نموها وانتشارها بالدرجة الكافية..

وهناك أيضا حضارات اندثرت تحت وطأة ضربات خارجية من قوى وتجمعات بشرية أقوى ولو بالمعنى الحربي فقط. وإن كانت حتى هذه الحضارات التي تهاوت إنما مهد لانهيارها ضعفها الداخلي، وان كانت أكثر حضارة ورقيا، أكثر مما تسبب فيه عدوها الخارجي. فالمغول والتتار دمروا دولاً أرقى ولكنها أضعف في البنية العسكرية.

وهنا قد يحسن التنبيه إلى أن كلمة حضارة تعني أكثر من مجرد القوة المادية والعسكرية. فهي مجموعة من القيم المستقرة التي يشمل ازدهارها وعطاؤها كل شيء من مجالات الحرب والسلاح إلى مجالات التنظيم والإنتاج والفكر والارتقاء بالحياة الإنسانية نوعا وكما على السواء. فالتتار مثلا كانوا قوة تدميرية ولكنهم لم يؤسسوا ما يسمى حضارة. فلم يتركوا وراءهم للإنسانية شيئا يضاف إلى تراثها لا في الهندسة والعمران ولا في نظم الحكم ولا في الفكر والفن.

على أن السؤال هو عن الحضارات الجديدة بهذا الاسم، والتي شملت عددا كبيرا من الناس ومساحة شاسعة من الأرض، وبلغت في كل المجالات شأوا عظيما..

حضارة الفراعنة في مصر القديمة (اندثرت قبل الفتح العربي بل وقبل الغزو الروماني بكثير).. حضارة الصين العظيمة.. حضارة روما التي حكمت العالم المعروف وقتها تقريبا قرونا طويلة.. الحضارة العربية الإسلامية الشامخة..

لماذا حدث الانهيار ؟ ..

السؤال مطروح الآن، وبشدة، في أماكن كثيرة من العالم، لأن هناك من المفكرين من يرون أن الحضارة الغربية الراهنة – والتي تحكم العالم ويقلدها ويتطلع إليها الجميع – قد دخلت مرحلة الانهيار..

وهم في هذا المجال يشيرون إلى أشياء كثيرة منها انتشار القيم المادية واختفاء الدين وانحلال الأخلاق، الاضطرابات الاجتماعية والفضائح المالية الكبرى وانتشار الأسلحة الذرية وبالتالي احتمال قيام حرب ذرية تؤخر الإنسانية ألف سنة.. إلى آخره.

وأحب أن أسجل هنا للقارئ العربي عدة أمور. **الأمر الأول** إنني لست من المتبنين لهذا الرأي بسهولة. **والأمر الثاني** انه حتى إذا كانت حضارة هذا العصر التي ولدت في أوروبا قد دخلت مرحلة الانهيار فهذه مرحلة تستغرق في العادة قرونا، وقد تقترن بشهوة إلى البطش بالغير. **والأمر الثالث** أن بعض العرب بوعي أو بلا وعي يستسهلون الأمر ويرون مستقبلنا في عوامل انحلال الحضارة السائدة وانهيارها وهو تفكير سلبي، غير صحيح، ويحطم حماسنا اللازم للجهد الذي يجب أن نبذله في التقدم..

ولكن الأمر، على أي حال، يحتاج إلى التأمل..

وقد كان أول من تنبأ تنبؤا قاطعاً بانهيار الغرب، الفيلسوف الألماني العظيم "اوزوالد شبنجلر"، وأعلن رأيه هذا قبل ثلاثين سنة، معززاً رأيه بنظرية في التاريخ تقول أن التاريخ الإنساني ليس خطاً مستقيماً إلى التقدم، ولكنه دورات متعاقبة من النمو والانحلال، وأن كل حضارة هي أشبه بإنسان.. يولد وينمو وينضج، ثم يشيخ ويذبل ويموت. ثم تبدأ دورة حضارة أخرى في مكان آخر من العالم وهكذا.

وبلغ من تعصب شبنجلر لفكرته، أنه كان يرى الخطر آتيا من الشعوب السمراء والملونة، وهاجم فتح أبواب جامعات أوروبا لأبناء هذه الشعوب، لأنهم بذلك يتعلمون لب الحضارة الغربية ليدمروها في المستقبل، بعد أن يكونوا قد نقلوها إلى بلادهم!

وجاء بعده فيلسوف آخر في علم التاريخ، هو ارنولد توينبي الذي مات منذ شهور. وقد آمن في الأساس بفكرة شبنجلر في أن التاريخ دورات حضارية تولد وتنمو ثم تشيخ وتموت. ولكنه قال أن هذا لن يحدث للحضارة الراهنة، والسبب في رأيه أن الحضارة الراهنة تعلمت التاريخ وعرفت الخطر فهي سوف تتمكن من أن تتجنب تكراره.

ولنتأمل مثلا دولة إنجلترا، وليس فقط لأن مشاكلها تشبه مشاكل كثير من غيرها من البلاد المتقدمة – على درجات مختلفة – ولكن لأنها أيضا أول دولة صناعية في العصر الحديث. وأقدم دولة في النظام السياسي الديمقراطي الذي يضرب به المثل في الاستقرار، ولأنها حتى عهد زوال الإمبراطوريات كانت أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ، ولأن شعبها فوق ذلك تميز خلال هذا كله وبفضل هذا كله بصفات اشتهر بها في الانضباط، والاعتدال والقيام بالواجب وحب المغامرة وتحمل الأزمات والحروب..

مظاهر كثيرة نراها على السطح: التضخم. البطالة. الصراع الاجتماعي الحاد بين نقابات العمال وبين الحكومات، حتى صارت السلطة ليست مقصورة على البرلمان ومحصورة فيه، بل صارت النقابات طرفا آخر، يرغم الحكومات على سياسات غير ما يقررها مجموع الشعب "في الانتخابات". واهتزاز نظام الحزبين العريق الذي ميزها عن سائر أوروبا بحيث صارا متقاربين أو صارت كل حكومة هي في الواقع حكومة أغلبية . وضربت إنجلترا رقما قياسيا في التضخم من جهة وفي هبوط الإسترليني وتزعزعه ونزوله عن عرشه من جهة أخرى. وتميزت بأكبر عدد من الاضطرابات في العالم، وبالتالي تخلف إنتاجها الذي تعيش عليه وسبقتها دول أخرى كثيرة.

أكثر من ذلك أن هذه الأزمات كلها، التي أنقذتها من الإفلاس أحيانا بنوك أوروبا وأمريكا مجتمعة بقروض جعلتها من أكثر الدول استدانة.. دفعت إلى السطح فجأة نزعات انفصالية، وأحيت معارك حسمت منذ مئات السنين، فعاد الكاثوليك يحاربون البروتستانت في شمال ايرلندا، ووجدت اسكتلندا أن البترول ظهر في بحارها فظهرت فيها حركة انفصالية قوية، والنزاعات المتطرفة في ويلز لأحياء اللغة المحلية والشخصية المحلية التي كان أصحابها يعتبرون مجانين، صار لها وجود ونواب في البرلمان.. "فالمملكة المتحدة" مهددة بأن تعود ممالك غير متحدة..

وعندما تفاقم إضراب عمال مناجم الفحم – الذي أدى إلى إسقاط حكومة المحافظين – ظهرت في إنجلترا معقل الديمقراطية – منظمات أهلية نسبة حربية، يقودها جنرالات سابقون، استعدادا للمواجهة مع النقابات. وللاستيلاء على المرافق

العامة بالقوة إذا دعت الحاجة ونفذ العمال إضرابا شاملا يوقف عجلة الحياة تماما في البلاد.

تمزقات عنيفة جدا وحادة، في مجتمع عرف بخبرته في تخطي أزماته، بدأت تهدد نسيج الشعب البريطاني ذاته. فظهر زعماء متطرفون مثل "اينوك بويل" يدعو إلى طرد كل غير الإنجليز من إنجلترا، في حين أن الإنجليز صاروا يستنكفون القيام بأعمال يدوية كثيرة لابد منها ولا يقبل بها إلا المهاجرون الأفارقة والآسيويون، وظهر زعيم آخر مثل "كيث جوزيف" يدعو إلى حل عنصري على الشعب الإنجليزي نفسه حين قال إن المشكلة هي أن نسبة التناسب بين الطبقات الفقيرة الإنجليزية تفوق نسبة التناسل في الطبقات الأعلى، وهذا يهدد بالهبوط "بنوعية الشعب الإنجليزي"!

وفي نفس الوقت انتزعت لندن من عواصم أخرى الأولوية في ميدان الإباحية الأخلاقية.. ففيها ظهرت أول مسرحيات للعراة تماما، وفيها سمح تحت الضغط باستخدام الألفاظ النابية في الإذاعة والتليفزيون، وصارت لندن بوجه عام عاصمة اللهو سابقة بذلك باريس وغيرها.

وامتلأت الثقافة الإنجليزية بالسخرية من تاريخ إنجلترا الإمبراطوري، وانتشرت المسرحيات التي تسخر من رموزها المقدسة مثل كيتشنر وغيره، وجوهر الحملة أن أهداف المجتمع في الماضي، المجد والأولوية والتفوق والنفوذ، أهداف سخيفة، إنما الهدف الوحيد الجدير بالإنسان هو: اللذة! ومن أقصر وأسهل طريق.

وهنا في الحقيقة مربط الفرس، كما يقولون..

وباتفاق أهل الرأي في كل مجال، أن كل الأمراض الاقتصادية وغير الاقتصادية تكمن في أشياء أعمق وأهم.

أولها: أن الشعب الإنجليزي صار يستهلك أكثر مما ينتج، وبالتالي فلابد له أن يستدين، غير حاسب أي حساب للغد..

وثانيها: أن الفرد صار يطالب بحقوقه في كل متع الحياة ولو كان سبيله إلى ذلك الامتناع عن قيام بواجباته..

وثالثها: أنه في حيرة من هويته، هل هو مع الكومنولث وما وراء البحار؟ أم انه جزء من أوروبا التي كان يزدريها، ولابد أن يتنازل عن جزء من حريته لها؟ أم الأسهل من هذا وذاك أن يستسلم للتبعية الأمريكية ويصبح أشبه بولاية من ولاياتها؟.

والتنبؤات في هذا المجال قديمة..

فمنذ ما يقرب من مائتي سنة قال نابليون أن أوروبا شاخت. وأن القوة الآتية تكمن في مكانين كانا بكرا: أمريكا بشبابها الطاغي، وروسيا (القيصرية في ذلك الوقت) بذلها الشديد الذي لابد أن يتفجر عن شيء جديد قوي!.

وقبل خمسين سنة نجد في احدى مسرحيات برناردوشو مشهدا يدخل فيه السفير الأمريكي مبتهجا على ملكة إنجلترا يعلنها بخير مثير: أن أمريكا قررت إنهاء انفصالها عن إنجلترا والعودة إلى الولاء للتاج.. وحين تبدي الملكة دهشتها يرد السفير قائلا إن هذا سيتم في مقابل أمر بسيط هو أن تنتقل الملكة – والتاج... إلى أمريكا!.

والمعنى واضح في أنه يشير إلى دخول إنجلترا في فلك أمريكا وتبعيتها لها..

المهم.. نعود إلى التشخيص الأصلي وهو أن الشعب الإنجليزي، عبر التطور، انهارت مجموعة القيم والمثل التي كانت توجه حياته، ولم تحل محلها – بعد – مجموعة قيم ومثل أخرى تواجه مشكلة العصر الراهن.

وسادت فلسفة اللذة، تلك الفلسفة "الرواقية" المدونة من أيام الإغريق، واللذة في المجتمع الإنجليزي لم تعد كما كانت، لم تعد في العمل، أو الكسب، أو الفتح، أو الاستكشاف، بل لذة الاستمتاع بكل ما تتيحه الحياة الحديثة من سلع استهلاكية ووسائل ترفيه، وعلاقات حرة خالية من كل ضوابط اجتماعية.

وفي هذه الأشياء ما يمس مجتمعات متحضرة كثيرة، وفي تقديري أن سيادة القيم المادية سيادة مطلقة واعتبار عنصر التحضر الوحيد هو إعادة – من مادية القوة المسلحة إلى مادية الكسب واقتناء السلع إلى مادية غلبة اللذات الحسية على سائر أنواع المتع الإنسانية والاجتماعية والذهنية.. بل واقتران فكرة الحضارة بالمادة فقط، في تقديري أن هذه العلة هي جذر الجذور في اختلال دورة الحياة في شجرة الحضارة، وبوادر ذبول فروعها وأغصانها، وتساقط بعض أوراقها..

ولهذه الظاهرة التي تزداد طغياناً كل يوم، أمثال في نهايات حضارات سابقة..

وننظر إلى مجتمع آخر صناعي، يعتبر بالمقاييس المادية ناجحا جـدا، بـل انجح نموذج معاصر، وهو اليابان.

هناك توجد مشاكل إنجلترا الاقتصادية بهذا الشكل.

وهناك مجتمع ظل متخلفا، تقليديا، مغلقاً، إلى ما يقرب من مائة سـنة، ثـم صار خلال قرن واحد في المقدمة، ويضرب به المثل في النجاح والكفاءة..

ولكن من أعجب ما قرأته أخيرا تقرير لجريدة "الاوبزيرفر" الإنجليزية من اليابان، يتحدث عن ظاهرة انتشرت في اليابان، وهي وأد الأطفال الرضع بأيدي أمهاتهم!.

ويقول التقرير أن الدولة اكتشفت مائتي حالة على الأقل أقدمت فيها الأمهات – وكلهن شابات متزوجات – على قتل أطفالهن قبل أن يتموا سنة واحدة من العمر، وأن علماء النفس والاجتماع في اليابان في حالة وحيرة إزاء هذه الظاهرة!.

وقد عرفت بعض المجتمعات، في عصور سحيقة، ظاهرة وأد الأطفال..

ففي بعض القبائل العربية – في الجاهلية وقبل الإسلام – كان يتم وأد البنات، أي دفنهن أحياء حتى الموت، لأن البنت كانت تقترن بالمسـئولية وعـدم الكسـب واحتمال العار، حتى جاء الإسلام فحرم الوأد تحريماً قاطعاً بنص قرآني صريح..

وفي اليونان القديمة، كانوا يضعون الأطفال عرايا على سفح الجبال، ليموت الضعيف ولا يعيش إلا القوى.

وكان الفقر أحياناً هو السبب. ففي أيام انحطاط الصين وانتشار البؤس والفيضانات والمجاعات وجدت ظاهرة وأد الأطفال أو بيعهم لأسر غنية تكفل لهم الرزق..

ومع أن الجريدة تقول أن عادة وأد الأطفال الرضع وجدت على نطاق ضيق في تاريخ اليابان القديم، إلا أن هذه الظاهرة جديدة تماما. فاليابان الحديثـة التـي نعرفها اليوم ليس فيها مشكلة الفقر الذي يدفع ألام إلى قتل طفلها، ثـم أن معظـم الأمهات شابات، وعلى درجة من التعليم وأكثرهن يعملـن إلـى جانـب الـزوج ويشاركن في المجتمع..

والغريب أنني أذكر عندما زرت اليابان، أنني كتبت أنها البلد الوحيد في العالم الذي نجح فيه تحديد النسل. فليست هناك موانع دينية تقف في طريق أي تشريع. وبالتالي استخدمت هناك كل الوسائل ابتداء من إباحة الإجهاض وانتهاء بالتعقيم المطلق ضد الإنجاب.

ولكن التفسير الذي يعطيه الاجتماعيون لهذه الظاهرة – مهما كانت قلتها – أن المرأة الحديثة صارت مشدودة إلى قيم المجتمع الراهن من رفاهية مادية وحرية واستمتاع أناني بالحياة إلى أقصى الحدود، لدرجة تجعل بعضهن يقدمن هذه الأشياء على عاطفة الأمومة الأزلية الخالدة، بأهميتها البالغة في بناء الأسرة والحياة والمجتمع.

.. مرة أخرى، نموذج صارخ على طغيان المعيار المادي والاستمتاع الشخصي المباشر على أي شيء آخر.

هل هو النموذج الوحيد

وهذا كله يطرح على الإنسانية سؤالا، لعله أهم الأسئلة الفكرية اليوم:

هل النموذج الحضاري الذي نراه الآن هو النموذج الوحيد الذي كتب على الإنسانية أن تقتفي أثره وتقلده حتى ولو قادها إلى الهلاك؟

أم أن هناك نماذج أخرى وقيما أخرى يمكن البحث عنها؟

وهذا سؤال يهمنا، نحن العرب بالذات.. لأننا ورثة حضارة كبرى. ولأننا مؤهلون لأن نلعب دورا آخر عظيما، ولأننا في مرحلة انتقال، ولابد أن نشارك في النقاش العالمي الدائر حولنا.

ولكن هذا سؤال كثير، قد يحتاج إلى حديث آخر..

العالم كله ضد...

الوحدة العربية!

عندما تفضل الإخوة المسئولون عن تنظيم الموسم الدبلوماسى السنوى فـى دولة الإمارات بدعوتى لإلقاء محاضرة افتتاح الموسم.. اختاروا لى موضوعاً، غاية فى الصعوبة وغاية فى السهولة.. وهو موضوع الوحدة العربية..

وأعترف بأننى لم أنتبه إلى هذا المأزق، من أول وهلة، الوحدة العربية، لقـد طال شوقى إلى الاستماع إلى هذه الكلمة، لقد شعرت وشعر غيرى، أن هذه الدعوة التى نشأنا عليها، قد نسيها الناس، وطمستها كثبان الأيام.

المأزق من ناحية فى أن عنوان الوحدة العربية فى حد ذاتـه واسـع جـداً. متشعب جداً. لا يمكن الإحاطة به فى محاضرة، ولى فى كتـاب، فـالخوض فـى الحديث. تحت هذا العنوان الواسع، كالقبول بالسباحة فى بحر لا قرار له ولا ساحل يحده، ولا مرفأ نرسو فيه.

والمأزق من ناحية أخرى، هذا الشعور الذى تحدثت عنه. ألم تخمد الجـذوة تحت وطأة الأحداث؟ ألم تتبدد أعظم فكرة فى أخطر سكرة؟ ألم يمل النـاس مـن الحديث عن شئ لا يتحقق؟ ألم يتعب سكان السفينة التائهـة مـن طـول انتظـار الوصول إلى مرفأ، أى مرفأ؟.

ما هو الجديد الذى يمكن أن يقال، لا يعرفه الناس، عن الوحدة العربية؟

ما هى الحجج الجديدة التى يمكن أن تساعد للإقناع والنـاس مقتنعـة كـل الاقتناع، وقد ينقصها أى شئ إلا الاقتناع بهذه القضية بالذات؟.

لا أظن أن المواطن العربى، فى أى مكان، فى حاجة إلى معرفـة أو إلـى اقتناع وفهم، بل أن الشئ الوحيد الذى لا يفهمه المواطن العربى فى قضية الوحـدة

العربية، هو: لماذا لم تتحقق هذه الوحدة بعد؟.. والسؤال الوحيد لديه هو: ماذا ننتظر؟ ما الذى يجعل الإقليمية قادرة على البقاء على قيد الحياة، سواء بين الأقطار العربية المختلفة أو أحيانا داخل القطر العربى الواحد. من الذى يعرقل الإتحاد والاندماج هنا فى دولة الإتحاد، نحن أو غيرنا؟ من الذى يجعل الإخوة يقتتلون فى لبنان، نحن أم غيرنا؟ من الذى يوجد خلافات على الحدود بين أقطار عربية.. أحيانا على أمتار قليلة.. نحن أم غيرنا؟ أين هذا مما كان يملأ قلوبنا من إيمان قديم، بأنه يكفى أن ينسحب الاستعمار، ويرفع يده الغليظة عنا، حتى تتحقق الوحدة، متوالية متعاقبة، جارفة فى سبيلها أى عقبة حقيقية أو مصطنعة؟.

تلك فى تقديرى، هى الأسئلة التى قد تطوف بعقل المواطن العربى أو تؤرق ضميره، حول قضية الوحدة العربية.

الوحدة العربية تجاوزت مرحلة التعريف.. وتجاوزت مرحلة التبشير..

من أجل هذا، كان لابد أن أحاول أن أختار بنداً واحداً من البنود التى تندرج تحت عنوان "الوحدة العربية" أو أن أحدد عنوان الحديث بعض الشئ، وقد خطر لى أن يكون "الوحدة العربية إزاء العالم".

خطر لى هذا العنوان " الوحدة العربية إزاء العالم "، لأن لدى قضية أريد أن أقولها تحت هذا العنوان. قضية لعلنا نعرفها ولكننا أحيانا ننساها، قضية لعلها ترد على بعض هذه التساؤلات التى ذكرت إنها تطوف بعقل المواطن العربى وتزعج ضميره..

أريد أن أقول فى بساطة وصراحة وإيجاز: أن العالم كله ضد الوحدة العربية!!.

نعم!.. العالم كله ضد الوحدة العربية. أقول هذه دونى أدنى رغبة فى الإثارة أو المبالغة أو إعطاء أنفسنا أهمية أكثر مما يجب. وأبادر أيضا فأسجل أننى لست من الذين يحبون أن يروا الأشباح والمؤامرات وراء كل فشل يصيب قدمهم. ولست من الذين يستسهلون الحياة بتعليق المسئولية على أقرب شماعة... كالاستعمار أو خلافه. كلا.

إنما أقول هذا بكل مسئولية وعقلانية. وأقوله وأنا مؤمن فى نفس الوقت أن كون العالم كله ضد الوحدة العربية ليس معناه أنها مطلب مستحيل. ولذلك ربما

كانت الصيغة الأكثر توازناً واكتمالا أن أقول: العالم كله ضد الوحدة العربية. ولكن هذا لا يمنع العرب – لو أرادوا – من تحقيق وحدتهم.

وإذا كنت أركز، على نقطة واحدة، وهى معارضة العالم بوجه عام لقضية الوحدة العربية، فإنما أحاول أن أوضح بذلك أن الوحدة العربية أخطر وأهم بكثير جداً مما يظن البعض. فهى ليست كلمات جميلة، ولا هدفاً سهلاً، ولا تتحقق باتفاقات هزيلة، ولا بقبلات بين رؤساء الدول، وإنما هى تحتاج إلى نضال، وصبر، وعمل، ودهاء، وعيون مفتوحة على كل مناوره خارجية، وكل شرك منصوب.

***

ولكن، لماذا؟...

لماذا يكون العالم كله ضد تحقيق أمنية عزيزة على أمة من الأمم، كالأمة العربية؟...

لا يمكن طبعاً، فى هذا الحديث، إلا أن نقف عند ما يمكن أن نسميه الأسباب الرئيسية، إذ لا يتسع المجال لأن ندخل فى كل التفاصيل..

وأول نقطة تستوقفنا هنا، هى أن السياسة الدولية بوجه عام، وعلى مر العصور، كانت تكره قيام الكيانات الضخمة الكبيرة، فما قام منها إنما قام إما بحد السيف، وإما لتوفر ظروف مساعدة كثيرة.

ينسبون اليوم إلى كيسنجر أنه صاحب سياسة إقامة الاستقرار فى العالم على أساس من "التوازن الدولى". ويقول آخرون أن كيسنجر، لم يكن فى هذا إلا تلميذاً للسياسى النمساوى "ميترنيخ" الذى برز فى الإمبراطورية النمساوية عقب حروب نابليون، والذى حقق أطول مدة من السلام فى أوروبا التى كانت تتحارب باستمرار، عن طريق "التوازن الدولى".

ولكن قبل كيسنجر، وقبل ميترنخ، كان معروفاً أن إنجلترا، كانت أحد أسس سياستها الخارجية دائماً. هى إقامة نوع من التوازن الدولى خصوصاً فى أوروبا القريبة منها. كانت سياسة إنجلترا وما تزال أن لا تقوم فى أوروبا دولة مسيطرة على

بقية القارة، بأى نوع من السيطرة، لأن فى نمو مثل هذه القوة ما يهدد مصالحها فى أهم منطقة بالنسبة لها. نابليون لم يطلب معاداة إنجلترا، هتلر لم يطلب معاداة إنجلترا، ولكن إنجلترا كانت دائماً إذا بدت قوة صاعدة جمعت الآخرين فى تحالف، لحصر هذه القوة، وإعادتها إلى حجمها. ولا تذهب إنجلترا إلى الحرب وحدها أبداً، وحين نقرأ تاريخ أى حرب، ونجد طرفاً من المحاربين يسمى "الحلفاء"، فلابد أن نجد فيه إنجلترا. تلك كانت فلسفتها التى حكمت بها العالم أكثر مما حكمت بأسطولها. حين كانت الإمبراطورية العثمانية توشك أن تهزم روسيا القيصرية، كما فى حروب القرم وغيرها، كانت تصنع تحالفا من سائر قوى أوروبا يقف مع روسيا ضد الإمبراطورية العثمانية. وحين أوشك محمد على الكبير الزاحف من مصر إلى الشام أن يهدد الإمبراطورية العثمانية، جمعت تحالفاً آخر وفيه روسيا ضد محمد على لإبقاء التوازن بينه وبين الخليفة العثمانى. وفى وجه نابليون جمعت روسيا والنمسا وألمانيا. وفى وجه غليوم الثانى سنة ١٩١٤ ثم هتلر سنة ١٩٣٩ جمعت روسيا وفرنسا وأمريكا وسائر أوروبا، فهى لم تحارب مثلاً سنة ١٩٣٩ لأن هتلر هاجم بولندا. بل لأنه بعد أن أبتلع النمسا ثم تشيكوسلوفاكيا ثم بولندا صار تركه خطراً يهدد بتحول ألمانيا إلى تلك القوة الكبرى التى تهدد التوازن المحسوب.

وعادة، القوى الكبرى فى أى عصر، المستفيدة من الوضع الدولى القائم، هى التى يهمها إبقاء التوازن كما هو.. وهى التى تعارض قيام قوى كبرى جديدة إلى جانبها..

والقوى الكبرى تعبير لن أستخدمه هنا بالمعنى العسكرى فحسب. ولكن بالمعنى الاقتصادى أيضا، الذى هو الهدف المهم فى الحقيقة، ومحور الصراعات الدولية عبر معظم العصور.

وما هى سياسة المعاهدات والتحالفات منذ قديم الأزل؟ إنها إما معاهدة بين طرفين قويين، تمنع الصراع بينهما، حتى لا يستفيد من تناحرهما طرف ثالث، أو تحالف بين دولتين أو أكثر لاحتواء أو اتقاء خطر قوة أخرى تشكل تهديداً مشتركاً بالنسبة لأطراف التحالف.

وإذا كنت ضربت مثلاً سريعاً موجزاً بإنجلترا، فلأنها كانت هى الدولة الأقوى والأعرق والأمهر سياسياً فى العالم، خلال الأربعة قرون الماضية تقريباً. فهى النموذج الأكبر، وإن كان قد حل محلها غيرها فى عالم اليوم.

وليس هناك ما هو أكثر فعالية فى الحيلولة دون قيام قوة جديدة كبيرة، أو فى تدميرها، من عملية تقسيمها أو تفكيكها. وهنا أيضا نعرض لأسلوب تعرفه السياسة الدولية جيداً.

فالولايات المتحدة الأمريكية، القوة الكبرى فى عالم اليوم. قامت بمساعدة ظروف كثيرة، أبسطها بعدها البعيد عن أوروبا فى عصر لم يكن العلم فيه قد تقدم بعد، بل إنها قامت فى غفلة عن العالم القوى، فى وقتها أوروبا كانت مشغولة بحروبها وثوراتها، وأحداً لا يتوقع أن تتحول تلك الأرض الفضاء إلى الكيان الضخم. حتى أن الولايات الاثنتى عشرة التى بدأت فى أمريكا كانت أحيانا تشترى ولاية بأكملها من فرنسا أو من غيرها بما يساوى ٢ أو ٣ مليون دولار.

القوة الكبرى الثانية، روسيا القيصرية، وخصوصا عندما بدأت تتحول إلى الإتحاد السوفييتى، جرت هجمات إنجليزية وأمريكية وبولندية كثيرة فى محاولة لتفكيكها خلال فوضى الثورة وضعفها.

والنموذج الماثل أمامنا ألمانيا. فالشعب الألمانى هو أكبر الشعوب عدداً فى قلب أوروبا. وله صفات عريقة فى القوة والانتظام جعلته دائماً قابلاً للتفوق مادياً وصناعياً وعسكرياً. لذلك ظلت كل دول أوروبا الكبيرة المحيطة تمنع ألمانيا من التوحد وتجعلها دائماً دويلات وإمارات صغيرة، حتى وحدها بسمارك كما نعرف بمزيج من القوة والدهاء. ولما تكرر خطر ألمانيا مرتين فى الحربين الأولى والثانية، كان الحل الذى إتفق عليه الجميع، شرقاً وغرباً، هو تقسيم ألمانيا. وحتى الآن ربما كانت أمريكا وحدها التى لا تعارض توحيد ألمانيا لأن خطرها سيكون موجهاً إلى روسيا. وسيؤثر على وضع كل المعسكر الشرقى فى شرق أوروبا، ولكن فيما عدا أمريكا فإن كل دول أوروبا بلا استثناء، شرقية وغربية، تريد أن تبقى ألمانيا مقسمة إلى دولتين. فألمانيا فى الواقع بشعبها الكبير، المتقدم، القوى، أو لأنها كذلك، لم تعش دولة موحدة أكثر من حوالى سبعين سنة فقط!.

مثل آخر يستحق أن يكون موضع دراسات عديدة ومازالت كثيرة من أسراره مطلوبة وهو انهيار الإمبراطورية العثمانية.

لا نملك فى هذا المجال، إلا أن نتحدث عن خطوط عريضة جداً، ولكنها تكفى لأنها تتصل بسياق حديثنا...

كانت الإمبراطورية العثمانية مكروهة بغير شك من دول ذلك العصر وإمبراطورياته القوية، روسيا القيصرية. إمبراطورية النمسا. فرنسا. إنجلترا، وكان يكفى لكراهيتها إنها كانت تجسد المد الإسلامي. وتدمير بيزنطة نهائياً. واحتلالها لمناطق يعتبرها الآخرون أولى بهم، خصوصاً البلقان كله، حتى قلب أوروبا. وأنها من ناحية أخرى تشغل بقعة بالغة الأهمية، هى نقطة الوصل بين الشرق والغرب. خصوصاً بعد أن انفتحت مستعمرات الشرق لصناعة الغرب وتجارته.

كانوا لا يكفون عن التآمر ضدها. والعمل على ضعضعتها وتخريبها من الداخل. والحصول على امتيازات فى قلبها هنا وهناك. وبث الفتن الدينية والعنصرية فى أرجائها. وفى بعض المذكرات القديمة وخطابات قناصل تلك الدول الكثير والرهيب، مما يشير إلى ذلك.

وفى نفس الوقت، كانوا إذا وجدوا أن الإمبراطورية العثمانية، مهددة بحركة تجديدية من داخلها، يسارعون إلى الوقوف إلى جانب الباب العالى، ويساهمون فى توطيد سيطرته. لماذا؟ كانوا يريدون أن تبقى الإمبراطورية كما سموها رجل أوروبا المريض، وكانوا يريدون للرجل المريض الموت ولكن فى الساعة التى تناسبهم والظروف المواتية لهم، حتى يقتسموها هم، فلا تستعيد صحتها أو تسترد شبابها مع حجمها الضخم الكبير. هكذا تحالفت أوروبا كلها مثلاً ضد محمد على الكبير الذى كان يمثل قوة فتية نامية فى إهاب الإمبراطورية العجوز، وهكذا تحالفت نفس الدول على خداع الثورة العربية بعد ذلك فى الحرب العالمية الأولى، موهمة لها أنها ستحقق أملها فى استقلال الشرق العربى موحداً، بينما كانوا قد وقعوا بالفعل معاهدة سايكس بيكو لتقسيم المشرق العربى إلى دول وتفاهموا بالفعل مع الحركة الصهيونية لإعطائها فلسطين. وهذا ما كان....

إذن فالذى نستخلصه من هذه الأمثلة.. أن هناك حقيقتين قديمتين جديدتين، من حقائق السياسة الدولية، وهما مقاومة ظهور أى قوة جديدة من قبل القوة القائمة لأنها تربك التوازن القائم، وتقلل من فعالية القوى القديمة، وأن التقسيم أو الإبقاء على عوامل الانقسام أحد أهم الأسلحة التى تستخدم لتحقيق هذا الغرض فى كل زمان ومكان..

.. فإذا كانت هذه من القواعد الأساسية فى لعبة الأمم.. فلست أدرى لماذا نعتبرها غير موجودة بالنسبة لنا، ولماذا لا نتوقع أن يكون مجرد احتمال قيام قوة عربية كبرى فيه ما يثير مقاومة الآخرين؟ خصوصاً وأن الأمر فى حالتنا أشد. أى أنه فوق هذه القواعد العامة للعبة السياسة الدولية، هناك أشياء خاصة بنا تجعلنا يجب أن نتوقع مقاومة أشد، وما هو سوف أصل إليه بعد قليل.

ففى حدود القواعد العامة أيضا للعبة الأمم، ما يجب علينا أن نفصله ونستوضحه قليلاً...

فنحن نقول العالم ضد الوحدة العربية بوجه عام.. ولكن العالم يتكون من دول ومعسكرات، وهى دول يمكن تقسيمها أو تصنيفها تصنيفات مختلفة. وكل نوع أو صنف منها قد يكون له رد فعل مختلف.

فمن ناحية القوة، بكل معانى القوة عسكرية واقتصادية وعلمية وعددية، نجد عندنا:

أولاً: دولتان كبريان. هما الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفيتى. مثل هاتين الدولتين لا يمكن أن نتصور أن تتقبل إحداهما ببساطة فكرة قيام دولة أو كيان أو كتلة قوية متراصة مترابطة ممتدة من المحيط إلى الخليج. وهنا نأتى إلى بعض تلك الصفات الخاصة بالوحدة العربية والتى تجعل القبول بها أصعب. فهذه الرقعة ليست فى أى مكان من الأرض. ليست فى أمريكا الجنوبية أو فى أستراليا، إنها فى قلب العالم. تشرف على الخليج. والمحيط الهندى، وتحكم البحر الأحمر كله، ولها نصف شواطئ البحر الأبيض المتوسط وتطل شواطئها على المحيط الأطلنطى، والأمر الجديد أنه صار لديها أكبر وأهم مخزون عالمى لأهم سلعة إستراتيجية فى العالم وهى البترول. أليس التعامل مع هذه الدول فرادى أسهل مائة مرة من التعامل معها ككل واحد؟..

إذا أرادت روسيا طريقاً إلى البحار الدافئة فهى لابد أن تفكر فيها، وإذا أرادت أمريكا أن تحمى طرق تجارتها الدولية وتجارة معسكر الغرب والشريان الذى يمد إسرائيل بالحياة فلابد أن تفكر فيها.. وبالنسبة للطرفين فالتفكير فى هذا الكيان موحداً هو بالتأكيد فكرة مرعبة وكابوس مزعج.

وبعد الدولتين الكبيرتين تأتى الدول الصناعية المتقدمة فى أوروبا أو كندا أو اليابان، وهى ليست بعيدة عن تلك الدولتين الكبيرتين وبالتالى ليست بعيدة عن ردود فعلهما، فضلاً عن أسباب خاصة بأوروبا بالذات، سوف أعرض لها بعد قليل.

ثم هناك الدول النامية، وقد تكون مقاومتها للفكرة أقل أو هى غير قادرة على مقاومتها وإن كان يمكن أن نتصور أنها لا تتحمس لها.

ثم الدول الأشد فقراً، وهى بند جديد فى جدول الدول دخل القاموس الدولى، ولكنها لا تختلف كثيراً عن المجموعة السابقة.

تقسيم أو تصنيف آخر، يمكن أن نصنف به الدول إلى دول مجاورة وقريبة منا، ودول بعيدة عنا، هنا أيضا ربما نجد دول أمريكا الجنوبية لا يزعجها كثيراً قيام وحدة عربية فى أى صورة من الصور. أما الدول المجاورة للحدود العربية أو التى تشترك مع الدول العربية فى بحار واحدة، فهى بالغريزة وبالطبيعة، شأن كل دول العالم، لا تحب تعاظم قوة الجار القريب ولا ترتاح مستقبلياً إليها. فهى لابد أن تكون فى صف المقاومين لها، ما أمكنها ذلك.

تقسيم ثالث، يمكن أن نصنف به الدول إلى دول ترى أن رسالتها فى خدمة نفسها ومصالحها فحسب. ودول ترى أن لها فوق ذلك رسالة عالمية، تتخطى حدودها، وهذه أيضا تصطدم بنا. فروسيا مثلاً ترى أن لها فوق وضعها كدولة كبرى دوراً آخر فى نشر المذهب الماركسى الذى ترى أنه النظام المناسب لعالم الغد.. والغرب يرى أن لديه رسالة يسميها الحضارة الغربية المسيحية، بكل مقوماتها التى نعرفها، ومعظم الأحزاب فى أوروبا الغربية اسمها Christian Democratic هذا هو الاسم الذى تطلقه الكتب على مجموعة القيم التى ارتبطت بقيام الحضارة الغربية ونشوئها. وفى هذا المجال، يرى الاثنان، أن العالم العربى يخلق لهما مشكلة. فهو ليس أرضاً عارية من حضارة متكاملة سابقة، وعالمية الرسالة أيضا، وهى الحضارة العربية الإسلامية، ومن الطبيعى أن ينظر إلينا فى القليل نظرة تنافس أو عدم ارتياح، لأن أى بلد له حضارة شرقية لابد أن تؤثر فى نمط تقبله حتى للدعوات الجديدة. فالماركسية مثلاً، بنت الحضارة الغربية، لم تنقلب إلى لون جديد، منافس، مختلف، حاد فى اختلافه، إلا فى الصين، لأنها بدورها كيان ضخم ذو حضارة شديدة

الخصوصية، ولا أحد يعرف إلى أين ستنتهى التجربة هناك، ولكن أحداً لم يكن يتصور أن مشكلة روسيا العظمى سوف تكون مع الصين!.

تقسيم رابع، يمكن أن نصنف به الدول، إلى دول لها معنا سابق تاريخ واحتكاك، ودول ليس لها معنا مثل هذا التاريخ.

فهناك، مثلاً الدول الإفريقية، أو بالتحديد الحزام الإفريقى الذى يلى الشمال العربى الإفريقى مباشرة. هنا نجد منطقة مختلطة، مناطق مسلمة ومناطق مسيحية ومناطق وثنية. مناطق يجرى فى عروق أهلها الدم العربى بوضوح، ومناطق زنجية خالصة، فتلك كانت نقطة الالتقاء ومعبرة الهجرة والتجارة والتعامل أيام المد العربى. وفى تلك المناطق يوجد حب للعرب، أول من نقلوا لهم تاريخياً أنوار الحضارة، وفيه كراهية مصدرها ما يقال عن تجارة الرقيق، وهى نقطة حاول الاستعمار الأوروبى أن يغذيها هناك حتى يقيم حاجزاً بيننا وبينهم. وإن كانت مساعدة العرب لحركات التحرر الإفريقى فى القرن العشرين قد أزالت الكثير من أثر تلك التركة، إلا أن بعضها قائم.

وهناك جار آخر، ذو أهمية خاصة، هو جارنا الشمالى، الذى يفصل بيننا وبينه البحر الأبيض المتوسط أو بالأحرى يجمع بيننا وبينه البحر الأبيض، وهو أوروبا.

ولا أريد أن أعيد هنا ما كتبته فى مجلة "العربى" – عدد أغسطس ١٩٧٦ تحت عنوان "نحن نعيش الحرب الصليبية العاشرة".. من استعراض شامل للحروب الصليبية، كمواجهة بين حضارات استمرت قروناً، وتركت آثاراً عميقة لدى الجانبين..

ولكن العبرة العامة، أن "أوروبا قوية" كانت تحب أن ترى دائماً عالماً عربياً ضعيفاً. لأن عالماً عربياً موحداً كان يعنى إضعاف أوروبا.

والظروف السياسية والاقتصادية تغيرت بالطبع. ولكن الرواسب لا تموت بسهولة. وقد يهم الأوروبيون بترولنا. ولكن قد تزعجهم وحدتنا على وجه اليقين.

... وبعد، فإننى أقول هذا كله لا لبث اليأس من قضية الوحدة العربية، ولكن لكى أنبه العرب جميعاً إلى أننا حين نفكر فى الوحدة، بأى شكل وعلى أى مستوى، فنحن نفكر فى مشروع من أخطر مشروعات التاريخ كله! وعلى هذا المستوى يجب أن يكون التفكير فيه.. والعمل من أجله.

فكرة القانون وقضية الشرعية

في العالم العربي(*)

هذا الحديث.. استئناف الحديث سابق، كتبته قبل سنتين. وأعراف أن هذه مقدمة غير جذابة لأي حديث. ولكن ماذا نفعل وقضايانا بطيئة، ومردود الكلام قليل، وقد ينهل المطر فتثمر البذور وتخضر الأرض، أو يستمر الجفاف فتموت البذور المنثورة وتبقى الأرض قاحلة.

وقد وعدت القارئ وقتها باستئناف ذلك الحديث عن "شرعية السلطة في العالم العربي". ولكن الأحداث تقاطعنا، وتجبرنا على الانعطاف عن الطريق الرئيسي إلى اتجاهات جانبية، بسبب الحفريات والمطبات التي تجعل المرور متعذراً.

وقد أعادني إلى هذا الحديث كتاب من سلسلة "عالم المعرفة" التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وهي أرقى سلسلة فى اللغة العربية، وتضارع أرقى سلسلة بأي لغة. والكتاب معروف لأهل القانون- وأنا خريج حقوق - وهو كتاب "فكرة القانون" بقلم القانوني الإنجليزي الشهير دينيس لويد. قد ترجمه وراجعه قانونيان عربيان: سليم الصوص، وسليم بسيسو. وقد سعدت بترجمته لأنه صار في متناول الجميع، أي من غير أهل القانون المتخصصين.

ونحن الذين درسنا القانون نعتقد أنه كما أن الفنون والآداب والثقافة يجب أن تكون مشاعة بين كل أهل التخصصات والمهن والمواطنين الآخرين، فكذلك يجب أن يكون الأمر بالنسبة إلى القانون...

وليس معنى ذلك أن يعرف كل مواطن مواد القانون المدني والجنائي والتجاري وغيرها، كما يعرف عبد الوهاب وأم كلثوم وفيروز.. ولكن أن يعرف

---

* مقال منشور بمجلة المصور بتاريخ ١٩٨٢/٣/١

"فكرة القانون"، وما هو "القانون"؟

ذلك أن الناس – حتى المسئولين في معظم الحالات – يظنون أن أي ورقة مرت بالمراحل "التشريعية" المختلفة حسب نظام كل بلد، أي من حاكم فرد أو من مجلس قيادة أو من برلمان أو حتى من استفتاء شعبي،تصبح "قانوناً" جديراً بهذا الاسم الجليل.

وهذا غير صحيح:

ومن هنا يعتبر هذا الحديث مكملاً للحديث عن مشكلة "الشرعية في العالم العربي"، وما خلصنا إليه من أن انعدام الشرعية في أى مجتمع – على اختلاف ألوان الشرعية، هو أعمق مشكلة واجهها العالم العربي في البحث عن صيغة لحياته حاضراً ومستقبلا. ولأذكر القارئ بأن "الشرعية" قد تكون وراثية وجمهورية انتخابية أو ثورية،ولكن هناك شروط هي التي تضفى على هذه "الأشكال"، تتلاءم مع كل مجتمع وتراثه، وتكوينه، وحاجته الطبيعية في الاستمرار، وفي التغيير، بما يلائم ظروفه في المرحلة التي يعيشها. و"التشريع" غير "الشرعية".. وإن تشابهت الكلمتان.

من أفلاطون إلى باكونين

والتشريع – الذي هو القانون – لا يهمنا هنا – كما قلت تفاصيله، ولكن يهمنا فكرته، فلا حياة لأي مجتمع دون قانون ما. فهو موضوع يهم الجميع، وأبسط الناس وأقلهم معرفة يعيش من خلال "قوانين" دون أن يعرفها.

كما أن "القوانين" التي تحكم حياة الناس ليست كلها "مكتوبة" في مواد، كما قد يتصور الناس.

إن أول "مجتمع" إنساني، بل "جماعة" إنسانية، وجدت على الأرض، ما كانت "تجتمع" إلا على "قانون"، أو مجموعة من الأعراف والتقاليد والسلوكيات متعارف عليها، تتعبها الأغلبية، ومن يعصيها يكون خارجاً عليها.

وعندما نجد أصل كلمة "الخليع" في اللغة العربية –.منذ الجاهلية – نجد أن أصلها ذلك الذي "خلعته" قبيلته عنها، وتخلت عن حمايته إزاء القبائل الأخرى، لأنه

خرج عن قيم وأعراف وسلوكيات قبيلته.

ففي أكثر المجتمعات بدائية كان هناك قانون. وبغير ذلك ما قامت مجتمعات من الأصل، حتى المجتمعات التي تؤمن بالجن والشعوذة وتعبد الشمس أو النار أو المطر وتقدس رئيس القبيلة، وتعطيه الحق في مائة زوجة أو كل نساء القبيلة، كالحال في أواسط أفريقيا.

وهذا لم يمنع أن يكون كثير من أكبر المفكرين العقلانيين من أعداء فكرة القانون ذاتها، أو في فكره شيء من هذا، من أفلاطون - صاحب الجمهورية المثالية التي هي قانون عنيف - إلى "باكونين" و "كروبتكين" زعماء المذاهب الفوضوية في القرن التاسع عشر الذين بشروا باختفاء الدولة أي باختفاء القانون.

وما زالت صيحة "جان جاك روسو" تدوي في الآفاق، حين قال: "إن الشر بدأ في العالم كله حين وضع أول إنسان أول علامة على قطعة أرض وقال "هذه ملكي"، فمنذ تلك اللحظة بدأت الحدود والقيود، وبدأت الصراعات، وولدت القوانين. وإن الحل هو العودة إلى الطبيعة، حين لم يكن هناك نص مكتوب..".

وقد لعبت هذه الصيحة دوراً كبيراً في قيام الثورة الفرنسية، وتأثر بها - ومازال - مفكرون كثيرون بطرق شتي. ولكن هذه الصيحة كانت "أولاً" رد فعل على تراكم "قوانين" ظالمة صارت سدوداً في طريق تقدم البشرية، لأن هذه "العلامة" الأولى التي وضعها أول إنسان على قطعة أرض وقال هذه ملكي، تحولت عبر القرون إلى عسف أمراء الإقطاع وإلى رقيق الأرض، إلى آخره وكانت "ثانياً" مستحيلة، لأن العالم الذي تقدم بعد عصر النهضة وازدحم، وعرف المدن الكبيرة، والعلاقات المعقدة، لم يكن ممكناً أن يعود إلى حياة الرعاة من جديد.

عندما يلتقي النقيضان

والغزيب أن فكرة إلغاء الدولة وإلغاء القانون يلتقي عندها أقصى اليسار وأقصى اليمين. فالفوضويون - وهو مذهب له فلسفته، ينتمي إليه فيما اعتقد منظمات مثل "الألوية الحمراء" في إيطاليا- يرون أن "الدولة" هي مصدر كل شر، لأن الدولة للأقوياء، ولو اختفت لساد العدل. والمحافظون المتطرفون - مثل رونالد

ريجان – يرون أيضاً أن الدولة هي مصدر كل شر، وأنه كلما تركت الدولة الناس وشأنهم فسوف يسود قانون آخر عكسي يؤمن به، وهو: أن يكون البقاء للأقوى، وأن هذه هي سنة الكون!

ومنذ البداية كما ذكرت، وبشكل تلقائي، لم يجتمع ناس في جماعة إلا حول "قانون" أو"عرف" غير مكتوب، له نفس وظيفة القانون...

ولكن، منذ بداية نشوء الفكر وقيام الحضارة، كان هناك تفريق بين قانونين يتحمس كل فريق من أهل القانون لأحدهما.

القانون الطبيعي.

القانون الوضعي.

وكان طبيعياً أن يبدأ الفكر الإنساني بالانتماء إلى القانون الطبيعي. فقبل رسالات السماء، وقبل العلم، كان الإنسان متأثراً في كل نواحي حياته بالطبيعة، وبقوى غيبية لا يدركها، وبالتالي لابد أن يكون هو نفسه جزءاً من هذه الطبيعة. إذن فالقانون السليم – مكتوباً أو غير مكتوب في البداية – هو المستمد من الطبيعة، وغايته يجب أن تكون هي محاولة تحقيق أكبر درجة من الانسجام بينه وبين الطبيعة.

كان من حقائق الطبيعة مثلاً أن البقاء للأقوى، في الغابة كما في المجتمع البشري.

فكما أن من حق الأسد الذي خلق سيداً على الحيوانات أن يأكل أي فريسة، فمن حق أي قبيلة أو جماعة قوية أن تقتل وتسلب وتسبي قبيلة أو جماعة أقل منها قوة.

ومع تقدم الإنسان البطيء، أدرك أن هذا ليس "عدلاً" وإن إحدى غايات أي قانون لابد أن تكون تحقيق درجة من العدل.

الإنسان والقانون الوضعي

ومع ذلك فقد امتدت فكرة القانون الطبيعي عبر القرون. فقد أخذ بها الإغريق ولكن من زاوية "عقلية": فأهم دور للإغريق في الحضارة هو تقديسهم للعقل الذي ظل مؤثراً إلى الآن، وبالتالي قالوا: إن هذا الكون – بالتحليل العقلي – لابد وأن له منطقاً أوجده، وقوة خلقته، وقانوناً يسيره. فالإنسان إذن عليه أن يتلاءم مع هذا

الكون، ولكن من منطلق التحليل العقلي لا الاكتفاء بالظواهر كما فعل البدائيون. لقد حاولوا فهم ما وراء هذا العالم. ما هى "فكرته" الأساسية؟ وأن القوانين التي يضعها الإنسان يجب أن تحاول الاقتراب من الفكرة المثالية الكامنة وراء هذا الكون والقوانين التي تحكمه والتي يمكن معرفتها بالعقل المجرد. فالطبيعة هي أمر واقع، وهي المقياس، الذي يجب استخدامه في معرفة ما هو طبيعي وما هو غير طبيعي.

وتنوع العزف على هذه النغمة الأساسية ابتداء من أفلاطون وأرسطو إلى من جاءوا بعدهما، ولكن مع عصر النهضة في أوروبا لم يعد لدى الإنسان سلاح واحد هو العقل المجرد، لقد ظهر العلم، ومع العلم ظهرت "التجربة". وبدأ عصر الشك الذي جسده "ديكارت" بل وضع الشك في مقام عال حين قال: أنا أشك إذن فأنا موجود! أي جعل الشك معيار الوجود.

في هذه العهد الجديد ظهر النوع الثاني بعد القانون الطبيعي وهو "القانون الوضعي".

والفكرة واضحة من الاسم: إن علينا أن نبحث - عملياً وفكرياً - ما هو موجود. ما هو طبيعي، ولكن ليس علينا أن نعتبره مثلاً أعلى لا عن طريق الخرافة ولا عن طريق العقل المجرد. الطبيعة فيها الخير والشر وليس صحيحاً أن الإنسان طيب وخير بالسليقة والأصل. فقد قتل قابيل أخاه هابيل، وبالتالي فيجب أن "يضع" الإنسان قوانينه ويقلل الشر ويزيد الخير، ويعالج الأدواء المولودة مع الطبيعة.

كان فرسان هذه القضية "كانت" و "لوك" و"هيوم" وغيرهم كثيرون.

وقال "كانت" قولاً شهيراً: "إن هناك ما هو كائن بالفعل، وهناك "ما يجب أن يكون". وعلى الإنسان أن يتدخل فيما هو كائن ليقترب به إلى ما يجب أن يكون...".

ألسنا نروض الأنهار التي تغرق الناس بفيضاناتها؟ ألسنا نقاوم الأمراض والأوبئة؟ إذن علينا أن نروض المجتمعات البشرية، بالقانون "الوضعي". وسيطر منطق القانون الوضعي وما يزال.

دور هام للرسالات السماوية

ولكن كان هناك تيار وسط، لم يجد تعارضاً حاداً بين الطبيعي والوضعي، بل

حاول أن يجعلهما متكاملين، في طلب الحياة الأحسن.

وأياً كن منبع هذا التيار، ففي تقديري أن منبعه الأكبر هو الرسالات السماوية والأديان. فالأديان تعطي "الطبيعة" – مادية وبشرية – قيمة كبيرة لأنها من خلق الله. ولكل شيء حكمة، الخير الشر على السواء، إذن هناك احترام كبير للإبقاء على الصلة بين الإنسان مهما بلغ علمه وعقله، وبين الطبيعة. وبالتالي فالقانون الطبيعي سيظل دائما له حكمة وله نفع وله مكان، والانسلاخ عنه مستحيل.

وفي الوقت نفسه، نزلت الأديان بأحكام تقترب وتبتعد عن القوانين، ولكن فيها قدر من القانون، بعضها وضع مجرد قيم أخلاقية، طالب بها البشر، فهيَ قانون – والفرق بين القانون والأخلاق قضية كبيرة، ليس مجالها هذا الحديث – ولكنها في هذا المجال قانون... وبعضها – الإسلام بالذات – نزل بالقيم والأخلاق، ولكنه أضاف إضافة هائلة مختلفة نوعياً لا كمياً، إلى بند ما يعتبر قانوناً، فقد نزل مقنناً لأشياء كثيرة تنظم حياة الإنسان بل وتنص على العقوبات، وفي مجال كالزواج والطلاق والإرث مثلاً ينظمها تنظيماً شاملاً محدداً.

ومع ذلك فهو لم يلغ العقل ولم يحرم الإنسان من حق التفكير والاجتهاد على ضوء نصوصه، وتغيير التفكير والاجتهاد وتطويره من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان.

فهو إذن قوة كبرى في ساحة الأخذ بالقانونين معاً، الطبيعي والوضعي، أو الطبيعي والإلهي والوضعي، وفي ساحة الأخذ بمنطق الحث على التكامل والانسجام بينها حين يضع الناس قوانينهم مفصلة.

ولعلي أسرفت في هذه المقدمة التاريخية، التي لابد منها في تصوري، ولكي نقترب من موضوع فكرة القانون كما يجب أن نفهمها في حياتنا المعاصرة، والتي ينقص مجتمعنا إدراكها والتي تكمل فكرة "الشرعية"، لأن التشريع ووضع القوانين هو ترجمة الشرعية وأسلوبها في ممارسة شرعيتها.

سيادة القانون..

عندما تصبح "نكتة"!

إن ما ذكرته في الحديث السابق عن "شرعية السلطة في العالم العربي"

ينطبق على هذا الحديث.

فالمعيار واحد.

السلطة حقيقة موجودة، وتتخذ أشكالاً شتى.

ولكن شرعيتها ليست في مجرد وجودها، فهذا معيار شكلي، والاقتصار عليه يؤدى إلى المهالك، لأنه يؤدى إلى الانفصام بين المجتمع والسلطة التي يفترض أنها تمثله.

والتعريف المأخوذ به في كتب العلوم السياسية هو أن شرعية السلطة توجد "إذا كانت السلطة تمثل الإرادة العامة والعقل العام والمزاج العام بنسبة كبيرة، تشارف الأغلبية في المجتمع".

فهو – كما نرى – معيار موضوعي، لا شكلي.

الشكليات ليست الأساس.

دستور غير ملائم لهذه الشروط، برلمان لا يمثل هذا الإرادة العامة والعقل العام والمزاج العام، ووزارة منتخبة من هذا البرلمان، كل هذا لا يوجد الشرعية.

فما أسهل فرض الدساتير، وتزوير الانتخابات وتزوير الاستفتاءات. فالشكل شرعي ولكن الجوهر غير شرعي.

الشيء نفسه ينطبق على القانون... وهذه هي "فكرة القانون".

لابد – في فهمي وقناعتي – أن يكون القانون فيه جزء نابع من "طبيعة" المجتمع، كما ينبع الماء من مصدر طبيعي. لابد أن يكون جزءاً من الطبيعة البشرية لمجتمع ما، كالماء الذي هو جزء من الطبيعة الجيولوجية. فكل مجتمع له "جيولوجيا" في تراثه وبيئته وتاريخه وتكوينه النفسي وقيمه السلوكية والدينية والأخلاقية.

ولابد أن يكون القانون فيه جزء وضعي "ولكنه لابد أن يكون وضعياً بالشروط والتعبيرات السابقة" معبراً عن الإرادة العامة والعقل العام والمزاج العام للنسبة الغالبة في المجتمع لأن الإجماع شبه مستحيل.

حتى في "الشرعية الثورية" التي تأتي لتحطم شرعية وتقيم شرعية جديدة،

والتي تستهدف تغيير المجتمع، لابد لكي تنجح أن تكون رد فعل لمشاكل حقيقة وآتية بحلول تعبر عن العقل العام والضمير العام والإرادة العامة لأغلبية المجتمع، بصرف النظر عن "شكل التعبير" الذي قد يكون ركيكاً أو بليغاً، ولكن شرط البلاغة أساسي في "موضوعية التعبير".

إذن؟

فحين نتحدث عن سيادة القانون فهذا عنوان عام جميل، لكن لا يجب الاستسلام له، مهما أحيط بشكليات القوانين: من توقيعات، وإقرارات، واستفتاءات، كلها جريحة ومجرحة بشكل أو بآخر.

سيادة القانون هنا نكتة.

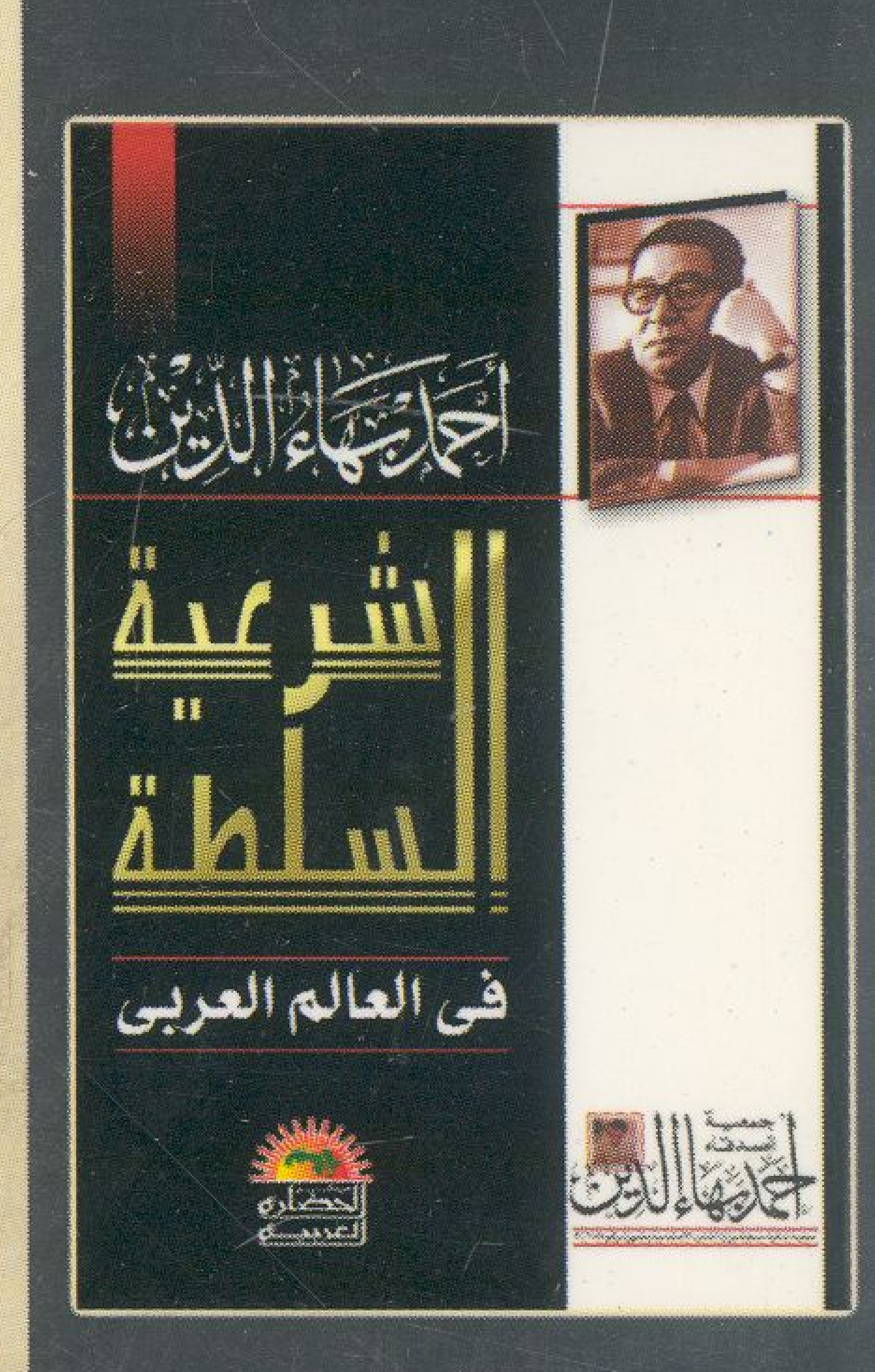
وهذا سر رد فعل الشعوب حين لا تطيع – فى أغلبيتها – القوانين وتقابلها بسلبية هائلة. إنها "تخضع" لها بحكم القوة لا بحكم احترام القانون.. "والخضوع" على العكس يعلم الناس عصيان القانون، ولكنها لا "تطيع" إلا القوانين المعبّرة عن الإرادة العامة والضمير العام. يطيعها حتى المخالف لها، ومن حقه أن يدعو إلى تغييرها، وهو يفعل ذلك سلمياً، ذلك أنه يعرف أنه ولو خالفها فهي تعبير عن ضمير عام وإرادة عامة، ولا سبيل أمامه إلا أن يقنع الضمير العام والإرادة العامة بأن يتغيرا.

هذه الفجوة بين "روح القانون" المتصاعدة من هذه الينابيع وبين "القوانين" النابعة من السلطة "والقوة" وحدهما، هي الفجوة الثانية بين الشرعية واللاشرعية.

وهي السبب في الزلازل والبراكين المفاجئة، والنهايات العنيفة، والأخاديد التي تشقق المجتمع الواحد وتقطع سبل الحوار والتطور البنّاء المطرد.

وهو أمر إدراكه مسألة حياتية ومصيرية للأمة العربية وهي في مرحلة انتقال حضاري متلاطمة الأمواج لا يعصمها من الغرق في دواماتها، إلا هذه الشرعية الموضوعية، بكل مستوياتها، وكافة وجوهها.

المحتويات



كثرت في بلادنا العربية نماذج "السلطة" أو "القيادة" التى تفعل بشعوبها ما تشاء "بصورة فردية" معتقدة أن مجرد استمرارها أكثر من عشر سنوات مثلاً جعلها سلطة شرعية، فى حين أن استمرارها لم يكسبها هذه الشرعية لأن كل ذي عينين يرى أنها لا تعبر عن القيم والمصالح الحقيقية والتطلعات السائدة بين المواطنين.

السلطة حقيقة موجودة، وتتخذ أشكالاً شتى. ولكن شرعيتها ليست في مجرد وجودها، فهذا معيار شكلي، والاقتصار عليه يؤدي إلى المهالك، لأنه يؤدي إلى الانفصام بين المجتمع والسلطة التي يفترض أنها تمثله.

والتعريف المأخوذ به في كتب العلوم السياسية هو أن شرعية السلطة توجد "إذا كانت السلطة تمثل الإرادة العامة والعقل العام والمزاج العام بنسبة كبيرة، تشارف الأغلبية في المجتمع". فهو معيار موضوعي، لا شكلي، الشكليات ليست الأساس.

دستور غير ملائم لهذه الشروط، برلمان لا يمثل هذا الإرادة العامة والعقل العام والمزاج العام، وزارة منتخبة من هذا البرلمان، كل هذا لا يوجد الشرعية.

فما أسهل فرض الدساتير، وتزوير الانتخابات وتزوير الاستفتاءات، فالشكل شرعي ولكن الجوهر غير شرعي.

الشيء نفسه ينطبق على القانون... وهذه هي "فكرة القانون".

لابد أن يكون القانون نابعًا من "طبيعة" المجتمع، فكل مجتمع له تراثه وبيئته وتاريخه وتكوينه النفسي وقيمه السلوكية والدينية والأخلاقية، ولابد أن يكون معبراً عن الإرادة العامة والعقل العام والمزاج العام للنسبة الغالبة في المجتمع لأن الإجماع شبه مستحيل.

إذن..فحين نتحدث عن سيادة القانون فهذا عنوان عام جميل، لكن لا يجب الاستسلام له، مهما أحيط بشكليات القوانين: من توقيعات، وإقرارات، واستفتاءات، كلها جريحة ومجرحة بشكل أو بآخر.

وهذا سر رد فعل الشعوب حين لا تطيع - فى أغلبيتها - القوانين وتقابلها بسلبية هائلة، إنها "تخضع" لها بحكم القوة لا بحكم احترام القانون..

هذه الفجوة بين "روح القانون" المتصاعدة من هذه الينابيع وبين "القوانين" النابعة من السلطة "والقوة" وحدهما، هي الفجوة الثانية بين الشرعية واللاشرعية.

وهي السبب في الزلازل والبراكين المفاجئة، والنهايات العنيفة، والأخاديد التي تشقق المجتمع الواحد وتقطع سبل الحوار والتطور البنّاء المطرد.

وهو أمر إدراكه مسألة حياتية ومصيرية للأمة العربية وهي فـ[illegible]اري متلاطمة الأمواج لا يعصمها من الغرق في دواماتها إلا هذه [illegible]ية، بكل مستوياتها وكافة وجوهها.

